

الدكتور

زغلول النجّار

أستاذ علوم الأرض بعدد من الجامعات العربية والأجنبية
رئيس لجنة الإعجاز العلمي للقرآن الكريم والسنة المطهرة
بالمجلس الأعلى للشئون الإسلامية
ج٠م٠ع

مكتبة وهبة
١٤ شارع الجمهورية - عابدين
القاهرة تليفون: ٣٩١٧٤٧٠
فاكس: ٣٩٠٣٧٤٦

الطبعـة الأولى

١٤٢٧هـ - ٢٠٠٦م

مطبعة المدني المؤسسة السعودية بمصر
٦٨ شارع العباسية - القاهرة . ت : ٤٨٢٧٨٥١

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ وَالْعَصْرِ * إِنَّ الإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ * إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ ﴾.

[سورة العصر]

بسم الله الرحمن الرحيم

إهـــداء

أهدى هذه الصفحات إلى الشباب المسلم فى معاهد العلم المختلفة . . . ، والذى أدرك بفطرته السوية أن التربية التى يتلقاها فى معاهد اليوم ليست تربية إسلامية، فاخْتَطَّ لنفسه طريقاً إلى الهداية الربانية وسط كل المصاعب والمخاطر والمجازفات . . . غير مبال بكل ما يقدمه فى سبيل ذلك من تضحيات . . . !!!

وإلى المسئولين عن العملية التربوية فى عالم اليوم . . . وإلى كل من بيده قدرة على التغيير . . . أهدى هذه الصفحات عصارة تجربة – أحسبها صادقة إن شاء الله – . . . سائلاً الله تعالى أن ينفع بها . . .، والله الموفق والمستعان، وهو الهادى إلى سواء السبيل، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه ومن تبع هداه ودعا بدعوته إلى يوم الدين .

زغلول النجار

بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم

درج الباحثون في قضية التربية الإسلامية ،أو بالوصف الأكثر تحديداً، **المنهجية الإسلامية للتربية والتعليم**، درجوا علي أن يتناولوها في إطار « البحث التاريخى »، كما أصبح مستقراً فى السياسات التعليمية لكليات التربية فى جامعاتنا أن تدرج الحديث عن التربية الإسلامية فى مقررات مادة « تاريخ التربية »، حيث يستعرض الباحث عدداً من المجهودات الإسلامية في تراثنا الكبير مما يتعلق بموضوع : التربية والتعليم ، وإن جاءت معظم هذه الأبحاث كنوع من إثبات الوجود، أو الاعتداد بتراثنا الإسلامي أكثر من محاولتها البحث عن **نظرية إسلامية للتربية** أو قاعدة أو فلسفة ، تصلح للبناء عليها في مسيرتنا التربوية الحاضرة والمستقبلية .

وحتى الأبحاث القليلة التي حاول أصحابها التعاطي مع تراثنا التربوي من زاوية البحث الفلسفي أو من زاوية « التنظير »، اضطرت إلى الانسحاب نحو « العمل ألتأريخي »، من خلال البحث عن الروافد الفلسفية الأجنبية التي أثرت في اتجاهات الفكر التربوي عند المسلمين، الأمر الذي دلً – في عميق دلالاته – على غياب تصور وجود نظرية تربوية إسلامية تصلح لضبط وترشيد نظامنا التعليمي المعاصر.

هذا في جانب الفكر والبحث النظري، أما علي صعيد الممارسة والتطبيق، فقد استقر العرف المنهجي في نظامنا التعليمي المعاصر علي تحديد « منهج التربية الإسلامية »، بمجموعة الكتب والمقررات الدراسية التي تشمل نتفاً من العلوم الدينية، كالقرآن والحديث، والسيرة، والفقه، وبالإضافة إلي هذا « الإخلال »

الواضح بشمولية مفهوم «التربية الإسلامية» فإن هذه «النتف» من العلوم الدينية، لا تقدم للطلاب بوصفها «علوماً» لها قواعدها ومناهجها، وآليات النظر فيها، وإنما تقدم للطلاب، بوصفها شحنات إيمانية،تعزز - وفق التصور السائد - من الشعور الديني لدى الطلاب.

لقد كان من الواضح عند التأمل والفحص، في فكرنا التربوي المعاصر، علي صعيد النظر وعلي صعيد التطبيق، أن «**العلمنة**» **قد نفذت إلي صميم نظامنا التعليمي، وأحدثت الشرخ الكبير الذي عزل علوم الدنيا، عن علوم الدين، وفتتت - بالضرورة - الإطار ألقيمي والأخلاقي والروحي الذي كان يحكم ويرشد نشاطنا التعليمي كله.**

ومن ثم؛ يجئ كتاب الدكتور زغلول راغب النجار «**أزمة التعليم المعاصر.. وحلولها الإسلامية**»، والذي نقدمه ، علي طريق «إسلامية المعرفة»، يجيء هذا الكتاب ممثلاً لنقلة نوعية في الدراسات التربوية الإسلامية المعاصرة، حيث يجهد في استجماع معالم نظرية تربوية إسلامية، تصلح كبديل إسلامي جاد وعملي، للنظريات والمنهجيات التربوية السائدة اليوم في ديار الإسلام، والتي تنتمي بأصولها الفلسفية وقيمها الإنسانية إلي مذهبيات وأفكار مستوردة، بعيدة عن الأصول العقائدية والقيمية المستقرة في الضمير الإسلامي العام، في الفرد، وفي المجتمع.

وفي خلال ذلك الجهد المتميز للمؤلف، يتعاطى مع التراث التربوي الإسلامي، لا علي سبيل البحث التاريخي، وإنما علي أساس نقل ذلك التراث الخصيب من بطون الكتب ومطويات التواريخ إلي قلب معترك الواقع للعالم الإسلامي المعاصر، حيث يتم التلاقح العلمي وتنشيط حركة الفرز في كلا الطرفين: التراث والواقع، ليخلص الفكر التربوي الإسلامي في نهاية المطاف بنظام تعليمي إسلامي، تمتزج في منهجيته العامة **مقتضيات الأصالة والمعاصرة.**

وعملية «الفرز»، هذه أصبحت اليوم ضرورة، لا فكاك منها للفكر الإسلامي بوجه عام، والفكر التربوي الإسلامي بوجه خاص، وذلك أن المفترض

في فكرنا المعاصر أنه قد تخطى الآن مرحلة الصدمة الحضارية الكبرى التي انكشف فيها أمام التفوق المدني الأوربي الهائل علي مختلف الأصعدة، تلك الصدمة التي أربكت العقل الإسلامي العام، واستقطبت مدركاته التصويرية إلي زوايا حادة غير متزنة، دفعت ببعض أطرافها إلي رفع شعار التراث، وإعلائه إلي حد القداسة، وافتراض أن الحل للخروج من مأزقنا الحضاري، يكون بنقل ذلك التراث برمته ليصوغ حياتنا الحاضرة، ويحكم حركتنا الاجتماعية، بينما ذهبت أطراف أخرى إلي رفض التراث جملة، وافتراض أن الحل يكون بنقل الواقع الأوربي الحديث فكراً وقيماً وتمدناً، إلي واقعنا الإسلامي، ليحكم ويوجه حركتنا الحضارية. ليس من شك أن فكرنا الإسلامي قد تجاوز- إلي حد كبير- مرحلة الصدمة وفقدان التوازن، الأمر الذي يجعل لمجهودات الفرز والنقد والتمحيص مكان الصدارة في دراساتنا الجديدة. **فعلي صعيد الفكر التربوي، ليس كل ما فيه واقعنا التعليمي المعاصر يمثل فساداً وانحرافاً، بل فيه من الجهود والأفكار، فضلا عن التقنيات والتنظيمات، ما هو عظيم الأهمية للنهضة التعليمية الإسلامية المرجوة.**

كذلك فليس كل تراثنا التربوي نقياً من **الوجهة الإسلامية، ولا سوياً من الوجهة المنطقية والعلمية**، ففيه من النظريات والأفكار التربوية ما يمثل خروجاً علي القواعد التصورية الإسلامية، بفعل التأثر بفلسفات التراث الإغريقي والهيليني الذي انتشر في الحضارة الإسلامية بشكل واسع منذ القرن الهجري الثالث.

ومثال ذلك النظرية الشائعة عند «ابن سينا» وغيره، والتي تذهب إلي أن الإنسان عند مولده يكون «كالصفحة البيضاء» لم ينقش فيها شيء، حتى يتحصل الأفكار والمعاني بالتجربة والممارسة وبطريق الحواس، وهذه النظرية مازالت تمثل أحد قطبي الفلسفة التربوية السائدة في الفكر التربوي الأوربي الحديث، حيث يمثل نقيضها القطب الآخر.

والقاعدة الإسلامية، تفترض التميز بين «العلوم» المكتسبة، وبين المعاني

الكلية الفطرية، فالأولي هي التي يتم تحصيلها بطريق الحواس، ويصدق عليها وصف «الصفحة البيضاء»

قال تعالي: ﴿ **وَاللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ** ﴾ [النحل: ٧٨].

بيد أن هناك من المعاني والأفكار «الفطرية» تولد مع الإنسان- حين مولده- بغير كسب منه ولا إرادة، وذلك نبض القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة:

قال تعالي: ﴿ **وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا أَن تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ** ﴾ [الأعراف: ١٧٢].

وقال رسول الله ﷺ «**كل مولود يولد علي الفطرة، حتى يكون أبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه**» (رواه مسلم).

كذلك فقد وقع بعض الخلل في مدارك المفكرين التربويين المسلمين قديماً ،في تصور طبيعة العلاقة بين مفهومي: العلم والعبادة، إذ أن مفهوم «العبادة» قد انتهي به الحال إلي ضيق غريب في الفهم علي التصور الإسلامي الأصيل له، جعله مقصوراً علي الشعائر التعبدية الخالصة، ولم يتعد إلي المفهوم الشامل لها، وهو كل جهد إسلامي مخلص، يتوجه إلي تحقيق أمانة الاستخلاف، وعمران الأرض، وتحقيق عزة الإسلام والمسلمين، باستجماع إمكانات القوة علي مختلف الأصعدة.

وكان من آثار ذلك الضيق في فهم العبادة، علي مستوى الحركة التعليمية في تراثنا المتأخر بوجه خاص، **أن ضعف الحافز الديني للانطلاقة العلمية الشاملة في ميادين «العمران»**، حتى أن بعضهم، عندما بحث عن مستند شرعي يبيح دراسة «علم الحساب»، ربطه بضرورة تحصيله لمعرفة الفرائض (المواريث) وتقسيماتها، وعلي ذلك نفس سائر العلوم، وهو الأمر الذي كان سبباً رئيسياً في جمود وتخلف حركة التمدن الإسلامي.

علي جانب آخر؛ ثمة مفارقة تحتاج إلي تأمل، فيما يخص تراثنا التربوي

الخصيب، وتلك أن البحث التاريخي المعاصر، في تراثنا التربوي، يقف اليوم علي مجهودات عظيمة، كانت - إلي عهد قريب - مجهولة، حتى للمستشرقين، علي سعة إطلاعهم، وطول صبرهم علي البحث، وأصبح الباحث التربوي يواجه حشداً من الأسماء ذات الجهود في التأليف التربوي في التراث، أمثال **محمد بن سحنون، والقابسي، والآجري، والخوارزمي، وابن سينا، ومسكويه، والغزالي، وابن عبد البر، والزرنوجي، وابن جماعة، وابن خالدون، وشمس الدين الانبابي، وابن حجر الهيشمي، وابن رجب البغدادي،** وغيرهم ممن يكشف عن جهودهم وتراثهم النقاب كل يوم.

ولقد جاءت من هذا السلف المجتهد، للفتات البارعة في الفكر التربوي، مما لم يألفه الفكر التربوي العام إلا في وقت متأخر، وبعد النشاط التجريبي للفكر التربوي الأوربي الحديث، فقد عالج «المسلمون» **مسألة التعليم الإلزامي،** منذ وقت مبكر، حتى **أن القابسي (توفي ٤٠٣ هـ)** قد طرح للبحث مسألة «إذا منع الوالد ولده عن الكتاب، هل للإمام أن يجبره؟» وطرح - أيضا- مسألة ضربه أو سجنه عقاباً له علي ذلك!

وقد عالج «ابن سينا» (ت٤٢٨ هـ) مسألة من دقائق علم النفس التعليمي، أنقلها بنصها لدقة البيان حيث يقول: «ليس كل صناعة يرومها الصبي ممكنة له ومواتية، لكن ما شاكل طبعه وناسبه، وأنه لو كانت الآداب والصناعات تجيب، وتنقاد بالطلب والمرام، دون المشاكلة والملائمة، إذن ما كان أحد غفلاً من الأدب، وعارياً من صناعته، وإذن لأجمع الناس كلهم علي اختيار أشرف وأرفع الصناعات... ينبغي لمدير الصبي إذا رام اختيار الصناعة أن يزن أولا طبع الصبى ويسير قريحته ويختبر ذكاءه فيختار له الصناعات بحسب ذلك» ا.هـ.

ولكن رغم ذلك، ومع وجود هذا الميراث التربوي الراشد والخصيب، فإنه لم يحدث أن أتت في التراث «نظرية إسلامية متكاملة» للنظام التعليمي، وهي الظاهرة التي تطرح علي الذهن سؤالها: لماذا غاب التنظير عن مبحث التربية والتعليم في التراث؟

والأمر الذي يسبق إلي الذهن، ونحن بصدد الإجابة عن هذا السؤال الهام،

أن الفكر التربوي الإسلامي، في تراثنا القديم، لم يحدث أن واجه «ازدواجية» في النظام التعليمي، سواءاً في أصوله أو في مناهجه، والاختراق الفلسفي الأجنبي، لم يصل إلي البناء الاجتماعي الإسلامي أبداً، وبالتالي؛ لم تحدث مزاحمة بين النسق التربوي الإسلامي وأية أنساق تربوية أخرى، مما أدى إلي انصراف الفكر التربوي، إلي المعالجات التجزيئية والتطبيقية في فروع المسائل ودقائق المشكلات التعليمية والتربوية، ولم يجعل فكرنا التربوي التراثي- بالتالي- بموضوع التنظير، والذي هو جهد يمثل استجابة للتحدي والمزاحمة ولا يولد – علي أي صعيد – إلا إذا أستنفر.

وبالتالي؛ فإن غياب «النظرية المتكاملة» كبحث ودراسة مستقلة، في تراثنا التربوي، لا يمكن أن يمثل قدحاً في ذلك التراث، ولا عيباً فيه، إلا إذا انتزعنا الظاهرة من سياقها الحضاري، وخلفيتها التاريخية، وأيضاً، فإن هذه الظاهرة، لا تجعلنا- نحن المعاصرين- في حلٍ من «التنظير» لفكرنا التربوي الإسلامي، وذلك أن الحال قد تبدل، والظرف التاريخي قد اختلف، وإذا كان من المقرر أن اللحظة التاريخية هى التى تفرض شروطها ومتطلباتها ، فأن اللحظة التاريخية التي يمر بها البناء الاجتماعي الإسلامي المعاصر، تفرض- في أعلي شروطها- إعادة النظر في فكرنا التربوي ونظامنا التعليمي، وفي مقدمة فروض هذه اللحظة، **ضرورة استجماع وبلورة معالم النظرية الإسلامية للتربية والتعليم، وذلك أن الخرق قد وقع في البناء الاجتماعي بفعل الغزو الثقافي الأجنبي**، كما أن المزاحمة بل الطرد قد حدث في مجال النظرية التربوية، علي النحو الذي ألمحنا إليه في تلك المقدمة، وبالتالي؛ يصبح التعود عن إنشاء وبلورة النظرية التربوية الإسلامية، ومنهجيتها ، واستراتيجيتها بمثابة عجز وشلل علمي، ومن ثم؛ تقصير في حق أجيالنا المقبلة.

إن الجهد المخلص المنصرف باتجاه تحقيق إسلامية نظام التعليم في ديار الإسلام ، تتجسد أهميته القصوي ، بالنظر إلي كونه المدخل الشرطي لتحقيق وترسيخ رسالة «إسلامية المعرفة» بوصفه الجهد المنوط به بناء الشخصية الإنسانية

عـقليـا ووجـدانيـا التى تـستطيع وحـدهـا حـمل لواء هذه الرسـالة، وضـمـان استمراريتها في المستقبل، بما يحقق لها بلوغ غايتها المنشودة في ضبط وترشيد نهضتنا الحضارية الشاملة.

ومن قبل ذلك الهدف ومن بعده ، فإن تحقيق إسلامية النظام التعليمي ، وهو المدخل الشرطي الجوهري ، لتحقيق التنمية الشاملة في الأمة ، لأنها السبيل الطبيعية لتكوين الجيل المسلم القادر علي تجسيد طموحات الأمة نحو النهضة والتقدم، لأنها – ببساطة ووضوح – الوحيدة التي تضمن حصانة الشخصية الإنسانية المسلمة من ازدواجية العقل، وازدواجية الوجدان، والفصام العقلي الوجداني، إضافة إلي كونها الوحيدة القادرة علي تحقيق التواصل الحضاري بين ماضي الأمة وحاضرها في اتساق طبيعي غير متعسف، والوحيدة – أيضا – التي تضمن شحن الكبرياء الراشدة في النفس المسلمة، بما يحقق حضور الهاجس الرسالي النهضوي علي الدوام في مقدمة هموم المجتمع المسلم.

ولعله مما يثير الارتياب لدي الباحث الإسلامي المعاصر، وهو يحول في مجهودات التجديد والتطوير في نظمنا التعليمية والتربوية، منذ مطالع ما يعرف « بالنهضة الحديثة »، أن الهّم التجديدي في هذا المجال، كان ينصرف– بصفة دائمة– إلي جزئيات غامضة أو مثيرة للجدل ، أو هي– علي الأقل– ليست من صميم ألازمة وأعمدتها، في حين يبتعد ذلك الهم التجديدي، عن التوجه إلي صميم المشكلة، وجوهرها، ومحورها الأساسي.

وعلي سبيل المثال، فقد كانت من أولي القضايا التي أثارتها حركة التجديد التربوي في نهضتنا الحديثة، قضية «**تعليم المرأة** »، ولقد استغرق الجدل الدائر حول هذه «**الجزئية** » من الزمن والجهد والأعصاب، أضعاف أضعاف ما أستغرقه البحث في «**أصالة نظامنا التعليمي** » من حيث الأساس،**ومدي استقلالية منهجيتنا التربوية العامة**، والأكثر إثارة للريبة والتوجس في هذا المجال،أن من طرحوا هذه الجزئية علي الواقع الإسلامي التربوي الحديث، قد حرصوا كل الحرص ، علي ربطها بذيول لازمة، ليست بلازمة،

كربطهم تعليم المرأة بالاختلاط والسفور، مما عكس - في المقابل - آراء حادة دعت إلي رفض تعليم المرأة بالكلية!

هل نقول ، بأن الأمر كان مخططا ومدروساً لصرف الفكر الإسلامي المعاصر، عن معالجة صميم أزمته التربوية، وحل جوهر مشكلاته المربكة لنظامه التعليمي؟

علي كل حال، فإن بين أيدينا الآن دراسة الأستاذ الدكتور زغلول راغب النجار عن «**أزمة التعليم المعاصر .. وحلولها الإسلامية** » ، **وهي تمثل المدخل الصحيح والراشد لمعالجة مشكلات التربية والتعليم في ديار الإسلام لأنها لا تتجاوز البحث التاريخي ، إلي طرح الحلول الواقعية، وتجعل البحث التاريخي جزءا من مشروع الحل الإسلامي ، كما أنها تتجاوز القضايا الجزئية، إلي طرح الأصول العامة، والمنهجية العامة، واستراتجية الحل، وتجعل علاج هذه القضايا الجزئية من خلال ضبط وترشيد الأطر العامة للحل الإسلامي**، ثم إن هذه الدراسة-من قبل ذلك- تأتي من باحث إسلامي ليس بعيداً عن هموم الأزمة التعليمية في ديار الإسلام، ولا سيما علي صعيد الممارسة.

ويبقي أن نشير إلي أن قاريء هذه الدراسة، سوف يلاحظ **أن الكثير من أفكارها، ولا سيما في مبحث «استراتيجية التربية الإسلامية »** قد جاءت أقرب ما تكون إلي الروح الثورية، والتبديل الجذري، مما قد يتوهم معه البعض، بعد هذه الحلول عن الواقعية، إلا أننا نؤكد، بأن النظر الشامل، وملاحظة التاريخ القريب، يجعلنا نوقن بأن مثل هذه «الجذرية» - في ظروف معينة - تكون هي الحل الواقعي الممكن، والوحيد، وهذا ما نظنه في أفكار تلكم الدراسة الجادة.

دكتور
طه جابر العلواني
المعهد العالمي للفكر الإسلامي

بسم الله الرحمن الرحيم

مقـــدمـة

على الرغم من التوسع الملحوظ فى التعليم بمختلف مستوياته فى جميع دول العالم – على تباين ظروفها الاقتصادية والسكانية والثقافية والسياسية – ، وعلى الرغم من التطور المستمر فى طرائق التعليم، والتقدم فى توفير وسائله واحتياجاته، وتكدس المؤلفات التى تعالج مختلف قضاياه، فإن العالم يعيش اليوم أزمة تعليمية حقيقية تفوق فى حدتها الأزمات السياسية والعسكرية التى تجتاح عالم اليوم بقيادة الدول الكبرى، وعلى رأسها الولايات المتحدة الأمريكية وحلفاؤها والذين يدورون فى فلكها، وإن بدت أزمة التعليم فى مظهرها أقل خطراً، وأقل استجلابا للانتباه.

وأزمة التعليم المعاصر تختلف فى شكلها وحدتها من دولة إلى أخرى، إلا أن آثارها تنعكس بوضوح على كل الشعوب، مهما تباينت ظروفها.

وهذه الأزمة يراها البعض فى تزايد مجموع أعداد الأميين البالغين فى العالم بسبب عدم مسايرة التوسع فى التعليم للنمو السكانى المستمر خاصة فى الدول النامية، ويراها البعض الآخر فى تدنى مستوى المتعلمين، ومن هنا يؤثر البدء بإعادة النظر فى العملية التربوية ذاتها حتى يمكن النهوض بها نوعاً قبل التوسع فيها كماً، ويرى لذلك ضرورة العمل على تجديد عملية التربية: فلسفة، وأهدافا، وأسسا، ومنهجية، وطرائق، ووسائل ومحتوى، والعمل على تحسين نوعية القائمين عليها أساتذة وإداريين والمتلقين لها طالبات وطلابا.

فالأزمة تنعكس بوضوح شديد فى الزيادة المطردة لأعداد الأميين البالغين كما تنعكس بوضوح أشد فى الزيادة المطردة لنوازع الشر فى الإنسان المتعلم، وميله إلى العنف، وفشله فى فهم رسالته فى هذه الحياة كإنسان، وفى تحقيق

شيء منها، وفى تفشى الفساد والتحلل الأخلاقى والسلوكى يوما بعد يوم، فى انحدار مستمر فى مختلف مجتمعاته وخلوها من الثقافة، وهذه سمات أصبحت تميز عصرنا بصفة عامة، وتميز الإنسان والإنسان المتعلم بصفة خاصة، والمجتمعات التى تدعى أنها مجتمعات متحضرة بصفة أخص.

وانتشار التحلل الأخلاقى فى عالم اليوم - بصفة عامة - وفى الدول المتقدمة علميا وتقنيا - بصفة خاصة - وسط انفجار حقيقى فى المعرفة، وتوسع ملحوظ فى عملية التعليم لم يسبق لهما مثيل فى تاريخ البشرية، وإن دل على شيء فإنما يدل على فشل العملية التعليمية ذاتها، ويتمثل هذا الفشل بجلاء فى موجات التحلل الأخلاقى والسلوكى بين الطلاب من الجنسين، وميلهم للعنف، والفوضى، وللسلوك غير المنضبط، وانخراطهم فى العديد من حركات الانحراف الجنسى بمختلف أشكاله وصوره، وجماعات إدمان المخدرات والمسكرات، وحركات رفض الدين، وعبادة الشيطان، وتشويه الخلقة، والتعرى الفاضح فى داخل المؤسسات التربوية، والعلاقات غير المشروعة بين الطلبة والطالبات، وبين المعلمين والمعلمات والإداريين والإداريات، وما ينتج عن ذلك من الأزمات الاجتماعية والنفسية ومنها العديد من حالات الضيق، والضياع، والكبت، والحيرة، والأنانية، والقسوة، وغيرها من الأعراض النفسية والعقلية التى قد تصل بالمرء إلى حد الجنون أو القتل العمد أو الانتحار.

ولا غرابة فى ذلك فقد أصبح الحصول على المؤهل هو الغاية المرجوة من الدراسة - وليس التعليم فى حد ذاته - وأتى الامتحان فى المقام الأول قبل التعليم، وصار الغش فيه أمراً شائعاً له كل المبررات عند الطلاب والطالبات!!!

كذلك فقد الأستاذ صفات القدوة الحسنة ففقد دوره القيادى الرائد، وبذلك ضاعت الصفات الأساسية لكل من المعلم والمتعلم، فخرج حاملو الشهادات إلي الحياة وبغير تربية صحيحة، وقد أدى ذلك إلى تحلل كل من الرجل والمرأة، وانهيار مؤسسة الأسرة، وشيوع المخادنة والمعاشرة بغير زواج، وتفشى الزنا والشذوذ الجنسى، والإعلان بالفواحش التى أدت إلى فساد المجتمعات فساداً

شائعا، حتى أصبحت الفاحشة علامة التحضر، وأصبح الربا هو أساس الاقتصاد الحديث، والميسر أحد المجالات الأساسية للبحوث الإحصائية وأضحت التجارة عملا مساوياً للتكتلات المالية الكبرى القائمة على ضياع الذمم والرغبة فى الاستغلال، وتفشى الرشوة وانعدام الأخلاق من أجل التحكم فى أقوات ومصالح الأفراد، وصارت السياسة مناورات غير أخلاقية، وأصبح تزوير الانتخابات لازمة ضرورية للوصول إلى كراسى الحكم وإلى المجالس النيابية والشورية، وأصبحت كل وسيلة لتحقيق ذلك مشروعة، وأصبحت الاستماتة فى الوصول إلى السلطة بأى طريق، وبأى ثمن أمرا مقبولا، واختلط العدل بالمصلحة الشخصية، وقيست صلات الناس بالمنافع المادية، وتحولت الحرية إلى الفوضى والتسيب والتعدى على حقوق الغير، وحلّ التوافق مع المجتمع محل القيم الأخلاقية السامية، وأصبح النجاح هو معيار الحق؛ القوة تصنعه وتحميه، وأصبحت الغاية تبرر الوسيلة، والالتزام بمبدأ ما جمود وعقم، فاختلت موازين الناس، وأدى كل ذلك إلى تحلل المجتمعات وتفككها وإضعافها إلى درجة أصبحت معها كلمتا الحق والباطل لا معنى لهما فى عالم تحكمه المادة والقوة الغاشمة فقط وما يصاحبهما من الأطماع والمخاوف، عالم يفتقر إلى قيادة الحكيم الصالح صاحب الرأى السديد !!!

وليس أدل على ذلك من محاولات القوى الكبرى فى عالم اليوم فرض هيمنتها على دول العالم الثالث بالقوة، وغزوها دون أدنى مبرر، وفتح منهجية للاستعمار الغربى من جديد، وتدمير حضارات عريقة، وقتل وتشريد ملايين الأبرياء من الأطفال والشيوخ والنساء من أجل الطمع فى الاستيلاء على ثروات تلك الدول وذلك من مثل غزو الولايات المتحدة الأمريكية وحلفائها لكل من أفغانستان والعراق، ودعمهم المعلن وغير المحدود للاحتلال الصهيونى لأرض فلسطين، ومؤامراتهم المستترة والظاهرة من أجل تحقيق الاضطرابات والمظالم المختلفة فى العالم.

ويعود ذلك كله إلى أن التعليم المعاصر قد أصبح خاليا من الأخلاق والقيم، وخلوا من الروح والتربية الروحية، وتعليم هذه فلسفته لا يساعد المتعلم إلا على النمو بقدراته المادية فقط، وإن تم له ذلك فإنه يتم على حساب ملكاته الروحية

والنفسية، والتزامه الأخلاقى والدينى، وذلك يخرجه عن الفطرة الإنسانية السوية المتزنة بين مادة وروح. وإنسان هذه حالته يشكّل خطراً حقيقياً على نفسه وعلى الحياة كلها من حواليه، وتكفى فى ذلك الإشارة إلى قيام القوات الصربية الغاشمة بتدمير الحضارة الإسلامية فى البلقان بهدم آلاف المساكن والمساجد والمدارس والكليات والجامعات والمتاحف والمكتبات وبقتل عشرات الآلاف من المدنيين من الأطفال والنساء والشيوخ والشبان وبدفن أكثر من عشرة آلاف مسلم أحياء فى مدينة سيريبرانيتسيا تحت مسمع ومرأى القوات الهولندية التابعة للأمم المتحدة، بالإضافة إلى الاعتداء على أعراض آلاف من النساء وقتل وتشريد مئات الآلاف من الأطفال والنساء، والشيوخ. وأمثال ذلك وأكثر منه يحدث على أرض فلسطين الجريحة على مدى أكثر من خمسين سنة والأرض المباركة تغرق كل يوم فى بحار من الدماء والأشلاء والخراب والدمار: تهدم البيوت والمدارس والمساجد والمستشفيات والكليات والجامعات، وتجرف الأراضى الزراعية وتنشر الأشجار المثمرة وتصادر الأراضى من أيدى أصحابها وتخرج أدوات الحرب العاتية لاغتيال رموز الجهاد من أمثال الشيخ أحمد ياسين، والدكتور عبد العزيز الرنتيسى ورفاقهما، دون أدنى استنكار من دول العالم التى تدعى زورا الدفاع عن حقوق وحريات الإنسان، بل تصف تلك الجرائم بأنها دفاع عن النفس. وتكفى فى ذلك الإشارة أيضا إلى حجم المخزون من أسلحة الدمار الشامل عند كل من الدول الصناعية الكبرى والكيان الصهيونى الغاصب لأرض فلسطين.

ومن هنا يتضح أن أزمة التعليم المعاصر لا تتحدد فى تزايد عدد الأميين البالغين فى العالم فقط، بل تتمثل أخطارها فى تزايد تحلل الإنسان بصفة عامة، والإنسان المتعلم بصفة خاصة؛ ويكفى فى ذلك نظرة خاطفة إلى تاريخ عالمنا الحديث واسترجاع الجرائم التى اقترفها الإنسان المتعلم في حق أخيه الإنسان، وهنا تبرز أشباح ضحايا الحربين العالميتين الأولى (١٩١٤ م – ١٩١٨ م) وكان من ضحاياها أكثر من ٨٫٥ مليون قتيل، وأكثر من ٢١ مليون جريح، والثانية (١٩٣٩ م – ١٩٤٥ م) وكان من ضحاياها أكثر من ٥٥ مليون قتيل وأكثر من

١٥٠ مليون جريح، بالإضافة إلى سنوات من البؤس والرعب والخوف والشقاء والدمار والغلاء، وندرة الغذاء والكساء عاشها العالم كله فى ظل هاتين الحربين العالميتين، ومدى الدمار والمآسى التى خلفته، والتى ترمز لهما بأبشع رمز قنبلتا هيروشيما وناجازاكى الذريتين، ومعاهدتى فرساى وسايكس - بيكو الظالمتين، وما ترويه مأساة فلسطين، واجتياح أفغانستان المسلمة بجحافل الشيوعيين ثم بالغزاة الأنجلو أمريكيين، الذين استباحوا تلك الدولة العضو فى الأمم المتحدة، ثم استباحوا شقيقتها أرض العراق ضاربين عرض الحائط بقرارات كل من هيئة الأمم ومجلس الأمن، وبكل من القوانين والأعراف الدولية. ويرمز لهذه المظالم الدولية الكثير من الاعتداءات على حقوق الإنسان فى العديد من بلاد المسلمين ودول العالم الثالث وذلك من مثل حروب جنوب شرقى آسيا، ومآسى كل من جنوب أفريقيا وناميبيا وروديسيا، ومحاولة سحق شعوب المجر وتشيكوسلوفاكيا فى السنوات ١٩٥٦، ١٩٦٧م، على التوالى، والأزمة القبرصية، والمجازر البشرية فى كل من الاتحاد السوفيتى السابق، والصين، والهند، وجنوب كل من الفليبين وتايلاند وسيرلانكا، وفى العديد من الدول الأفريقية، من مثل رواندة وبوروندى، والدول العربية من مثل سوريا ولبنان وفى عدد من الدول الغربية من مثل شمال أيرلندة، والباسك فى كل من جنوب فرنسا وشمال أسبانيا.

ويكفى أن يحضر الإنسان أحد الاجتماعات الدولية ليرى سلوك ممثلى حكومات العالم، ويحكم على المستوى الذى تدنى إليه الإنسان المتعلم، ويكفيه أن يتفحص حياة بعض القادة المعاصرين (انظر على سبيل المثال فضائح البيت الأبيض التى تم كشفها فى عدد من المؤلفات التى صدرت أخيراً مثل أسطورة كنيدى المعنوية «The Dark Sidc Of Camelot» لمؤلفها نلسون تومبسون «Nilson Tompson» وقصة عزل رتشاد نكسون المعنونة «The Breach Of Fairh» لمؤلفها ت.هـ. وايت «T.H White»، وفضيحة الرئيس الأمريكى السابق بيل كلينتون ومونيكا لوينسكى. وفضيحة مقتل الأميرة ديانا زوجة ولى عهد بريطانيا، وسلوكيات كل من رئيس الولايات المتحدة الحالى جورج بوش الإبن،

ورئيس وزراء بريطانيا الحالى تونى بلير المشينة، وكذبهما المتعمد على شعبيهما بأن العراق لديه أسلحة دمار شامل من أجل تبرير غزو جيوشهما لدولة ذات حضارة عريقة، وعضو فى الأمم المتحدة، متجاوزين بذلك كل القوانين الدولية، والأعراف، والأخلاق والقيم المجمع عليها دون أدنى مبرر حقيقى. كما تكفى الإشارة إلى ما قامت به قوات هاتين الدولتين اللتين تدعيان حماية حرية وحقوق الإنسان من تعذيب للأسرى والمعتقلين فى سجون كل من العراق وأفغانستان، وجوانتانامو وفى غيرها من سجون العالم التى اتخذتها الولايات المتحدة فى العديد من الدول الأوروبية ودول العالم الثالث، تعذيبا وحشيا تعدى على حقوق وكرامة الإنسان بطريقة تصف الحضارة الغربية المعاصرة بأحط الصفات وبأنها حضارة خالية من أبسط قواعد الدين والأخلاق والإنسانية، والصور القليلة التى نشرت لتعذيب المعتقلين فى تلك السجون ولاستخدام الأسلحة المحرمة دوليا ضد المدنيين ستبقى وصمة عار فى جبين الغربيين إلى يوم الدين، وهم الذين يتشدقون كذبا بحماية حقوق الإنسان ويدعون كذبا إلى الحرية والديموقراطية وهم فى الواقع أبعد ما يكونون عن ذلك.

كذلك تكفى لمحة خاطفة لما يدور فى عالم الاستخبارات الدولية وعصاباتها، من مثل ما يقوم به كل من أجهزة الاستخبارات الأمريكية والإسرائيلية فى المنطقة العربية، أو التجوال فى عدد من الأقطار التى يحكمها اليوم عتاة دكتاتوريون، وما أكثرهم، أو تفحص ملفات أى بيت من بيوت الأعمال التجارية الكبرى، فحيثما وجه الإنسان ناظريه يرى الشر، والفساد، والعنف والظلم، والخيانة، والخداع، والمراوغة، والزيف، والتسيب، والانتهازية، والرشوة، والمحسوبية، وانعدام كل صورة من صور الفضيلة قد أصبح أمراً سائداً، فى عالم اليوم، وفى موجة المد غير الأخلاقى هذه لا يمكن للإنسان أن يستثنى أحداً من البشر فضلا عن الملوك ورؤساء الدول الذين نذكر منهم – على سبيل المثال لا الحصر – فضائح الرؤساء الأمريكيين كنيدى، وجونسون، ونيكسون وكلينتون وبوش الأب والابن والرئيسان الإيطاليان برلوسكونى وجيوفانى ليونى، والإمبراطور بوكاسا إمبراطور أفريقيا الوسطى السابق، ولا يمكن للدارس أن يستثنى من يسمون زورا بالأمراء

أو بالنبلاء ورؤساء الوزارات ونشير منهم – على سبيل المثال لا الحصر – إلى كل من الأمير برنارد زوج ملكة هولندة ورئيس وزراء اليابان السابق تاناكا ووزيرى الدفاع السابقين فى إيطاليا لونجى جوى، وماريو ناناس وتورطهما فى عملية الرشوة الشهيرة بفضيحة لوكهيد ونورثروب. ولا أن يستثنى الوزراء من أمثال بروفيومو وجون ستونهاوس وفضائحهما المخزية فى بريطانيا، ولا ممثلى الأمة فى مجالس النواب والشيوخ من أمثال عضو الكونجرس الأمريكى جون هاى «John Hay»(*) وفضائحه الشهيرة، وفضائح القس الأمريكى جيمى سوارجارت وآلاف غيره من رجال الكنيسة فى الغرب والشرق، وغير ذلك كثير مما يعتبر صورة مقززة للمستوى المتدنى الذى هبط إليه المتعلمون فى هذا العصر، فضلا عن أناس لهم دور سياسى قيادى بارز فى دول تدعى أنها تمثل قمة الحضارة المادية المعاصرة.

وهذه الحالات التى أشرنا إليها هى مجرد نماذج مما وصل إلى علم الناس من محيط الفساد المغرق الذى يجرف عالمنا المعاصر، إلا أنها كافية لإثارة عدد من الأسئلة المحَيرة منها:

لماذا التعليم إذن؟ وماذا يمكن أن يقدم للإنسانية؟ وهل نحن نضيع وقتنا وجهودنا وأموالنا فى عملية خاسرة؟ هل التعليم وسيلة لغاية أم أنه غاية فى حد ذاته؟ وإذا كان كذلك فما هى الغاية من التعليم؟ وما هو الهدف من تعلم العلوم والتقنية؟ هل المقصود من تعلمهما زيادة تعقيد الحياة وتلوث البيئة وتكدس مخزون أسلحة الدمار الشامل؟ وهل نحن قد أهملنا الجانب الروحى فى الإنسان ولذا فنحن نعانى من طوفان المادة فى غيابه؟ هذه الأسئلة فى حد ذاتها تجسد أزمة التعليم المعاصرة وتستنهض أصحاب الهمم العالية من أجل إيجاد حلول عاجلة لها.

* * *

(*) انظر مجلتى تايم، نيوز ويك الأمريكيتين بتاريخ ١٤/٦/١٩٧٦م صفحات ٢٥ – ٢٧، ٢٤ – ٢٦ على التوالى، وكذلك كتاب عشيقة جون هاى المسماة اليزابيث راى والمعنون "The Washington Fringe Benefit" by Elizabeth Ray.

الفصل الأول

أزمة التعليم المعاصر

يتفق التربويون على أن التعليم المعاصر على مستوى العالم كله يمر بأزمة عاتية، إلا أنهم يختلفون فى تشخيص تلك الأزمة، وفى تحليل أسبابها، وبالتالى فى اقتراحاتهم لحلها، **فمنهم من يدور بالأزمة فى إطارها المادى فقط** فيشخصها على أنها تتمثل فى **تزايد مجموع أعداد الأميين البالغين فى العالم بصورة مطردة؛ وذلك نتيجة لتعقيد الحياة ومضاعفة تكاليفها، والأزمات الاقتصادية المصاحبة لها، مع التزايد المطرد فى عدد سكان الأرض الذى** يحول دون مسايرة معدلات التوسع فى التعليم للتزايد فى كثافة السكان خاصة فى الدول النامية مما أدى إلى تزايد عدد الأميين البالغين فى العالم بصفة عامة، وفى دول العالم الثالث بصفة خاصة.

وترى مجموعة أخرى من التربويين **أن الأزمة أساساً هى أزمة اجتماعية** حيث إن العالم يعيش اليوم فى عصر التحولات العلمية والتقنية والاجتماعية المتسارعة؛ مما يجعله فى حالة انتقالية باستمرار. ومن طبيعة المجتمعات التى تمر بمراحل انتقالية أنها تعانى من فقدان قدر من قيمها التقليدية فى محاولتها اللحاق بالركب، أو مسايرته أو قيادته؛ وهذا يؤدى إلى خلط فى المفاهيم وبالتالى إلى كثير من الأزمات الاجتماعية التى لا تقتصر على الدول النامية، بل تطول الدول المتقدمة علميا وتقنيا واقتصادياً. واختلاط المفاهيم فى النواحى الثقافية والاجتماعية لا بد وأن ينعكس فى تباين واضح بين النظم التعليمية وبين مجتمعاتها مما يؤدى فى النهاية إلى فشلها وعدم صلاحية خريجيها.

وهناك مجموعة ثالثة ترى **أن الأزمة أساساً هى أزمة تربوية** تتلخص فى أن نظم التعليم فى الدول المتقدمة علميا وتقنيا قد أصبحت نظماً تقليدية بالية لا بد من إعادة النظر فيها وفى طرق أدائها؛ بل ينادى البعض بتغييرها تغييراً

جذرياً، أو حتى بإلغائها. هذا من جهة، ومن جهة أخرى فإن استيراد تلك النظم من قبل الدول النامية يشكل خطراً جسيماً على مجتمعاتها؛ لا لأنها تنقل بعيوبها المتراكمة فحسب، بل لأنها لا تتمشى مع حاجيات البلاد المستوردة لها، ولا مع مشاكلها وامكانياتها، وبالتالى تؤدى إلى أن المتخرجين ونوعياتهم وأعدادهم وتخصصاتهم لا يتناسب مع احتياجات المجتمع وتطلعاته فيتفشى فى تلك المجتمعات النامية نوع من البطالة الخاصة التى لا تقتصر أخطارها على الجوانب المادية بل تتخطاها إلى الجوانب النفسية والاجتماعية.

وترى مجموعة رابعة أن الأزمة ترجع إلى **فقدان القدوة الحسنة** بفقدان العقيدة الصحيحة والقيم النبيلة فى ظل الفكر المادى الذى يحكم عالم اليوم.

ومجموعة خامسة **ترى أن الأزمة أساساً هى أزمة نفسية** سببها فقدان الفهم الصحيح لرسالة الإنسان فى هذه الحياة ولطبيعة النفس البشرية، وبالتالى فشل المعلمين في التعرف على طلابهم، ونفور الطلاب من أساتذتهم فى عصر تميّز بأنه عصر زعامة الأحداث؛ مما أفقد المعاهد التعليمية قدراً هائلاً من الطاعة والنظام وهما شرطان أساسيان فى بناء أية مؤسسة تربوية وغيابهما قد أدى إلى انتشار الفوضى، والتسيب، وعدم الانضباط فى معظم المعاهد التعليمية فى العالم مما أفقدها دورها التربوى.

ومنهم من يرى الأزمة **فى فقدان نظم التعليم المعاصر للتربية الأخلاقية**، وبالتالى فهم يرون العلاج فى إعادة الاهتمام بهذا الجانب الهام من جوانب العملية التربوية. ومنهم من يرد ذلك كله **إلى بعد المجتمعات المعاصرة عن الدين**؛ وعليه فإنهم يرون أن حل الأزمة قد يكمن فى الاهتمام بالتعليم الدينى.

ومنهم من يتساءل إن كانت كل هذه الأسباب مجتمعة هى من وراء أزمة التعليم المعاصر أم أن هناك أسباباً أخرى لم يمكن التوصل إلى معرفتها بعد؟

وفيما يلى مناقشة موجزة لوجهات النظر المختلفة فى تحليل أزمة التعليم المعاصر.

أولاً : الأسباب الاقتصادية / الاجتماعية لأزمة التعليم المعاصر

يشخّص عدد من التربويين والمهتمين بقضايا التعليم أزمة التعليم المعاصر بأنها أزمة مادية بحتة تتلخص فى الانفجار السكانى الذى يواجهه العالم، والإقبال الشديد على دور العلم، وارتفاع تكاليف التعليم، وتزايد احتياجاته المادية بطريقة مستمرة، والأزمات الاقتصادية التى تعصف بكثير من بلدان العالم مما يعوق عملية التوسع فى التعليم من مواجهة تلك الأعداد المتزايدة خاصة فى دول العالم الثالث.

فغالبية الدول فى وقتنا الحاضر تضع ربع شعوبها تقريباً – من الطلاب والمعلمين والإداريين – فى العملية التعليمية، وتنفق على ذلك أكثر من ربع ميرانيتها السنوية دون أن يكون المردود – فى معظم الأحيان – مجزياً؛ فمن الطلاب من يترك الدراسة الابتدائية قبل إتمامها فيعود على مر الأيام إلى صفوف الأميين، فضلا عن أولئك الذين يتمون الدراسة الابتدائية فإن أكثر من نصفهم لا يجد سبيلاً إلى المدرسة المتوسطة فى كثير من البلاد النامية فينتمون كذلك إلى صفوف الأميين مع الزمن أما أولئك الذين أتموا المرحلتين المتوسطة والثانوية فلا يستطيع أكثر من عشرهم الوصول إلى الجامعة فى أغلب دول العالم، والباقى لا يوجهون إلى دراسات تطبيقية أو إدارية متخصصة بل يدفعون إلى الحياة العملية دون أن يكون أغلبهم مهيئاً لتحمل مسئولياتها أو معدا أقل الإعداد لذلك.

أما أولئك الذين يحالفهم الحظ فيصلون إلى الدراسة العالية فإنهم فى الغالب ينخرطون فيها على غير هدى، ودون توجيه رشيد، فيخرجون إلى الحياة – بعد جهاد يدوم فى المتوسط إلى سن الثانية والعشرين أو يزيد – وهم فى كثير من التخصصات – فائضون عن حاجة بلادهم، أو قد انخرطوا فى مجالات لا تحتاجها

مجتمعاتهم أو فى تخصصات لا تتناسب مع ميولهم وقدراتهم. مما يؤدى فى النهاية إلى انتشار بطالة المتعلمين وما يصاحبها من مشاكل نفسية واجتماعية عديدة.

كل ذلك قد جعل العملية التعليمية فى عصرنا عملية باهظة التكاليف، مما دفع ببعض التربويين إلى المناداة بضرورة تخطى هدف التعليم الأول وهو تربية الإنسان الصالح، وتنمية قدراته ومواهبه مهما كانت تكلفة ذلك - إلى جعل التربية عملية موجهة، تركز على خدمة الاقتصاد القومى قبل تركيزها على إشباع رغبات المتعلمين وميولهم، على الرغم مما فى ذلك من تقييد للفكر، وحجر على العقل، وتعطيل للمواهب، وقتل للملكات مما يمكن أن ينتهى بالعملية التعليمية إلى عكس الغاية المرجوة منها تماماً.

هذه العقبات أدت إلى تزايد مستمر فى مجموع أعداد الأميين البالغين فى العالم ليصل إلى حوالى ثلث تعداد سكان أهل الأرض فى سنة ١٩٩٠م، وتأمل منظمات الأمم المتحدة النزول بهذه النسبة إلى خمس تعداد سكان الأرض فى مطلع القرن الحادى والعشرين. والتربويون يحذرون بقلق بالغ من أن ظروف الأزمة تزحف على النظم التعليمية فى العالم أجمع، وتكاد تطبق على كثير من الدول فى قبضتها.

ويجمع كثير من المتخصصين على **أن التعليم المعاصر يعانى نقصاً ملحوظاً فى المال، وفى المدرسين، وفى المبانى، وفى الوسائل التعليمية، وفى الاداريين الأكفاء، وفى النظم التعليمية الصحيحة**، وفى العديد من الأمور غيرها؛ مما أدى إلى شل العملية التعليمية فى كثير من الأقطار؛ فندرة الموارد المادية وارتفاع التكاليف، فى وقت يتزايد فيه عدد السكان ويتزايد طموح الناس إلى التعليم قد جعل من المستحيل على كثير من الدول النامية أن تواجه تطلعات أبنائها فى الحصول على التعليم الذى يريدون.

وبمقارنة المدخلات المالية مع اتجاهات الأسعار نرى صورة مزعجة للمستقبل، خاصة فيما يتعلق بالدول النامية. ولن يمكن التغلب على هذه

الأزمة إلا بحل مشاكل العالم السياسية، وتحكيم العدل فى ذلك من أجل تقليص النفقات الهائلة على التسليح وتسريع معدلات النمو الاقتصادى، وتطوير قدرات النظم التعليمية، مع التزايد الملحوظ فى المساعدات الخارجية للدول النامية. وإن كانت ظواهر الأمور فى الوقت الحاضر تجعل تحقيق ذلك حلماً بعيد المنال.

كذلك فإن جمود معظم النظم التعليمية فى العالم، وعدم قدرتها على التغيير بالسرعة الكافية فى مجتمعات تميزت بمعدل هائل فى التغير خلال القرن العشرين بصفة عامة، وخلال نصفه الأخير بصفة خاصة قد أدى إلى تباين واضح بين تلك النظم وبين مجتمعاتها وأدى كذلك إلى عدم صلاحية خريجيها وفشلهم فى الحياة.

هذا البطء الملحوظ فى قدرة التعليم المعاصر على الاستجابة للتغيرات السريعة فى المجتمعات المحيطة به، وبالتالى فى إعادة مواءمة بنائه الداخلى مع تلك المجتمعات قد أصبح أمراً ذاتياً فى طبيعة النظم التعليمية، ونتيجة لذلك فقد حدث عدم التوائم بين نظم التعليم ومجتمعاتها فى مختلف دول العالم حتى فى المجتمعات الصناعية التى لا يمثل نقص الموارد المالية عندها مشكلة؛ وذلك لأن تغير المجتمعات المعاصرة بسرعة كبيرة لم يمكنها من الاستفادة القصوى بالمتعلمين في النمو الاقتصادى القومى، فمن جهة هناك فصل واضح بين معاهد التعليم والمجتمعات المحيطة بها، ومن جهة أخرى فإنه فى الوقت الذى يتزايد فيه الإقبال على التعليم لا يقبل الطلاب بالضرورة على التخصصات التى يحتاجها المجتمع فى تطوره، التى يمكن أن تدعم نجاحهم فى المستقبل؛ وقد أدى ذلك إلى تصدع واضح بين المتعلمين ومجتمعاتهم؛ وهذا التصدع هو أحد جذور الأزمة التعليمية المعاصرة وإذا كان يراد للأزمة أن تحل فلا بد من حدوث قدر من التوافق بين التعليم والمجتمع يلتقى فيه الطرفان فى منتصف الطريق وإذا لم يحدث ذلك فى المستقبل القريب فإن التباين بين التعليم وبين المجتمع سيؤدى إلى تصدع إطار النظم التعليمية، وربما إطار مجتمعاتها بالكامل.

وعلى ذلك فإن الأزمة تتلخص فى نظر بعض المحللين بأنها نشأت من تشابك تاريخى لخمسة عوامل هى : **الفيضان الطلابى ، والندرة الحادة فى الموارد ، والزيادة المطردة في تكلفة العملية التعليمية ، وعدم ملاءمة المتعلمين لاحتياجات مجتمعاتهم ، وتدهور نوعية التعليم نظراً لقصوره الذاتى الذى تفرضه طرائقه التقليدية والتى تحول دون تطوره بما يلائم التغيرات المتسارعةفى المجتمعات المعاصرة .**

ويرى بعض المتخصصين أن الأزمة – فى إطارها الاقتصادى / الاجتماعى – يمكن التغلب عليها بتحليل العملية التعليمية – كأى نظام قائم – تحليلاً يظهر التفاعل بين النظم – بجوانبها الرسمية وغير الرسمية – وبين المجتمع ، بحيث تكون المدخلات هى : **الأهداف ، والأولويات ، والطلاب ، والمدرسون ، والإدارة ، والبناء التعليمى ، والجداول الزمنية ، ومحتوى المقررات ، والتسهيلات المتاحة ، ووسائل التعليم ، والتقنيات المتقدمة ، والتحكم فى نوعية الطلاب ، ومجالات البحث العلمى ، والعمل على توفير التكاليف اللازمة .**

ويمثل هذه العلميات التحليلية يعتقد أنه من الممكن تحسين نوعية الخريجين ، وإعدادهم إعداداً جيداً لخدمة أنفسهم وخدمة مجتمعاتهم؛ وهذا ناتج عن الاعتقاد السائد بأن تنظيم عملية التعليم يمكن أن يؤدى إلى تحسين المعلومات الأساسية ، والمهارات الذهنية واليدوية ، والقدرة على الحكم بمنطق واضح والانتقاد البنَّاء ، والتمسك بالقيم ، والارتفاع بمستوى الاتجاهات والحوافز ، والقدرة على الإبداع والتجديد ، وترسيخ الحب للمعرفة ، والتقدير للثقافة ، والإحساس بالمسئولية الاجتماعية ، والفهم لمشاكل العالم الجديد ، ولكن هناك العديد من العقبات التى تقف أمام تحليل العملية التعليمية كنظام منها ما يلى :

(١) ندرة الإحصائيات .

(٢) تسارع الهوة الآخذة فى الاتساع بين تطلعات الناس وبين طاقة النظم التعليمية وحاجة المجتمع ، وتعدد الاستراتيجيات لتضييق تلك الهوة .

(٣) النقص الواضح فى أعداد المدرسين المؤهلين .

(٤) زيادة معدلات النمو غير المتزنة والتى تعيق التطور القومى .

(٥) العجز المالى فى كثير من الدول خاصة النامية منها.

(٦) صعوبة قياس مدى نجاح العملية التعليمية، حيث إن الأرقام عن أعدادالخريجين والمتخلفين وإن كانت مؤشرات مفيدة إلا أنها فى حد ذاتها لا يمكن أن تكون أساساً كافياً لتقييم العملية التعليمية.

(٧) تزايد أعداد المتخلفين بسبب الفشل أو الانسحاب أو الحرمان من القبول نتيجة للسياسات المختلفة المتبعة فى ذلك.

(٨) عدم تناسب نظم التعليم الحالية مع حاجة النمو الاقتصادى من القوى البشرية، والتباين الواضح بين إمكانات تلك القوى البشرية وبين طلبات السوق وما يتبع ذلك من تفاقم مشكلة بطالة المتعلمين.

(٩) تسارع معدلات التغير فى المجتمع المعاصر، وتأثير ذلك على العملية التعليمية.

(١٠) صعوبة تحديد الأولويات فى مواجهة التوسع فى أهداف التعليم.

(١١) مشكلات النوعية والمحتوى والاستعداد والقدرة على تقييم كل ذلك: من نوعية الطلاب والمدرسين، والاداريين واستعدادهم لإنجاح العملية التعليمية، ومحتوى المناهج فى ضوء هذا الفيض من المعلومات الجديدة.

(١٢) تضارب الآراء حول ضرورة استخدام التقنيات الجديدة فى التعليم، ومختلف عملياته وبحوثه وأنشطته والتجديد والإبداع فى كل هذه المجالات.

وعلى الرغم من كل هذه العقبات فقد اقترح عدد من المهتمين بالقضية التعليمية ما أسموه بالاستراتيجية الإيجابية فى مواجهة الأزمة، وهذه الاستراتيجية وصفت بأنها تركز على علاقات الأشياء، وتؤكد بشدة على التجديد والإبداع، وعلى تحديث كل من الإدارات التعليمية، وطرائق إعداد المعلمين، وعملية التعليم ذاتها، كما تنادى بدعم الميرانية التعليمية والبحث عن

مصادر إضافية لتمويلها. وتؤكد على التعليم غير الرسمى (غير الحكومى)، وعلى التعاون الدولى؛ وعلى اعتبار أزمة التعليم العالمية قضية كل إنسان يحيا على سطح هذه الأرض لاعتقادهم بأنه عبر صورة من صور التعاون الدولى يمكن أن تتبادل الأمم النفع فى مجال التعليم، وهنا لا يمكن إغفال دور كل من الأفراد والمؤسسات والحكومات فى تبنى تلك القضية، وأهمية الدعم الخارجى من الدول ذات الفائض المادى والبشرى إلى الدول الفقيرة، وكذلك دور الجامعات في الحوار البينى من أجل تطوير التعليم فى كل المراحل من الابتدائية والثانوية إلى المعاهد العليا، وفي تخطيط وتنفيذ النظم التعليمية، وفي تطوير البحث العلمى، وأخذ المبادرة فى قيادة عملية التجديد والإبداع فى التعليم على مختلف المستويات، وفى تشجيع التعاون فى استخدام التسهيلات المتاحة بين معاهد التعليم العالى والبحث العلمى، وفى الحد من هجرة المواهب من البلاد النامية، وفى تشجيع التعاون بين العلماء فى مختلف أنحاء العالم.

وهذا التحليل الذى اعتمد على كثير من الأمانى صعبة التحقيق دار بالأزمة فى أطرها المادية فقط، وهذا؛ وإن كان انعكاسا صادقا للنظرة المادية التى تسود عصرنا – فإنه قاصر عن تحليل الأزمة تحليلاً شاملاً، وعن اقتراح حلول جذرية لها.

ونحن لا نقلل من خطورة الأبعاد المادية للأزمة، غير أن التركيز عليها وحدها قد يخرجها من إطارها الصحيح؛ وذلك لأن التحليل المادى يهتم بإقامة الخطط والبرامج والمناهج والمبانى والنظم التعليمية أكثر من اهتمامه ببناء الشخصية الإنسانية السوية. وبناؤها هو قضية التعليم الأولى؛ وعليه فيجب أن يهتم بتزكية النفس قبل الاهتمام ببناء الجسد وبما يعلم للطلاب قبل البناء الذى سوف يتعلمون فيه، وبالتغيير الذى يمكن أن يحدثه فى الإنسان قبل الدرجة العلمية التى يمنحها له، وهذه أمور خارجة عن الأطر المادية تماماً؛ فقدرة الإنسان على التحكم فى نفسه، وضبط تصرفاته، واعتقاده بقيم أخلاقية عليا والتزامه بها، وإيمانه بمثل سامية يحيا لها، ويموت فى سبيلها. هى العوامل الرئيسية فى

بناء شخصيته، وضبط سلوكه، ورسم قيمه، وبالتالى تحدد فلسفة التربية التى يتعرض لها، والتحليلات المادية للعملية التعليمية لا تأخذ تلك العوامل فى الحسبان؛ ومن هنا تأتى هزيلة ناقصة لأنها تركز على الاحتياجات المادية فقط وتغفل الغايات الكبرى التى من أجلها يجب استخدام تلك الحاجات، وتؤكد على تحصيل المعرفة، ولكنها تنسى أن المعرفة لا يمكن فصلها عن الخير، وأن الحقائق الإنسانية والعلمية والتاريخية لا يمكن عزلها عن القيم.

وهنا يخطىء كثير من التربويين فى اعتقادهم بأن المخترعات الحديثة مثل الحواسيب الإلكترونية، وشبكات الاتصال الدولية وبحوث العمليات واستخداماتها فى تحليل الأنظمة التعليمية قد توفر الشروط اللازمة لإقامة التربية على أسس علمية سليمة تستفيد من التقدم العلمى والتقنى الذى حققه الإنسان فى مختلف المجالات وذلك بدعوى أن انضباط هذه الأجهزة هو انضباط ذاتى ومتجدد، وعليه فإنه يمكن أن يقوم بضبط العملية التربوية وتطويرها. وينسى المنادون بذلك أن العامل الرئيسى فيما تفرزه أجهزة الضبط الالى تلك، وغيرها من وسائل التقنية المتقدمة هو الإنسان، فإن صلح فكره وصلحت فلسفته فى الحياة صلح ما يصدر عنه لتلك الأجهزة من تعليمات وأوامر، وبالتالى صلح ما يستخرجه منها، وإن فسد فسدت معه تلك الأجهزة وبياناتها فساداً كاملاً.

كذلك فإن المبالغة فى الاعتماد على أجهزة الضبط الآلى قد يسلب الإنسان كثيراً من حريته الشخصية وقدراته الذاتية، ومهاراته ومواهبه وإرادته، بينما تحرير الشخصية الفردية من أسر الآلة، وتحرير المجتمعات، بل تحرير الإنسانية جمعاء، ينبغى أن يبقى هدفاً من أهداف العملية التربوية التى لا تتم إلا بتحقيقه.

ويقف ضد فكرة برمجة التربية وضبطها آلياً كثير من المنادين بحق الإنسان فى الرعاية العاطفية، والمشاعر الإنسانية التى لا يمكن أن تتوافر للآلة المبرمجة مهما تعقدت، ومن هنا فإنهم يعتبرون البرمجة الكاملة لعملية التعليم نوعاً من أنواع القيود التى تسلب الإنسان حريته فى التفكير والإبداع.

على الرغم من أن غالبية التربويين اليوم يدعون إلى التعليم المبرمج المنضبط آلياً، وإلى إقامة سلطة مسئولة قادرة على فرض أنظمة تربوية آلية محضة وإن بقى منهم من يدعو إلى تدعيم الإطار الإنسانى للعملية التربوية الذى يحافظ على حق كل فرد فى المبادرة والإبتكار الشخصى، والتجديد والإبداع والتنوع، وهو اتجاه لا يرضى للتربية أن تسير فى طريق العقلانية المحضة، أو أن تؤكد عبودية الإنسان للآلة، التى من أهم واجباتها تنمية الإبتكار والأصالة. وليس معنى ذلك عزل التربية عن أجهزة التقنية الحديثة وإنما الاستفادة بها إلى الحد الذى لا يسلب الإنسان إنسانيته.

* * *

ثانياً : الأسبَاب التربَويَّة لأزمَة التعليم المعاصر

يرى بعض المتخصصين أن النظم التربوية المعاصرة قد أصبحت على قدر من البلى والتحجر يدعو إلى ضرورة إحلالها بنظم تربوية جديدة، ويتطرف البعض فى ذلك فينادى بإلغاء النظام المدرسى تماماً فى محاولة لربط التعليم بالحياة مباشرة (اينيش فى ادجار فور ومن معه ١٩٧٤)، وإن كان هذا رأياً مبالغاً فيه،غير أن النموذج التعليمى الغربى المعاصر – الذى لا يزال سائداً فى كثير من الأقطار – قد عفا عليه الزمن، ولم يعد يصلح حتى للطبقات البرجوازية التى أنشىء من أجلها إبان القرون الوسطى، فهو ملىء بالعيوب الملحوظة التى من أبرزها أنه يفتقر إلى فلسفة تربوية صحيحة، وأنه عاجز عن مسايرة التطور السريع فى المجتمع، وأن نظم القبول فيه لا تقوم على المساواة وتكافؤ الفرص، وأنه يعتمد أساساً على التعليم النظرى وعلى الحفظ، ويعتمد التعبير الكتابى المرتكز – على التكرار والتقليد – ويفضله على كل من التعبير الشفهى العفوى وعلى البحث المبدع، كما أنه يفصل بين المواد الإنسانية – التى يعتبرها غير علمية – وبين المواد العلمية – التى يعتبرها مجردة من الصبغة الإنسانية – ، ويميز بين التعليم العام وبين التعليم التقنى، ويفضل الفكر النظرى على العملى التطبيقى تفضيلا موروثاً من الماضى حيث كانت الارستقراطية الأوروبية تحتقر العمل اليدوى، ويعتمد الامتحان التحريرى وسيلة رئيسية فى تقييم الطلاب وهى طريقة قد ثبت فشلها.

ومن المؤسف أن الاستعمار الأوروبى قد عمل على نقل نماذجه التعليمية التقليدية وترويجها فى البلاد التى استعمرها، وأغلب هذه النظم قد نقلت بطريقة مشوهة، فلم يكن التعليم فى ظل أى حكم استعمارى يهدف إلى تكوين شبيبة قادرة على خدمة وطنها؛ بل كان يرمى إلى تلقينها القيم السائدة فى الدول المسيطرة، وإلى تعليمها بالقدر الذى يجعلها فى خدمة الاستعمار،

وهذا الأمر يتضح بجلاء فى نظام التربية الانجليزية فى كافة الدول التى احتلت أراضيها والتى كانت تهدف إلي تكوين فئة من الأفراد يمكن اعتبارهم مواطنين من حيث اللون والدم، وانجليزاً من حيث الأذواق والآراء والأفكار والتقاليد فى جميع الدول التى اصطلت بنار الاستعمار البريطانى الكريه وعانت من تسلطه وقهره؛ فأكثر النظم التربوية السائدة اليوم تعكس التراث الذى خلفته الدول الاستعمارية السابقة، أو الدول الأجنبية المسيطرة اقتصادياً أو فكرياً أو حضارياً، سواء كانت تلك الأنظمة متمشية مع الاحتياجات الحاضرة لتلك الأقطار أم لا.

وكذلك الدول التى أسست نظمها التعليمية بعد رحيل الاستعمار عنها، بنتها على قواعد مستوردة، متناسية فى ذلك أن فلسفة التربية يجب أن تنبع من عقيدة الأمة وتراثها وفكرها، وأن أى نظم تربوية مستوردة مصيرها أن تلفظ كما يلفظ الجسم عضواً غريباً يغرس فيه، وبالفعل فإن غالبية الدول التى استوردت نظمها التعليمية من الخارج ظلت معاهدها التعليمية فى حالة من عدم الاستقرار لا تزال تعوق العملية التعليمية وتعطلها عن بلوغ أهدافها المرجوة.

وليس أبلغ في التعبير عن ذلك من تلك الدول العربية والإسلامية العديدة – وغيرها من دول العالم الثالث – التى أخذت في السنوات الأخيرة تتبنى نظام التعليم الأمريكى خاصة فى المرحلة الجامعية دون دراسة حقيقية دقيقة لملاءمة ذلك النظام لاحتياجاتها، واستعدادات أبنائها، وطبيعة تراثها وخلفيتها الحضارية، ثم استيراد الجامعات الأمريكية، والكندية، والبريطانية، والفرنسية، والألمانية وغيرها فى العديد من الدول العربية والمسلمة والتنافس فى ذلك تنافساً كبيراً.

ويؤخذ على النظم التربوية المعاصرة على تباين أشكالها المآخذ التالية:

(١) عدم وجود فلسفة تربوية صحيحة لها لنظم التعليم المعاصرة:

يتفق رجال التربية على أنه لا بد للمعلم من فلسفة فى الحياة تمكنه من القيام بمهمته التربوية على الوجه الأمثل، كما أنه لا بد للتعليم من فلسفة واضحة تنبعث من عقيدة المجتمع، وتراثه، وقيمه العليا وتطلعات؛ فلسفة تنعكس فى

أهداف العملية التربوية وفى مناهجها وأساليبها ومختلف طرائقها ومعاييرها، وفى كل أمر من أمورها، وعلى الرغم من ذلك فإن المتتبع لأمور التربية المعاصرة يجد أنها – بصفة عامة – قد أصبحت دهرية، لا دينية، خالية من أى ارتباط بعقيدة أو خلق أو قيم، وأن معلمى اليوم فى جملتهم لا يملكون فلسفة تربوية محددة، ولا فلسفة واضحة لحياتهم. والقلة النادرة التى لها فلسفة منهم قد تبنت تلك الفلسفات المادية المنكرة فى أغلب الأحيا وهى فلسفات ناقصة لأنها تدور فى إطار المادة فقط وتنكر كل ما وراءها!!!

وقد تعاون أصحاب الفلسفات المنحرفة مع المفتقرين إلى فلسفة محددة لحياتهم على إقصاء فلسفة الحياة الصحيحة عن ميدان التربية فدارت العملية التعليمية فى دوامة من الفكر المادى المجرد من الروح أفقدها أنبل عطائها، وأقدس أدوارها، وأسمى غاياتها وهذا يشكل حجر الزاوية فى أزمة التعليم المعاصر!!!

فالعداء الذى نشب بين المفكرين وبين الكنيسة فى العالم الغربى فى بدء عصر النهضة انتهى بهزيمة الكنيسة وانصراف غالبية الناس عنها، مما أدى إلى بروز العديد من الفلسفات المادية الوضعية التى تركت بصماتها بوضوح على التعليم، حيث نشأت فلسفات تربوية مرتبطة بهأ وتحمل أسماءها!!!. هذه الفلسفات قد دفعت بالإنسان إلى حلقة مفرغة من الجدل العقيم الذى لم يستطع أن يخرج منه بإجابات شافية على تساؤلاته الأساسية الملحة التى منها: من أنا؟ ومن أين أتيت؟ ومن أتى بى إلى هذا الوجود؟ وما هى رسالتى فيه؟ وكيف يمكن لى تحقيق تلك الرسالة؟ وما مصيرى من بعد هذه الحياة؟

وهذه قضايا تشغل بال الإنسان أينما كان، وحيثما وجد، ومهما بلغ عمره أو ثقافته، وإذاً لم يجد الإجابات المنطقية المقبولة لها عاش حياته الدنيا فى حيرة بالغة، واضطراب فكرى، وقلق نفسى، وتباين مع الفطرة السليمة. فيشقى شقاءً ما بعده شقاء. ويشقى كل من حوله. خاصة أبناءه إذا كان والداً، وطلابه إذا كان معلماً!!!.

هذه الحيرة النفسية التى يعانيها إنسان اليوم المفتقر إلى فهم حقيقة رسالته فى هذه الحياة تنعكس بوضوح فى الكثير من كتابات التربويين وهى تعكس صورة من صور الارتباك والحيرة التى يعيشها إنسان اليوم مهما بلغت ثقافته. وهما ارتباك وحيرة تنعكسان فى كل زاوية من زوايا حياتنا، خاصة فى مجال والتعليم؛ وذلك لأن ارتباط الحضارة المعاصرة بفكرة محددة عن الحياة قصرتها على المتعة، والمعرفة، والتقدم المادى فقط قد انحط بالإنسان إلى المادية الصرفة. وتركه فى خواء روحى أفقده اتزانه الفطرى. وإنسان هذا شأنه لا يمكن أن يكون لديه عطاء تربوى أو أن تكون له فلسفة صالحة للتعليم.

(٢) جمود أغلب نظم التعليم المعاصرة وعجزها عن مسايرة التطورات الاجتماعية المتسارعة:

من الملاحظ أن المعدلات الذاتية لتطور نظم التعليم المعاصر بطيئة جداً مما يعيق تقبلها للتغيرات السريعة فى المجتمعات المعاصرة، حتى ولو لم يكن هنالك عوائق مادية، وهذا يوجد قدراً من التباين بين نظم التعليم ومجتمعاتها.

وعلى سبيل المثال فإن تقنية التعليم قد خطت بخطى بطيئة جداً، بينما حققت النشاطات الإنسانية الأخرى قفزات مرموقة فى تقنياتها وإنتاجياتها، فالتعليم – وهو الوسيلة الرئيسية لنقل المعلومات من جيل إلى آخر – قد فشل – بصفة عامة – فى استخدام نتائج البحوث العديدة التى يقدمها للمجتمع فى تطوير ذاته، وفى نقل هذا القدر الهائل من المعارف والطرائق والأجهزة إلى داخل قاعة الدرس؛ وربما كان ذلك لأن التربية من أعقد عمليات النشاط الإنسانى.

وتتباين المذاهب الاجتماعية للتربية تبايناً ملحوظاً؛ فمنها ما ينادى بجعلها كياناً قائماً بذاته ومن أجل ذاته؛ ومنها ما يرى أن التربية يمكنها – بل يجب عليها – أن تغير المجتمع، ومنها ما يرى أن نمط التربية ومستقبلها خاضعان بصورة حتمية لعوامل البيئة التى تتواجد فيها، وما يعتقد بأن التربية المعاصرة هى أصل الفساد المتفشى فى المجتمع، بل هى التى تنشره وتدعو إليه وتحافظ على بقائه.

والوظيفة الاجتماعية للتربية معقدة غاية التعقيد، فالتربية من جهة خاضعة للمجتمع بتقاليده وقيوده وقيمه وإمكانياته وإن لم يكن كل ذلك منطلقاً من منطلق إنسانى نبيل كان أثره بليغاً فى شل العملية التربوية والدوران بها فى متاهات من الضياع، ومن جهة أخرى فإن التربية من أهم العناصر الفعالة فى تطوير المجتمع وهى فى نفس الوقت تعتبر أهم أداة للمحافظة على القيم السائدة فيه، وعلى توازن القوى العاملة له؛ وعلى ذلك فهى تعتبر المسئول الأول عن تقدمه أو انتكاسه، والفيصل فى ذلك هو عقائد المجتمع وفلسفاته وقيمه، وفلسفة العملية التربوية ذاتها المنطلقة من كل ذلك؛ فإن كان للمجتمع عقيدة سليمة وفلسفة واضحة للحياة وتصور صحيح لدور الإنسان فيها انعكس ذلك فى فلسفة تربوية سليمة لا تهزها بلبلات الأفكار الهدّامة، ولا مناورات المفاهيم المنحرفة، ولا هزات التغيرات السريعة التى تعكس عدم الاستقرار فى مجتمعات اليوم.

(٣) اتباعها نظم قبول متباينة وغير سليمة:

فبعض الدول تأخذ بمبدأ التشدد فى الانتقاء بينما البعض الآخر يأخذ بمبدأ الباب المفتوح. وكثير من الدول تعانى مشكلة كبرى فى الفترة الانتقالية من نظام مفتوح جداً إلى نظام أكثر تشدداً ويتضح ذلك أكثر ما يتضح فى دول العالم الثالث التى أخذت فى البداية بمبدأ الباب المفتوح ثم اضطرت إلى وضع القيود التى ما فتئت تتزايد تدريجياً بسبب قلة الإمكانيات ومقتضيات الحالة الاقتصادية، ويتضح ذلك أكثر ما يتضح فى القبول للجامعات حيث لا يختار الطلاب على أساس من ميولهم واستعداداتهم الشخصية وإنما على أساس نتائجهم فى امتحان الثانوية العامة، وهو مقياس غالبا ما يخطئ تقدير الاستعدادات الشخصية للطلاب، وقدراتهم ومواهبهم.

وتتضح هذه المشكلة أيضاً بصورة أكثر مأساوية فى بعض دول العالم الثالث التى تفرض عليها ظروفها الاستعانة بخبرات نفر من غير أبنائها . وأغلب هذه الدول يعامل أبناء هؤلاء الوافدين بمعايير تختلف كثيراً عما تعامل به

أبناءها، فمن أبناء وبنات الوافدين من يذهب للمدرسة الخاصة فى الصباح إذا كان أهله قادرين على مواجهة تفقاتها الباهظة، ومنهم من لا يكاد يجد إلى المدرسة سبيلاً إلاَّ فى عتمة الليل !! ومنهم من لا يستطيع أن يجد سبيلا إلى المدرسة على الإطلاق !

ومن المواطنيين فى تلك البلاد من يدحل الجامعة بأقل من ٥٠٪ من مجموع درجات الثانوية العامة بينما غيره ممن جاوز الثمانين بالمائة من أبناء الوافدين لا يكاد يجد لنفسه مقعداً !!!

وكم هو قاس على القلب أن نرى فى جامعة واحدة طلاباً تنقلهم حافلات الجامعة إلى قاعات الدرس، وآخرين ينتقلون على الأقدام، ونرى من ينقل إليهم الغذاء من مطاعم الفنادق الفاخرة، ومن يحملون شطائر الخبز اليابس بين ثنايا الكتب، ومن يرسلون فى رحلات إلى أوروبا وأمريكا للتدريب ويحرم من ذلك من زملائهم الذين يبزونهم علماً والتزاماً وفضلاً لمجرد أنهم لم يسعدهم الحظ فيولدوا على أرض ذلك البلد!!! ومنهم من تفتح لهم الشركات أبوابها للتدريب وهم زاهدون فيه معرضون عنه، ومن توصد دونهم الأبواب وهم حريصون على التدريب قادرون عليه !!!

وكم هو مؤلم للنفس منظر الأطفال الصغار والبنات والشبان من مختلف الأعمار وهم يسيرون فى الطرقات فى عتمة الليل لأنه لا يوجد لهم مكان فى مدارس الصباح ومن عجب أن من بين هؤلاء المحرومين من كل حق يخرج النوابغ والمبرزون وأوائل الشهادات العامة، بينما المرفهون المدللون زاهدون فى العلم، عازفون عنه، كارهون له ولأهله !!

وكم هو مؤلم منظر الآباء والأبناء بعد إعلان نتائج الشهادات العامة والنبهاء النابغون السابقون من أبناء الوافدين لا يجدون لهم مكاناً فى جامعة أو معهد عال والأغبياء المتأخرون المهملون من المواطنيين يقدمون وتفتح أمامهم كل الأبواب !!!

ويحضرنى فى ذلك قصة أحد كبار المهندسين الاستشاريين الذى قضى نصف عمره أو يزيد فى بلد عربى فى خدمة أمينة متفانية، تخرجت له ابنة من الثانوية العامة وتقدم بطلب لها إلى الجامعة ولم تقبل، بينما قبلت من المواطنات من هن أقل منها مستوى بمراحل كثيرة !! ولما كان هذا الرجل ممن مَنَّ الله تعالى عليهم بنعمة الإيمان – ولا نزكى على الله أحداً – فإنه لم يوافق على أن تبتعد ابنته عنه سعياً وراء طلب العلم فى جامعة أخرى – فتقدم إلى إدارة الجامعة في البلد الذى يقيم فيه عارضاً أن يدفع مبلغاً كبيراً من المال للجامعة على أية صورة مناسبة (كنفقات تعليم، أو هبة) من أجل أن تقبل ابنته بالجامعة ولا يضطر إلى إرسالها لتلقى العلم بعيداً عنه، ولكن طلبه رفض رفضاً قاطعاً، وكان بتلك الجامعة فى ذلك الوقت فصل من الفصول الدراسية به طالبة واحدة من بنات البلد المضياف، ينتقل إليها أعضاء هيئة التدريس فى قسم كامل لكى يقوموا بتعليمها، وكانت المسكينة تعانى من الوحدة والعزلة، وما كان أسعدها لو أن الجامعة قبلت ذلك العرض من رجل مسلم أراد أن يوفر لابنته فرصة التعلم تحت رعايته، دون أن تضطر إلى مخالفة أوامر ربها، فتغترب طلباً للعلم وتعانى مشاكل الغربة وأخطارها، أو تضحى برغبتها فى طلب العلم !!!

وأمثال تلك النظرة الإقليمية الضيقة يسود مختلف أنماط النظم التعليمية المعاصرة، فكم من نظرة أنانية غير إنسانية تفرق بين الناس على أساس من أصولهم العرقية أو معتقداتهم الدينية أو اختلافاتهم المذهبية، أو مستوياتهم الاجتماعية أو آرائهم السياسية أو ألوان جلودهم أو أماكن ولادتهم، أو أية فوارق أخرى يمكن أن يستخدمونها وسيلة من وسائل التفرقة بين الناس، وليس ما يحدث فى المعاهد التعليمية بكل من الصين، وروسيا، والهند، وإيران، والبلقان، وفلسطين المحتلة، وبكثير من البلاد العربية والإفريقية والأسيوية، وفى العديد من الجامعات والمعاهد الأوروبية والأمريكية من تعصب أعمى مقيت بالأمر الذى يمكن أن يغيب عن الأذهان .

ويحضرنى فى ذلك أن أحد الإخوان الأعزاء أرسل لى يوماً ابناً من أبنائه حصل على الثانوية العامة بعد أن عجز عن إيجاد دراسة مناسبة له، وسألت الابن عن مجموعه فى الثانوية العامة فأفاد بأنه دون الخمسين بالمائة، وعن المجال الذى يرغب التخصص فيه فأجاب بأنه الهندسة ، وبينما أنا أوبخه على مجموعه الضئيل وتطلعاته الواسعة، وأقول له إنه كان من المفروض لمن أراد دخول كلية الهندسة أن يبذل الجهد المناسب لمثل هذا التطلع، وبينما أنا في ذلك دخل علينا معيد صغير ينتمى إلى حزب حاكم فى دولة عربية شقيقة تحكمها أقلية عقدية منحرفة والتقط منى الحديث، وسأل ذلك الشاب إن كان يرغب فى دخول كلية الهندسة فى تلك الدولة الشقيقة، وتعجبت من سؤاله، ولكنه سرعان ما أخرج وريقة صغيرة وخط فيها أسطراً قليلة موجهة إلى أحد كوادر الطائفة الباغية والمتسلطة على الحكم فى تلك الدولة العربية المسلمة وأعطاها لذلك الشاب وأنا أتخيله يمزح، ولكن لشدة دهشتى فوجئت بعد أسابيع قليلة بخطاب من ذلك الشاب يفيدنى فيه أنه بتلك الوريقة قد قبل فعلاً طالباً بكلية الهندسة بتلك الدولة الشقيقة، بينما الكثيرون من أبناء تلك الدولة الحاصلون على نسب مرتفعة فى شهادة الثانوية العامة لم يصلوا لدراسة الهندسة لأنهم ليسوا ممن ينتمون إلى الحزب الحاكم وأفكاره، ولا إلى الطائفة المتسلطة وانحرافاتها !!! وليس ذلك بالأمر الغريب على دولة أصدرت الحكم بالإعدام على كل من يؤمن بأنه لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله . وضربت واحدة من أعرق مدنها بقذائف طائراتها وصواريخها حتى سوت بها الأرض فقتلت الشيوخ والأطفال والنساء فى بيوتهم، ودخلت المساجد بالدبابات، ودمرتها بالمدفعيات الثقيلة وفى قلبها المصلون فى يوم الجمعة، وملأت السجون والمعتقلات بخيرة شبابها لعشرات من السنين وعرضتهم لصور من التعذيب الوحشى الذى لا يرعى للإنسان حقا ولا حرمة .

(٤) اقتصارها على نقل المعلومات أو التدريب على قدر من المهارات :

إن نظم التعليم المعاصر على تباين أشكالها توصف – فى جملتها – بأنها

نظم دنيوية لا دينية، غير مرتبطة بأية قيم دينية أو أخلاقية وبذلك قصرت دورها على نقل المعلومات، أو التدريب على عدد من المهارات، ففقدت دورها التربوى، لأن ذلك لا يمكن أن يسمى تربية، بل هو وسيلة لتوصيل قدر من المعارف ونقل عدد من الحرف تجعل من المعهد التعليمى مجرد مركز للتدريب والتعليم وهناك فرق هائل بين التعليم والتربية؛ لأن المعلومات المنقولة، والمهارات المكتسبة دون تربية حقيقية للإنسان هما من وسائل الاستعلاء على الخلق والتجبر فى الأرض، ومن الأسباب الأساسية لانحطاط الإنسان وتدهور أخلاقه ومبالغته فى ظلم أخيه الإنسان، ويشكل ذلك أحد الأسباب الرئيسية لأزمة التعليم المعاصر.

(٥) اتباعها لنظم مناهج محددة:

تتبع نظم التعليم المعاصر - على تباينها - مناهج محددة مبنية على عدد كبير من المقررات التى تفتقر إلى شىء من الترابط والتنسيق، ولقد عّبر تقرير المجلس الأمريكى لتدريس العلوم الجيولوجية الصادر سنة ١٩٧١م، عن ذلك بقوله: «إن حماس الرغبة الشابة يتحطم، ولهيبها يطفئه أكثر من ٢٤٠٠ ساعة (١٨٠٠ - ٣٠٠٠) من المقررات المجـــزأه، التى تصب وتزج وتضغط فى ذهن الطالب العادى الذى يتعرض لها فى سلبية وذهول على مدى من أربع إلى خمس سنوات من التعليم الجامعى، وآثار هذا التفتيت المستمر، والتجزئة، والفصل بين المعلومات فى فترة التعليم الجامعى يمتد من الحياة الطلابية المكبوتة إلى ما بعدها».

والمقررات المفككة وغير المترابطة هذه التى تتبناها المناهج الجامدة لنظم التعليم المعاصر لا تهتم بإنماء الملكات الفردية أو القدرات الذهنية، أو المهارات اليدوية، ولا تعنى بالتعرف على الذات، أو إحياء الضمير الشخصى، ولا تعمل على جلاء البصيرة، وإذكاء لروح أو للتزام بالقيم الأخلاقية، لأنها فى الواقع لا تعنى أكثر من قدر من المعلومات الجامدة التى قد لا تفهم ولا تستوعب، وفى ذلك يقول أحد التربويين المعاصرين «إنه لمن الأجدى للطالب أن يكون قادراً على

توجيه سؤال جديد، من أن يكون قادراً على الإجابة على عدد من الأسئلة القديمة»، وفى الأثر «السؤال نصف العلم» و«العلم خزائن يفتحها السؤال»، ويروى عن الإمام مالك (رضى الله عنه) قوله: «لعمرى إن السؤال يفتح العلم» كما يروى عن عبد الله بن عباس (رضى الله عنهما) قوله: «يحتاج العلم إلى لسان سؤول وقلب عقول».

وليس المقصود بالسؤال الاستفسار على إطلاقه ولكن الاستفسار الذكى المنطقى الهادف الذى يفتح مغاليق العلم، وينشط ملكات العقل، ويعين على حسن الحوار، فقد كان السلف الصالح يكره من السؤال ما فيه تكلف ينتهى إلى تنطع، ويحبذ منها ما يسبب بيان المشاكل ويوضح الأحكام، أو يعرض للنوازل التى تحدث للناس فيستفتون فيها، ويجيبون على أسبابها وعلى كيفيات تحاشيها.

فالطالب لا يمكنه أن يتقن معرفة ما فى أى حقل من الحقول إلا إذا اكتشفها بنفسه، فتسليم المعلومات إليه ميتة ككم مهمل هو فى الحقيقة عملية ضئيلة القدر جداً وقليلة النفع فى عملية التعليم.

وبدهى: أن نتاج العمليات التعليمية المبنية على مثل تلك المناهج لابد أن يكون جيلاً من أشباه المتعلمين الذين يفتقرون إلى شىء من التكامل الذهنى، والتوازن المنطقى، وإلى القدرة على اكتشاف الذات وفهم الغير، وجيل هذا شأنه هو حقيقة جيل من غير المثقفين، وغير الصالحين لخدمة أنفسهم أو مجتمعاتهم، وهذا واضح فى الشكوى المستمرة من تدنى مستويات الخريجين - بصفة عامة - وفى محاولة التغلب على ذلك بالدعوة إلى التعليم المستمر وإلى تكوين المجتمع المتعلم. وربما يعترض على ذلك بوجود بعض الحالات الفردية النابغة التى تتمكن بمواهبها الخاصة من الوصول إلى قدر كبير من المعرفة والثقافة، ولكن مثل هذه المواهب الفردية ليست بالتأكيد من نتاج تلك العملية التعليمية العقيمة، بل يمكن أن يقال إنها حالات شاذة أفلتت من فساد العملية التعليمية الفاشلة بأعجوبة.

(٦) قيام نظم التعليم المعاصرة بالفصل بين الدراسات الإنسانية والعلمية :

تقوم النظم التعليمية المعاصرة – على اختلاف صورها – بفصل المواد الإنسانية – والتى تعتبرها غير علمية – عن المواد العلمية – التى تعتبرها مجردة من الصبغة الإنسانية – وقد لعب ذلك الفصل بين المعارف الإنسانية دوراً خطيراً فى أزمة التعليم المعاصر، إن لم يكن فى مختلف الأزمات التى يعيشها إنسان اليوم، وقد انتقلت عدوى ذلك من أوروبا الغربية إلى عالمنا العربى / الإسلامى الذى لم يعرف ذلك الفصل فى تاريخه الطويل أبدا، ولكنه مرض استشرى فى نظم التعليم المعاصرة كلها نتيجة للصراع الذى نشب بين المشتغلين بالعلم والكنيسة الغربية والذى انتهى بهزيمة الكنيسة وانحسار الدين منذ بدايات عصر النهضة الأوروبية.

فالعلوم انطلقت فى أوروبا من منطلق كافر، لا يعترف بغير المادة، ولا يسلم إلا بالمدرك المحسوس من الأمور التى يمكن أن تتأكد بتجارب قابلة للتكرار والإعادة، ونظراً للتقدم الملحوظ والانتصارات الباهرة التى حققتها دراسات العلوم البحتة والتطبيقية انتصر المنهج التجريبى على غيره من المناهج الفكرية حتى في الفكر التربوى لدرجة تباينت معها الآراء حول قصر التعليم على دراسات العلوم والتقنية وإهمال الدراسات الإنسانية والاجتماعية، وقد أدى ذلك إلى انحسار ملحوظ فى الإقبال على الدراسات الإنسانية، ثم إلى انحطاط فى مناهجها وأساليبها، وذلك نتيجة لمحاولتها محاكاة دراسات العلوم والتقنية بإتباعها منهجاً تجريبياً حورت به من طبيعتها لتقترب من الدراسات المهنية ففقدت بذلك كثيراً من آفاقها.

هذه العملية أفقدت الدراسات الإنسانية جوانبها الدينية من عقيدة وعبادة وأخلاق ومعاملات، كما أفقدت الدراسات المهنية جوانبها الإنسانية، فإن قصر اهتمامات الدراسات الإنسانية على الجوانب المادية فى الإنسان أفقدت تلك

الدراسات الجوانب الروحية، والمشاعر والعواطف الإنسانية وهى أهم جوانبها وبالمقابل فإن قصر اهتمامات الدراسات المهنية على نقل الخبرات التقنية والمهارات فقط لا يمكن أن يصنع منها مهنة صالحة، وذلك لأن المهنة كما تحتاج إلى المهارة تحتاج إلى قيم أخلاقية تضبطها وتمنع صاحبها من استخدامها إلا لصالح الآخرين، فالطالب الذى ينتظم فى دراسة مهنية معينة لا يمكن أن يكون صالحاً لممارستها حتى يتعلم القيم التى تجعل من مهنته عملاً إنسانياً، وحتى يؤمن بها ويلتزم بتطبيقها.

ولكن هل المعاهد المهنية والتقنية الحالية تعمل على تنمية تلك القيم الإنسانية؟ وهل يكتفى فى أمر الالتزام بالقيم بقسم يردد بصورة شكلية محضة؟ أم من الواجب أن يكون التعليم (حتى فى مجرد الإعداد لمهنة ما) شاملاً للتربية الأخلاقية والتدريب على الالتزام بقيمها؟ وهل يكفى قسم الطبيب أو المهندس أو الصيدلى أو غيرهم من المهنيين ضامنا كافيا لكى يحافظ على شرف المهنة وألا يستخدمها فى غير خدمة الإنسان، هل يكفى ذلك ضماناً لسلوكه وضبطاً لتصرفاته؟ .

هذا الفصل بين الدراسات العلمية والإنسانية وتجريدهما من الضوابط الدينية والروحية والغيبية، ودورانهما فى الإطار المادى للوجود فقط يمثل ركناً من أركان أزمة التعليم المعاصر والتى لا يمكن الخروج منها إلا باستكمال الدراسات العلمية للجوانب الغيبية والدينية والإنسانية فيها، وانطلاق الدراسات الإنسانية من حدود الأطر المادية التى فرضت عليها، فإنسان اليوم لا يمكنه أن يواجه تحديات العصر إذا استمر في تحويل المعارف الإنسانية إلي مهن تمتهن، وفى محاولة قياس القيم بالمعايير المادية للعلوم التجريبية وفى فصل العلم والتقنية عن جوانبهما الإنسانية.

(٧) افتقار نظم التعليم المعاصرة إلي النظرة الإنسانية الشاملة:

تفتقر النظم التعليمية السائدة اليوم – فى جملتها – إلى النظرة الإنسانية الشاملة؛ وذلك لأنها – فى أفضل صورها – تهدف إلى تخريج «**المواطن الصالح**»

وليس «**الإنسان الصالح**». ومن هنا فهى تقصر أهدافها فى أطر قومية أو عرقية، أو مذهبية، أو فكرية، أو عنصرية أو ضيّقة محدودة، وتنسى التأكيد على معنى الأخوة الإنسانية، والمصير الواحد للبشرية، وننسى أو نتناسى أننا نحيا هذه الحياة الدنيا على كوكب واحد، ما يصيبه فى أصغر أجزائه يتردد صداه فى مختلف أرجائه – خاصة وأننا نعيش عصراً تخطت الطائرات فيه سرعة الصوت، وانتقلت الأحداث فيه من أقصى الأرض إلى أقصاها فى لحظات عبر الأقمار الصنعية، وأصبحت تتهدد أرضنا فيه أخطار تلوث البيئة، واستنزاف الموارد الطبيعية، وتناقص خصوبة التربة الزراعية، وزحف الصحراء (أو التصحر)، وعدم كفاية المواد الغذائية، وشبح الإشعاع، وتكدس مخزون الأسلحة التقليدية وغير التقليدية من أسلحة الدمار الشامل، وتهديد الصواريخ عابرة القارات، والمزودة بالرؤوس النووية وغير النووية، ودوريات الغواصات وحاملات الطائرات المشحونة بتلك الأسلحة غير التقليدية!!! وبذلك يطبع المتعلمون بطابع التعصب، وضيق الأفق، وتتملكهم النعرات القومية والجاهلية، وينعكس ذلك على تصرفات الساسة والقادة والإداريين، وليست الحروب العالمية الساخنة والباردة، وانقسام العالم إلى معسكرات متطاحنة إلا من نتائج هذه النظم التربوية الفاسدة. **والمخرج** من ذلك كله هو التأكيد على حقيقة الأخوة الإنسانية، والمسئولية الفردية والجماعية، والمصير الواحد، فإن التغيرات الكبرى التى تحدث اليوم أصبحت تهدد وحدة الجنس البشرى كله، وانقسامه إلى أسياد يملكون وسائل التدمير الشامل وعبيد لا يملكون من وسائل التقدم التقنى ما يمكنهم من ردع السادة ومن ثم فليس أمامهم من خيار إلا الرضوخ لهم، وما يترتب على ذلك من صراع فتاك، وكوارث مهلكة، أضف إلى ذلك أن وسائل التدمير الشامل المتوفرة اليوم قد تقع فى أيدى فئات من الناس لا تخضع للقانون ولا للنظام ولا للقيم ولا للأخلاق فتقضى على إنسان اليوم بكل منجزاته الحضارية، وعلى ذلك فالتهديد الأكبر لإنسان اليوم هو أن يفقد هويته كإنسان، وذلك بضياع خصائصه الإنسانية، وهى

كارثة ستصيب السيد والمسود فى آن واحد، فالضرر الذى يلحق الإنسان فى انسانيته يلحق جميع الناس، ولا يمكن أن تحدد عواقبه.

ومن أوضح الأمثلة على تسلط الولايات المتحدة الأمريكية على العالم وقد وقع الحكم فيها بأيدى مجموعة من غلاة النصارى المتهودين الذين يريدون فرض قيمهم الهابطة وهيمنتهم على باقى دول العالم بقوة ما يملكون من أسلحة الدمار الشامل.

وليس أدل على ذلك من المظالم البشعة التى يفرضها حثالة من حثالات ونفاية من نفايات الشعوب على شعب فلسطين منذ قرابة القرن من الزمن بناءً على دعوى باطلة افتروها على الله - تعالى - بأنهم قد ملكهم أرض فلسطين، وهم لا يمتون إلى المنطقة بأية صلة دينية أو عرقية أو لغوية أو تاريخية أو قانونية، وقد غرسهم الاستعمار الغربى فى قلب المنطقة العربية انتقاما من هزيمتهم فى الحروب الصليبية.

ومن أبشع الأمثلة على ذلك الاضطهاد الوحشى الإجرامى وغير الإنسانى الذى تعرض له المسلمون فى البلقان ولا يزالون على أيدى غلاة الصرب والكروات، والذى راح ضحيته الملايين من الأطفال والنساء والشيوخ والشبان وتجسد فى دفن أكثر من عشرة آلاف مسلم حى فى سربرانتشا تحت سمع وبصر قوات الأمم المتحدة فى أواخر التسعينات من القرن العشرين، وغير ذلك من المظالم فى مختلف بقاع العالم.

(٨) انقطاع أغلب نظم التعليم المعاصر عن الحياة وعن المجتمعات:

يعزى فشل النظم التعليمية المعاصرة إلى انقطاعها عن الحياة وعن المجتمعات، وانشغالها بقضايا تجريدية نظرية، ونسيان وظيفتها الأساسية فى إعداد الإنسان لينهض بمسئولياته فى الحياة، وبالتالى فعليه أن يرسم ملامح ذلك الإنسان منذ طفولته.

ولكن انقطاع الصلة بين المواد التعليمية وبعضها من جهة، وبين المعهد العلمى والمجتمع من جهة أخرى جعل المعارف التى تنقل للمتعلمين معارف مفككة الأوصال غير مترابطة ومقطوعة الصلة بالبيئة. ومن الأمثلة على ذلك تناسى النظم التعليمية المعاصرة أن فهم أسرار الكون ومعرفة علاقة الإنسان به يعد من الأهداف الرئيسية للتعليم، ومن هنا فإننا نجد الاهتمام بشئون الكون وبوضع الإنسان فيه إما أن يطمس فى أغلب مناهج التعليم أو يضغط على هيئة نزعة نفعية ضيّقة الأفق لا تروى غليل العقول الفتية، ولا تساؤلات المجتمع وحيرة الإنسان في تطلعه إلي معرفة مصيره، أو تعالج من منطلق التحدى والعداوة والكراهية بين الإنسان والكون الذى يعيش فيه، والذى هو فى الحقيقة جزء منه، بدلاً من أن يكون المنطلق هو العمل على الانسجام مع هذا الكون، والتوافق مع سنن الله فيه، والمؤالفة مع مختلف بيئاته؛ ولذلك فإننا كثيراً ما نسمع اليوم عن عبارات من أمثال «غزو الفضاء»، «ومصارعة الطبيعة»، «وتحدى البيئة»، «وقهر الكون»، «وكشف الغيب»، «ومعركة الحياة»، وكلها عبارات إن دلت على شيء فإنما تدل على موقف العداء الذى يقفه إنسان اليوم من الكون الذى يعيش فيه، وهو موقف لا يمكن أن يتحقق معه للإنسان أى قدر من الهدوء النفسى أو الطمأنينة الروحية، وهما من ضرورات قيامه بواجباته فى هذه الحياة.

وكذلك فإن البرامج الدراسية المعاصرة لا تنشغل بقضايا مجتمعاتها الرئيسية كالحروب الطاحنة، والصراعات الاجتماعية المختلفة، وقضايا التفرقة العنصرية المتعددة، ونظم الحكم الدكتاتورية المستبدة المنتشرة فى أرجاء الأرض اليوم وغيرها من صور الظلم والقهر والانحراف الاجتماعى من أمثال إقرار العديد من حكومات العالم الغربى بالشذوذ الجنسى والتشريع لحمايته والسماح بالزواج بين أبناء وبنات الجنس الواحد وإعطائهم حقوق التبنى فى هذه الأوساط الشاذة، وحقوق التوارث، والحصول على معونات الدولة وعلى قبول مجتمعاتهم لسلوكياتهم المنحطة فى العلن فى نواديهم ومنتجعاتهم وفى كافة وسائل الإعلام.

هذا بالإضافة إلى إقرار الزنى بين المحارم والإعلان به، والمعاشرات الجنسية دونى أدنى ارتباط، والتعرى على شاشات التلفاز، وفى النوادى والشواطىء والمنتجعات، والكشف المتكلف عن العورات، والخروج عن المألوف فى جميع السلوكيات من قبل إقرار عبدة الشيطان، والأوثان، والثيران وغيرها. ومن مثل أزمات الجوع، وأخطار تلوث البيئة وانحراف الشباب، وزعامة الأحداث، وتفكك الأسرة وانفلات المرأة ومشاكل الأقليات إلى غير ذلك من الأمور التى تجتاح المجتمعات البشرية من شرق العالم إلى غربه.

ومن المبررات لعدم انشغال النظم التعليمية المعاصرة بهذه القضايا الرئيسية، وفشلها فى المعاونة على حلها التعلل بإطلاق الحريات إلى الفوضى وبندرة المعلومات أو نقص المعدات، إلا أن هذا الفشل يرجع فى أغلب الأحيان إلى عدم الالتزام بقيم دينية صحيحة وضوابط سلوكية وأخلاقية واضحة، وإلى تخوف المعلمين من مواجهة مثل هذه القضايا المعقدة وتهربهم منها بحجة أن هذه القضايا الرئيسية لها من الشمول ما يربطها بميادين علمية متعددة، وهذا لا يمكن من إدراجها فى بنية المناهج الدراسية الحالية القائمة على الفصل بين المعارف، وتصنيفها وتبويبها فى أطر ضيقة أخذت تزداد ضيقاً يوماً بعد يوم مع ازدياد التخصصات العلمية ضيقا و عمقا.

وفوق ذلك كله فإن النزعة النفعية غير المرتبطة بقيم أخلاقية جعلت كلا من المعلم والمتعلم يفرط فى البعد الرئيسى للتربية: وهو البعد الإنسانى – الدينى الأخلاقى – باعتباره الوسيلة المثلى للمعرفة التى يمكن للإنسان أن يصلح بها أموره فى جميع الميادين النظرية والتطبيقية.

ويعتبر ذلك فى نظر كثير من المفكرين أهم المآخذ التى تسجل على نظم التربية المعاصرة وأبعدها خطراً، وقد توجهت الأنظار إلى ذلك الخطر منذ مدة طويلة، ولكن ازداد الاهتمام به مع إندلاع ثورة الطلاب فى أوروبا سنة ١٩٦٨، وانتقال هذه الثورة من الجامعات والمعاهد العليا إلى المدارس الثانوية، ثم انتقالها

من أوروبا وأمريكا إلى بقية دول العالم ثورة عارمة على نظم التربية والتعليم القائمة فى بلادهم اليوم، ويفسر ذلك بأن الطلاب لم يجدوا فى نظم التربية تلك حاجتهم الروحية ولا تطلعاتهم الثقافية، ولا حلول مشاكلهم الاجتماعية، لأنها تركز على النمو المادى المحدود، وتنسى ما فوق المادة!!!. وتدور فى دائرة التخصص الضيق، وتهمل قضايا الإنسانية الرئيسية، وتهتم بزيادة كل من الإنتاج والاستهلاك بغض النظر عن قيمة ذلك الانتاج ومضار ذلك الاستهلاك، ولو كان فيما ينتج ويستهلك هلاك البشرية كلها، ودمارها مادياً وروحياً ومعنوياً، وإلا فكيف يفسر هذا الإسراف المخل فى إنتاج مختلف أدوات الحرب، والذى فاق عشرة ملايين من الدولارات دولار فى كل ثانية تكلفة المصانع الحربية فى العالم أى أكثر من ٣١٥ مليار دولار سنوياً تقريباً. هذا بالإضافة إلى مئات المليارات الأخرى من الدولارات التى تنفق على أجهزة التجسس الخائنة، وبيوت الأزياء والمسرفة إسرافا مخلا، وعلى مصانع أدوات الزينة المتعددة، وعلى طباعة المجلات والكتب الماجنة، والمستهترة، وأفلام ومسلسلات العنف والجنس والتجسس، وكله مما ترعاه العملية التعليمية اليوم وتمده وتنميه!!!

كما أن انقطاع العملية التعليمية عن مجتمعاتها وعن مشاكل تلك المجتمعات الرئيسية قد أدى إلى عدم مواءمة الكثيرين من خريجى المعاهد التعليمية بمختلف أنواعها لحاجات مجتمعاته، وواضح أن ذلك من أسباب البطالة المتفشية بين المتعلمين وما يصاحبها من أزمات نفسية واجتماعية متعددة.

(٩) تمييز نظم التعليم المعاصرة بين التعليم العام والتعليم التقنى:

تقوم النظم التعليمية المعاصرة على الفصل بين التعليم العام والتعليم التقنى بصفة عامة، ويعتقد أن ذلك من آثار القرون الوسطى فى أوروبا حيث كان التعليم العام للسادة والتعليم التقنى للعوام من الشعب، وقد أدى ذلك إلى قدر من عدم المساواة والتمييز بين الناس بغير حق، وضاعف من التكتلات فى المجتمع الواحد، كما أنه حرم بعض الأفراد من متابعة الدراسة بحسب ميولهم

واستعداداتهم، ودفع بالبعض الآخر إلى مجالات من الدراسة لا رغبة لهم فيها، مما أدى إلى زيادة نسبة الفاشلين وإلى حرمان المجتمع من مهارات كان من الممكن أن تنبغ لو وجّهت التوجيه الصحيح.

(١٠) اعتماد معظم نظم التعليم المعاصر للامتحان كأسلوب أساسي لتقويم قدرات الطلاب :

أثبتت التجربة التعليمية أن الاعتماد على أسلوب الامتحانات فقط – خاصة التحريرية منها – لا يمكن أن يؤدى إلى تقويم سليم لقدرات الطلاب ومواهبهم، وإنما يجب أن يتم ذلك بمخالطة وثيقة بين الأستاذ وطلابه تمتد إلى فترة زمنية غير قصيرة حتى يتمكن الأستاذ من التعرف على قدرات كل طالب فينميها، ونواحى قصوره فيعالجها، وبذلك تتكامل العملية التعليمية. وعلى الرغم من ذلك فإن نظم التعليم المعاصر – على تباين أشكالها – تأخذ بأساليب الامتحان – خاصة التحريرى منها – كوسيلة رئيسية لتقييم الطلاب، وقد أدى ذلك إلى كثير من المشاكل النفسية والعصبية والسلوكية ومنها اللجوء إلى الغش مما أفقد العملية التعليمية الشيء الكثير من وظيفتها. وربما كانت الامتحانات ومضاعفاتها من أسباب تذمر الطلاب، وقيامهم بالحركات المناهضة التى اتسمت بالفوضى والعنف أحياناً وبغير المبالاة والفتور فى الإقبال على التعليم أحياناً أخرى، وكلها علامات على رفض الأنظمة التعليمية المعاصرة وعدم التجاوب معها وفشلها فى أداء رسالتها.

(١١) الخلاف على المهمة الأساسية للنظم التعليمية المعاصرة هل هى التعليم أم التدريب المهنى أم الإعداد للبحث العلمى :

فعلى سبيل المثال اقتصرت جامعات ما قبل القرن التاسع عشر الميلادى فى أوروبا على التراث الفكرى والعلمى الذى انتقل إليها عن الحضارة الإسلامية عبر جامعات الأندلس وصقلية وجنوب إيطاليا وعبر الحروب الصليبية. وفى انشغالها بعملية نقل ذلك التراث وهضمه لم تدرك تلك الجامعات الأوربية قيمة البحث العلمى ولا قيمه أن يتعرف الإنسان على ذاته وعلى العالم من حواليه وما يمكن

أن يؤدى إليه ذلك من أقدار من المعرفة التى يمكن أن يستفاد بها فى تطبيقات عملية نافعة عديدة، وعلى ذلك فإن البحث العلمى فى صورته الراهنة لم يظهر فى أوروبا إلا فى فترة متأخرة، ومنذ ظهوره تغّير منهج الجامعات من حفظ التراث الموروث إلى تبنى الأسلوب العلمى المبنى على الملاحظة والاستنتاج أو على التجربة والملاحظة والاستنتاج، وكان ذلك سبباً فى تحول جامعات القرن العشرين بصفة عامة إلى البحث العلمى، واعتباره رسالة الجامعة الأولى، إلا أن المبالغة فى ذلك قد أضرت بالبحث العلمى وبرسالة الجامعة ذاتها، فقد جعلت البحث العلمى مجرد وسيلة من وسائل إثبات الوجود لدرجة أن الشعار المطروح بين أساتذة الجامعات اليوم هو «انشر أو أهلك»، كما أدت هذه المبالغة إلى قدر من الإهمال فى العملية التعليمية ذاتها، علماً بأن المفروض فى الجامعة أن تهتم أولاً وقبل كل شىء بالعملية التربوية وألا تهمل البحث العلمى؛ فإثراء كل من هاتين العمليتين للأخرى أمر لا يمكن إغفاله.

هذا بالاضافة إلى الخلاف بين المشتغلين بالعملية التعليمية على مهمة الجامعات وهل هى للصفوة المختارة كما كانت فى أوروبا عند بدء تأسيسها هناك، أم أنها يجب أن تتسع لجميع خريجى المرحلة الثانوية، وبين هذين النقيضين تدهور التعليم الجامعى كثيراً فمن جهة أثبتت الأيام أن قصر التعليم الجامعى على الصفوة المختارة قد حرم الجامعات من العديد من المواهب التى لو أتيح لها الوصول إلى الجامعة لأبدعت، وليس أدل على ذلك من نجاح فكرة الجامعة المفتوحة والتى بدأت فى بريطانيا سنة ١٩٧١ بأعداد قليلة من الطلاب تزايدت فى مدى سنتين (أى فى سنة ١٩٧٣م) إلى ثمانية وثلاثين ألفاً، ووصل العدد اليوم إلى أكثر من مليون طالب وطالبة، واستطاعت أن تتخرّج ممن لم تتح لهم فرص الإلتحاق بالجامعات النظامية عدداً كبيراً من المتخصصين الناجحين، وكذلك أنتجت من البرامج التعليمية والمؤلفات والبحوث ما يستحق التقدير والإعجاب، حتى أصبح التعليم عن بعد (أو من بعد) أحد وسائل التعليم المنتشرة فى عالم اليوم.

ومن جهة أخرى كان فتح باب الجامعات على مصراعيه - خاصة فى البلاد النامية - سبباً واضحاً فى تدنى نوعية الخريجين، وفى تفريخ أعداد متزايدة منهم فى تخصصات لا تحتاجها مجتمعاتهم، حتى أصبح التعليم الجامعى لا يقصد لذاته بقدر ما يقصد للاستعلاء الاجتماعى، والتباهى الصورى، حتى انتهى به الأمر إلى فقد قيمته، وإلى تفشى البطالة بين الخريجين، أو اضطرارهم فى كثير من الأحيان إلى قبول أعمال أبعد ما تكون عما أهِّلوا له ودرسوا السنوات الطويلة من أجله، وهذا فى حد ذاته يشكل أحد الأبعاد الرئيسية لأزمة التعليم المعاصر.

(١٢) اختصار هدف الطلاب من نظم التعليم المعاصر فى الحصول على الشهادة:

إن فقدان العملية التعليمية لدورها التربوى جعل الهدف من التعليم هو الحصول على الشهادة، ومن هنا فقدت العملية التربوية دورها الرئيسى، فاستبدل شحذ القدرة على التفكير بالاهتمام بالحفظ، وأصبحت عملية التقييم لقدرات الطلاب فى حقيقتها عملية تقييم لذاكرتهم وقدراتهم على أداء الامتحان، وقد انتهى ذلك بنظم التعليم المعاصرة كلها إلى أنها تدور حول غاية واحدة هى التعليم من أجل الإجازة. وهذا فى حد ذاته لا ينتج إنساناً صالحاً، ولا متعلماً جيداً، فضلاً عن إنتاج بحاث متميزين.

ومن المؤسف حقاً أن غالبية الطلاب وأعضاء هيئة التدريس المعاصرين لا يختلفون على هذا التعريف الخاطىء للعملية التعليمية، فمعظم الطلاب لا يهمهم من التعليم إلا الحصول على الشهادة المرجوة التى تؤهلهم للوظيفة المأمولة وللوضع الاجتماعى المرموق، سواء استفادوا من كم المعلومات المكدسة التى درسوها أو لم يستفيدوا، وسواء كسبوا قدرا من المهارات الذهنية أو اليدوية أو لم يستفيدوا، وسواء تدرب الواحد منهم على اكتشاف قدراته الذاتية فى الحكم على الأشياء بمنطق مقبول، والاستفسار عن كل أمر يعن له بمنهجية صحيحة، وأسلوب رفيق وأدب شديد مفيد أو لم يستفد من ذلك شيئاً؛ لأن الهدف الرئيسى عندهم هو

الإجازة والإجازة فقط، وعلى ذلك فإنهم ينفرون من التعليم الذى لا يرجون من ورائه اعترافاً رسمياً.

وأصبح التأكيد على النجاح فى غالبية المراكز التعليمية المعاصرة مقاساً بالأطر الكمية للامتحانات، والدرجات الجامعية – وهى فى الأصل وسائل أصبحت غايات – وأدى ذلك إلى فشل العملية التعليمية فشلاً ذريعاً، وأصبحت المقاييس تخدم ذاتها، كما تطور التعليم إلى انحراف فى القيم ساوى بين التربية والتدريس، وجعل من عملية الحصول على الشهادة شيئاً أهم من تربية القدرات الذاتية، فأصبح طلب العلم مساوياً للذهاب إلى المدرسة، واكتساب المهارات مساوياً لتعليم المهنة، والسلطة مساوية للتسلط والمعاهد العليا أصبحت أدوات دستورها الثابت أن التعليم للشهادة؛ مما جعل التعليم اليومى فى غالبيته مجرد نقل للمعلومات إلى مجموعة من الصغار الجهلة».

(١٣) أن النظم التعليمية المعاصرة فى كثير من دول العالم هى نظم مستوردة غريبة على مجتمعاتها:

سبق أن أشرنا إلى أن النظم التعليمية السائدة فى كثير من دول العالم هى نظم بالية أسست فى أوروبا منذ القرون الوسطى، ولا تزال آثار الفكر المتخلف لتلك العصور بارزة فى كثير من جوانبها، على الرغم من المحاولات المتكررة من أجل تطويرها. ولقد انتقلت تلك النظم إلى كثير من الدول إما عن طريق فرضها بواسطة الاستعمار، أو عن طريق الفتنة بما حققته الدول الكبرى من نجاح فى المجالات العلمية والتقنية. وكان فى استيراد تلك النظم التعليمية إلى البلاد النامية أبلغ الأثر فى تدهور التعليم فيها وذلك لأنها ليست نابعة من احتياجاتها، ولا متوافقة مع قدراتها، فضلاً عن أنها كثيراً ما تناقض عقيدتها وتراثها، وهى فوق ذلك كله نظم غريبة عن البيئة وعن الأستاذ وعن الطالب، والنظم التعليمية لا يمكن أن تكون لها قيمة فعلية إذا لم يكن القائمون عليها مقتنعين بها، ومؤمنين بفلسفتها، فقوة النظام التعليمى تكمن فى قدرته على تحديد أهدافه،

وتحقيق تلك الأهداف بطرقه ووسائله الخاصة. وهذا لا يمنع من دراسة كل النظم التعليمية المتوفرة دراسة ناقدة والاستفادة بأفضل ما فيها حسب الحاجة المحلية، وعلى سبيل المثال فإن تبنى عدد كبير من الدول لنظام التعليم الأمريكى بتفاصيله فى السنوات الأخيرة هو قرار متسرع فى استيراد نظام تعليمى غريب، وعلى قدر من التباين مع ثقافتها واحتياجاتها وفلسفتها فى الحياة، وإن أخطار ذلك القرار قد لا تتضح اليوم، ولكن آثاره سوف تظهر بكل تأكيد فى القريب العاجل وحينئذ ستلفظ تلك النظم التعليمية المستوردة مما سيسبب حالة من عدم الاستقرار تضر بالعملية التعليمية فى تلك البلاد.

ولا يقل عن ذلك خطرا فتح العديد من حكام العرب والمسلمين أبواب بلادهم على مصاريعها للجامعات الكندية والأمريكية والأوروبية، وهى جامعات تنطلق فى فلسفتها التعليمية من منطلقات مادية بحتة، وذلك بدعوى الاستفادة بما حققته بلادهم من تقدم علمى وتقنى مذهل، ولو فكروا فى استجلاب الملايين من أبنائهم الذين يحتلون مراكز قيادية فى مختلف الجامعات ومراكز البحوث الغربية والشرقية لكان أجدى لهم وأوفق، خاصة وأن الهجرة من العالمين العربى والإسلامى إلى الدول الغربية والشرقية على حد سواء أصبح يشكل نزيفا لعقول الأمة لا يكاد أن يتوقف.

* * *

ثالثًا : الأسبَاب القيَاديَة للأزمَة
بمعنى فقدان القدوة الحسنة
كأحد أسباب أزمة التعليم المعاصر

من البدهيّ أن المجتمعات الإنسانية – عامة – والمعاهد التربوية بصفة خاصة – لا بد أن تقاد بالصفوة المختارة، المتميزة بالعلم والحكمة والبصيرة والاستقامة والفلاح التى يمكن أن تشكل القدرة الحسنة، وإلا فإنها ستقاد بواسطة الجهلة المتسلطين، الذين يسيئون الحكم؛ ومن ثم يقودون مجتمعاتهم إلى الضياع. وذلك لأن التعليم بواسطة القدوة الحسنة – سواء فى معاهد العلم أو فى المجتمعات الإنسانية – من أنجح الوسائل التربوية على الإطلاق.

ولكن المتأمل فى الوجوه الحاكمة اليوم يفاجأ بأن المجتمعات الإنسانية – فى غالبيتها – تحكم بواسطة أقل الناس علماً وحكمة وصلاحا، وهؤلاء غالباً هم إفراز نظم اجتماعية وتعليمية مفتقرة إلى رؤية شاملة للإنسان والكون والحياة، وقد دارت هذه القيادات الفعالة بمجتمعاتها : أفرادا وجماعات فى الإطار المادى للوجود فقط فأخرجتهم عن إنسانيتهم، وجعلتهم كيانات أنانية قاسية لا يهمها إلا خدمة السلطة والمحافظة على كرسيّها، ثم إن هؤلاء الحكام – بحكم مراكزهم – تصبح لهم اليد العليا فى تحديد وسائل وغايات النظم التعليمية فيضيّعوها كما ضيعتهم؛ ومن ثم يشكلون أحد العوامل الرئيسية للأزمة التى نحن بصددها.

وفساد القمة هذا كما ينعكس على المجتمعات الإنسانية ينعكس على نظمها التعليمية، فكما فقدت المجتمعات قدوتها الحسنة تفقدها معاهد العلم التى كثيراً ما يتحكم فيها ضباط الانقلابات العسكرية وغيرهم من الحكام المستبدين، أو الإداريين المركزيين المتسلطين، أو السياسيين الطامحين، أو الحزبيين الفاسدين، أو رجال الأعمال المستغلين، وهنا تخسر المراكز التربوية دورها القيادى فتفسد المجتمعات وتفسد بها؛ لأنها لا مناص لها من اتباع المجتمع الفاسد، وقياداته المنحرفة.

وليس أدل على ذلك من الفلسفات الوضعية التى تصارعت على زعامة العالم طوال القرن العشرين وكان فى مقدمتها الرأسمالية والشيوعية، وكلاهما خال من القيم الدينية والأخلاقية؛ ومن ثم انحطت أساليب الصراع بينهما إلى أدنى المستويات وأصبحتا تشكلان خطراً داهماً على العالم بأسره، وعلى الإنسانية كلها. وبين هاتين القوتين الكبيرتين المتصارعتين للسيطرة على العالم والتحكم بمقدراته وثرواته انقسم العالم الثالث بين تابع ولاهث ومقلد فضاعت القيم وانمحت القدوة الحسنة من المجتمعات، وإن بقيت متناثرة على مستوى الأفراد.

وقد ساعد على فقدان القدوة الحسنة تلك القيود – الظاهرة والمستترة – التى تفرض على المثقفين من قبل الحكومات والتى – وإن تفاوتت من بلد إلى آخر – فقد أصبحت من سمات هذا العصر البارزة، وكذلك الآثار السيئة الناتجة عن التكتلات السياسية والعقدية والمذهبية غير الرشيدة، وتكتلات الأقليات الأنانية – الظاهرة والخفية – والتى كثيراً ما تؤدى إلى إقصاء الصفوة القيادية وإحلالها بالمتسلقين والانتهازيين والوصوليين الذين يشكلون الخطر الداهم على العملية التربوية؛ فليس أخطر من معلم لا يصلح أن يكون قدوة حسنة لطلابه. وتتمثل تلك المشكلة فى تكتل اليهود بالجامعات والمعاهد والكليات والأقسام التى يرأسها أفراد من بنى ملتهم خاصة فى أوروبا وأمريكا وجنوب إفريقيا، وتكتل أعضاء الأحزاب الشيوعية والاشتراكية واليسارية المتطرفة فى جامعات البلاد التى تحكم من قبل تلك الأحزاب، وتكتل غيرهم من الأقليات فى كثير من دول العالم.

كما تتضح آثار فقدان القدوة الحسنة بجلاء فى دول العالم الثالث؛ خاصة تلك التى تكافح اليوم فى سبيل بناء مؤسساتها التعليمية؛ وذلك لأن تلك الدول – انطلاقاً من عصبية قومية ضيقة غير متبصرة – تضع نفراً من أبنائها حديثى التخرّج،قليلى الخبرة والتجربة والثقافة فى قمة العملية التعليمية كمخططى

سياسة التعليم، ومدراء المدارس، ورؤساء الأقسام فى الجامعات، ومعاونى عمداء الكليات وعمداء الكليات، ونواب مدراء الجامعات، وحتى مدراء الجامعات ووزراء التعليم؛ وهذا فيه منافاة واضحة لأبسط القواعد التربوية والأخلاق والتقاليد الجامعية.

ومثل هؤلاء المبتدئين لا يمكلون فى العادة إلا أن يتنقلوا بالعملية التعليمية من خطأ إلى خطأ أفدح، ومن حفرة إلى هوة أعمق، وإن الضرر الذى يوقعونه لا يقتصر على ذوات أنفسهم، ولا على زملائهم وطلابهم، ولا على معاهدهم العلمية ومجتمعاتهم الحالية فقط، بل سيمتد إلى أجيال قادمة، فعجز الغالبية العظمى منهم فى الجانب العلمى والإدارى، وافتقار هذه الغالبية إلى الحكمة والخبرة، وبعد النظر، وصواب الحكم، وعمق التفكير، وجلاء البصيرة، والموضوعية، والمنطق، والرشد، وما ينتج عن ذلك من تسيب وتحلل وتصدع لا يمكن إزالة آثاره بسهولة.

ويكفى فى ذلك سؤال يبرز: كيف لمحاضر صغير مسئول عن جامعة بأسرها أو عن كلية بأكملها أو عن قسم من الأقسام أن يرقى إلى مرتبة علمية أعلى (أستاذ مساعد أو أستاذ مشارك أو أستاذ)؟ وهل يملك الدوافع والوقت للعمل لها؟ وإذا كان فهل سيعمل من أجل الحصول عليها أم أن الأمور سترتب له حفظاً لماء الوجه؟ وهل يمكن لقادة تربويين هذا شأنهم أن يقودوا العملية التعليمية فى طريقها الصحيح؟

ويحضرنى فى ذلك صورة عدد من الجامعات التى أسست فى العالم العربى خلال الربع الأخير من القرن العشرين، والتى بدأت بداية طيبة - على الرغم من انطلاقها من منطلق غربى أو شرقى - وذلك لوجود نفر من الأساتذة والمربين المسلمين الذين لهم من التجربة والخبرة ما يؤهلهم لدور القيادة المتبصرة الرشيدة، وتعلقت بتلك الجامعات الآمال؛ خاصة وأن عدداً منها يتمتع بإمكانيات مادية ممتازة - ولكن سرعان ما توافد على تلك الجامعات نفر من المواطنين الذين

حالفهم الحظ فحصلوا على درجة الدكتوراه؛ وانطلاقاً من دائرة العصبية الإقليمية الضيقة تم وضع هولاء الشبان فى مناصب القيادة فى تلك الجامعات بدلاً من إعطائهم الفرصة للتدرج فى السلك الجامعى حتى يتقنوا مراحله، ويتعودوا على أخلاقياته وتقاليده وقيمه، فضاعوا وضيّعوا، وبقيت تلك الجامعات إلى يومنا هذا – على الرغم من إمكانياتها المادية والتجهيزية الكبيرة – عاجزة عن القيام بدورها القيادى والفكرى والتربوى فى مجتمعاتها كل العجز.

وإن أنس لا أنسى قصة مدير شاب لإحدى الجامعات التى كان يؤمل فيها أن تحتل موقع الصدارة بين جامعات العالم العربى – الذى تولى إدارة تلك الجامعة بعد أقل من ثلاث سنوات من تخرجه – ليخلف فى ذلك ثلاثة من عمالقة الفكر في العالم العربى – يقف خطيباً فى أول ظهور له كمدير لتلك الجامعة فيخر مغشياً عليه وينقل إلى المستشفى!!! ثم يلقى حديثاً فى التلفزيون لم يتجاوز نصف الساعة ولا يكاد ينطق كلمة واحدة نطقاً صحيحاً، ولا أن يعربها إعراباً سليماً، هذا فضلاً عن افتقاره إلى صواب الفكرة، وجلاء الحجة، وحكمة التجربة، ثم بعد سنوات من التخريب الارتجالى والهدم العشوائى أسمع أنه قد قدم استقالته بعد أن أدى دوره فى مسلسل الهدم الذى تتعرض له تلك الجامعات الناشئة ليخلفه من يتم المسيرة، ويكمل المشوار!!!

وتكفى الإشارة إلى أنه فى عهد هذا المدير الشاب قارب عدد العاملين فى الجامعة من غير المسلمين ثلاثمائة بين أستاذ وأستاذ مشارك وأستاذ مساعد ومدرس لغة وإدارى وفنى، أى حوالى نصف مجموع العاملين بها. والدور التدميرى لهؤلاء الغرباء فى جامعة ناشئة فى بلد عربى مسلم لا يمكن أن يخفى على عاقل.

وأن هذا المدير الشاب وقف يوماً ليتباهى بأن متوسط العمر بين أعضاء هيئة التدريس بالجامعة قد هبط بمجهوداته إلى ٣٤ سنة – فى الوقت الذى تعتز الجامعات فى العالم بكبار أساتذتها من أصحاب التجربة الطويلة والخبرة، وتطلب

منهم الاحتفاظ بأماكنهم فى الجامعة حتى بعد سن الإحالة إلى التقاعد - . وتكفى الإشارة إلى أن مراكز تعليم اللغة الانكليزية وما تعج به مئات المدرسين من غير المسلمين أصبحت تشكل خطراً حقيقياً على الجامعة وأبنائها وبناتها فى عهد هذا المدير الهمام .

وتكفى الإشارة إلى ما تناقلته الصحافة فى هذا البلد العربى المسلم من صورة لإحدى البرقيات المتبادلة بين السياسى واليهودى العنصرى المعروف هنرى كيسنجر وزير الخارجية الأمريكية السابق، وبين أحد كبار المسؤلين فى الجامعة يرشح له فيها أسماء عدد من الأساتذة للعمل بتلك الجامعة العربية المسلمة فى ظل مديرها الوطنى الشاب وطبعا أوامر الولايات المتحدة الأمريكية لا ترد، وما خفى كان أعظم .

وصدق رسول الله ﷺ إذ يقول : «إذا ضيعت الأمانة فانتظر الساعة، قال : كيف إضاعتها؟ قال ﷺ : «إذا وسد الأمر إلى غير أهله فانتظر الساعة»[1] . وقد وُسِّدَ الأمر فى غالبية الجامعات العربية إلى غير أهله ناهيك عن مدى الدمار الذى يحدثه هؤلاء المسئولون غير المؤهلين ومن أمثلتهم مدير إحدى الجامعات العربية الناشئة الذى نشر قصيدة كلها كفر بواح، وناهيك عن الطرق التى تتم بها ترقية هؤلاء الشبان، ونوعية القرارات التى يتخذونها لجامعاتهم، وصنوف المستشارين الذين يقربونهم إليهم، والأساتذة الذين يلقون الحظوة لديهم، والقدوة التى يمكن أن يمثلوها لطلابهم!!!

ويحضرنى فى ذلك أيضاً قصة شاب من أبناء تلك الجامعات الناشئة تخرج من إحدى الجامعات الأميركية الصغيرة، ثم عاد إلى بلده ليدرس لدرجة

---

(١) أخرج الإمام البخارى عن أبى هريرة قال : «بينما النبى ﷺ فى مجلس يحدث القوم جاءه أعرابى فقال : متى الساعة؟ فمضى رسول الله ﷺ يحدث فقال بعض القوم سمع ما قال، فكره ما قال، وقال بعضهم بل لم يسمع . حتى إذا قضى حديثه قال : «أين أراه السائل عن الساعة؟» قال : ها أنا يا رسول الله . قال : «فإذا ضيعت الأمانة فانتظر الساعة» قال : كيف إضاعتها؟ قال : «إذا وسد الأمر إلى غير أهله فانتظر الساعة» . (البخارى) .

الماجستير فى جامعتها، ولما لم يكن مستواه العلمى يسمح بذلك فقد طولب بحضور عدد من المقررات قبل أن يتم له التسجيل لدرجة الماجستير، ولكنه بادر برحيله إلى الولايات المتحدة مرة أخرى حيث أتم الحصول على درجة الماجستير فى سنة، وبعد ذلك راسل الجامعة فى بلده ليتم التسجيل له فيها لدرجة الدكتوراه وهو فى الولايات المتحدة وذلك لأن كليته الصغيرة هناك ليس بها دراسات لدرجة الدكتوراه، ولما رفض ذلك الطلب على أساس أن الجامعة لا يمكنها منح الدرجة العلمية إلا لمن هم تحت إشرافها مباشرة، جادل بأن أستاذه هناك هو الذى اقترح الموضوع، ووضع إطار البحث وأشرف إشرافاً كاملاً على جزء منه، ولما لم يقبل ذلك الدفاع لوجود نفر من كبار الأساتذة بتلك الجامعة فى ذلك الوقت - عاد إلى وطنه ليتم له التسجيل لدرجة الدكتوراه، ثم يختفى ليذهب إلى جامعة عربية أخرى، ثم يعود منها بالرسالة تحت إبطه، ويجتمع مجلس القسم برئاسة عميد الكلية الوطنى لتشكيل لجنة الممتحنين للرسالة، ويطلب من الشاب الخروج من الاجتماع حتى يتم اختيار أسماء الممتحنين لرسالته فى جو من الحيدة وعدم الإحراج فيرفض الخروج، ويقال له إن ذلك تقليد جامعى معروف، فيرد قائلا: «ما لنا وللجامعات العالم، هذه جامعتنا ونحن أحرار فى تحديد تقاليدها بما يتناسب ورغباتنا !!!».

ثم نوقش موضوع استبقائه للمدة الزمنية، واتضح أنه لم يكن قد استوفى بعد الحد الأدنى للمدة الزمنية - وهو سنتان على أقل تقدير، فتطوع المتطوعون باقتراح التسجيل له بأثر رجعى، ولما كان ذلك إجراء لا يتم إلا فى حالات علمية خاصة يضطر فيها الباحث إلى تغيير موضوع الرسالة لوصول البحث إلى طريق مسدود على أن يستفيد بالنتائج المتوصل إليها فى الموضوع الجديد حسب اقتراح أستاذه المشرف على رسالته، فقد قامت الاعتراضات من بعض المخلصين من الحاضرين، ولكن سرعان ما تم ذلك بأغلبية الأصوات، وتم اقتراح تاريخ لتسجيله للدكتوراه سابق على تاريخ حصوله على درجة الماجستير، وذلك على مرأى ومسمع من الجميع!!!

ثم جاءت المأساة الأخرى، وطرحت أسماء الممتحنين فإذا بهم جميعاً ممن اشترك فى الرسالة بصورة أو أخرى، وإذا بهم جميعاً من اقتراح الطالب نفسه، وقد رد هذا الطالب المدلل بذلك على عميد الكلية حين طلب إليه الخروج من المجلس الذى كان يناقش أسماء الممتحنين لرسالته بقوله « ولماذا أخرج وأنا أعرف أسماء الممتحنين بالكامل وليس الأمر بالسر المخفى عنى!!! ولم يشفع لجانب الحق، وبصر على التمسك بالقيم. وينادى بالالتزام بالأعراف الجامعية إلا أصوات قليلة من الحضور ضاعت فى زحمة أصوات النفاق والتملق أو صيحات النعرات العصبية الإقليمية الضيقة المنتنة!!!

ودارت الأيام، ومنح صاحبنا درجة الدكتوراه وصدر قرار وزارى بتعيينه مدرساً فى تخصص يغاير موضوع رسالته، كما يغاير تخصص المشرفين عليه والممتحنين لرسالته وكيف تم ذلك؟ إنها رغبته!! نعم للأسف الشديد إن هذه هى رغبته!!! ولما كان من « شعب الله المختار » فكيف ترد له رغبة، أو يرفض له طلب!!!؟

ومن العجب أن تتولى الجامعة نشر تلك الرسالة الهزيلة بالكامل، ومنحه مكافأة مالية سخية على ذلك، وإيفاده فى ثلاث مؤتمرات علمية على وهم ما بها من نتائج!!! ثم يتقدم بها لإحدى جوائز الدولة بلا حياء أو خجل وحوله من مواكب النفاق ما يسول له ذلك ويبرره، ويأتى تقدير اللجان يلقى باللائمة على الجامعة لتحملها مسؤولية نشر تلك الرسالة دون الرجوع إلى محكمين محايدين قادرين على تقويمها التقويم العلمى السليم!!!.

وتكون المكافأة تعيين هذا الشاب الصغير السن، القليل الخبرة، المنعدم التجربة فى منصب القائم برئاسة القسم، ثم المسؤول عن الكلية بالوكالة، ثم وزيرا للتعليم العالى ثم الرئيس الأعلى لهيئة علمية مرموقة بتلك الدولة الشقيقة!!!.

وما أكثر الوكالة والنيابة فى ساحات تلك الجامعات الناشئة، وما أفظع ما ارتكبت تلك الوكالات والنيابات من حماقات، سببها الجهل الفاضح،

والتجربة الناقصة، والخبرة المنعدمة، والعقدة النفسية من كل ما هو أكبر منها، والحكم بالهوى، والتطلع إلى المناصب دون حق، والتفرقة العنصرية المذمومة، والاحتماء وراء جنسيات محددة، والجرى وراء الشهوات، والتسابق على المكاسب المادية السريعة دون أدنى حق!!!.

فهل يمكن أن تشكل هذه الكوادر الهزيلة قدوة حسنة للطلاب، أو نموذجاً يمكن أن يحتذى؟؟ لا والله بل هى سنة سيئة على مستنها وزرها ووزر من عمل بها إلى يوم القيامة !!!.

هذا قليل من كثير من المخازى والمخالفات بل الجرائم التى ارتكبت فى ساحات تلك الجامعات الناشئة، حينما وسد الأمر إلى غير أهله، وساد المجتمعات العلمية أجهل الناس، وأبعدهم عن الحكمة، وأقربهم إلى الضلال وناهيك عما يحدثه ذلك من فتنة، وما يسببه من ضلال ودمار!!!.

هذه الصورة القاتمة للنظم التعليمية المعاصرة، والمسيطر عليها من قبل الوصوليين والنفعّيين من جهة، أو أشباه المتعلمين من جهة أخرى قد أدى إلى فقدان القدوة الحسنة وهى إحدى وسائل التربية الرئيسية، وانعدامها فى إطار العملية التربوية وفى المجتمع الإنسانى على إطلاقه من أصغر دوائره وهى الأسرة، إلى أكبرها وهى الدنيا - مروراً بالمدرسة والجامعة والمجتمع والدولة - قد وصل بالناس إلى هذه الحالة المحزنة من التحلل والتسيّب والضياع، والتى تشكل إحدى الأسباب الرئيسية لأزمة التعليم المعاصر.

* * *

رابعاً : الأسبابُ النفسيَّة للأزمَة

أو فقدان الفهم الصحيح لطبيعة النفس البشرية كأساس للأزمة

وصلت الضرورات الأساسية للعملية التعليمية إلى مستوى مكلف للغاية، ويشمل ذلك المدرسين المدربين، والفنيين المهرة والإداريين المتخصصين، والمناهج المخططة بدقة، والكتب المدرسية المكتوبة بعناية، ووسائل الإيضاح المختلفة، والمكتبات الجيدة، وشبكات الحاسبات العملاقة، ومراكز الإتصال المتطورة، والمختبرات والورش المجهزة تجهيزاً ممتازاً، والنوادى الرياضية، والدراسات الحقلية المنظمة. إلخ، وعلى الرغم من ذلك كله فقد شاع المللّ وعدم المبالاة وعدم الرغبة فى التعليم بين الطلاب، كما أخذ القلق والثورة والميل إلى العنف ومعاداة السلطة وغير ذلك من السلوك غير المنضبط يتزايد بينهم بصورة مستمرة، وهذا يتضح فى العديد من حركات الرفض السلبية، والضياع، والكبت، وزيغ البصر، والعنف، والأمراض النفسية والعقلية التى تجتاح المجتمعات المعاصرة. ويعتقد أن ذلك تعبير نفسى عن معارضة الطلاب للنظم التعليمية وانعكاس لعيوبها المختلفة.

ترى مجموعة من التربويين أن الحل يكمن فى تحسين فهم الأسس النفسية للعملية التربوية وهذا مجال قد غطى حديثاً بقدر من الأبحاث تناولت التعليم، وطرقه، وأسس ذلك النفسية، السلوك التعليمى ونماذجه، استراتيجيات التعليم وأدواتها النفسية – مثل الحوافز والاحتياجات، تكوين المفاهيم والتعميمات، والتفكير المشترك وحل المشاكل، السلوك المبدع ودراسة الاتجاهات والخطط لاكتسابه، عمليات الاتصال بين الناس، دراسة السلوك المعقد، الشخصية ومفهوم الذات، أنماط التطور الفردى ونظرياته، وتطور الشخصية والنظرة الاجتماعية، إلخ – والتحلل النفسى والظروف الاجتماعية للتعلم مثل علاقة الأستاذ بالطالب،

والطالب بزملائه، والنماذج والأنماط لذلك وتأثيرها على التحصيل الدراسى، وجَوّ قاعة الدرس، ونظام المدرسة الاجتماعى وتأثيره على سلوك الطلاب، وقياس وتقييم التغييرات السلوكية، ودور كل من المعلم والطالب فى العملية التعليمية وطرق وعمليات تقييمها. وقد اقترحت حلول عدة للأزمة التعليمية المعاصرة على أساس من هذه التحليلات النفسية غير أن نتائج تطبيقها على الطلاب كانت عصياناً أكثر، وثورة أشد، وزيادة فى عدم الاستقرار.

وسبب ذلك ببساطة أن المنهج العلمى - المبنى على أساس من الملاحظة والاستنتاج أو التجربة والملاحظة والاستنتاج - الذى استخدم بنجاح فى دراسة العالم المادى وظواهره الطبيعية قد فشل فى دراسة الإنسان ومجتمعاته، وهذا مرده إلى أن العالم المادى تحكمه قوانين كونية ثابتة تحكم سلوك كل من المادة والطاقة بدقة كبيرة بينما الإنسان مخلوق ذو إرادة حرة؛ ومن ثم لا يمكن أن تحكمه رموز ومعادلات محددة، فالتعامل مع جوانب النشاط الإنسانى التى يمكن أن تقاس كما وتلخص فى أسس ومفاهيم مجردة - غير محدودة بزمان أو مكان معينين - قد أدت إلى المبالغة فى الإيمان بحتمية البناء المادى وقدرته على التأثير فى المجتمعات الإنسانية، وإهمال عوامل الارتباط الشخصى والأهداف الجماعية التى لا يمكن تحليلها بنفس الدقة العلمية. فكل إنسان هو فى الحقيقة كيان قائم بذاته؛ ومن هنا كانت التعميمات فى الدراسات الإنسانية مخطئة جداً، وكان تطبيق الأطر السلوكية المستقاة من بعض المجالات الفردية على الإنسان عامة تشكل أحد الأسباب لتدهور الإنسانية فى زماننا؛ وذلك لتعدد المتغيرات من إنسان إلى آخر، وصعوبة تطبيق أى من هذه المتغيرات أو الأطر فى كل الحالات، واستحالة وضع إطار لكل فرد بشرى، فالتباين بين بنى البشر لا يمكن ضبطه إلا بعقيدة سليمة تحكم الإنسان من الداخل وتوقظ ضميره وتنظم سلوكه كما لا يستطيع أى قانون وضعى أن ينظمه.

هذا بالإضافة إلى أن التحليل النفسى الذى يفتقر إلى فهم حقيقة الإنسان

ووضعه فى الكون ورسالته فيه لا بد أن يأتى تحليلاً ناقصاً؛ لأنه سيقتصر على قليل من الخصائص الجسدية التى لا تعكس إلا قدراً ضئيلاً من حقيقة ذلك المخلوق المكرم، ومن ثم تأتى جزئية متباينة وغير سليمة، وهذا لا يعنى أننا نقلل من قيمة علم النفس التربوى ومنجزاته كوسيلة من وسائل العمليات التعليمية ولكننا نحذر من تعميم استنتاجاته واستخدامها خارج الإطار الطبيعى لحقيقة وضع الإنسان فى الكون، ولكن كيف يمكن فهم حقيقة وضع الإنسان فى الكون دون هداية ربانية؟ هذا هو السؤال.

* * *

خامسًا : الأسبَابُ الأخلاقية للأزمَة

أو فقدان النظم التعليمية المعاصرة للتربية الأخلاقية كأساس للأزمة

يوصف التعليم المعاصر بأنه - في مجموعه - تعليم خالٍ من الأخلاق والقيم، وفى ذلك تعارض واضح مع فطرة الإنسان الذى فطر على حب مكارم الأخلاق، ودعوة إلى انتشار التحلل الأخلاقى وإلى فقدان القيم بين المتعلمين.

ففى هذه الأيام نجد القيم الأخلاقية اللازمة لوجود الإنسان الفرد قد أصبحت مفقودة بالكامل تقريباً، كذلك فإن القيم الاجتماعية التى يجب أن تحكم علاقة الإنسان بأخيه الإنسان، وبالمجتمع الذى يحيا فيه قد أخرجت عن إطارها الأخلاقى لتبقى ألفاظاً تنطقها الشفاه يساء فهمها وتطبيقها من أجل خدمة الأنانية الإنسانية والطمع الشخصى، فقد حل الخوف من المسؤولية محل الشعور بالواجب ومنها اختيار الفضيلة على أنها أمر يختار لأجله من أغلب المجتمعات البشرية ليحل محله فهم آلى للفضيلة: فقد اصبحت الأمانة هى مجرد وسيلة إلى حياة مريحة وإلى الحفاظ على الذات، وأخذت الفضيلة تتضاءل فى معناها حتى كادت هذه الكلمة أن تضيع من قاموس الناس، ولم تعد هناك حاجة لتحول أصيل من الحالة غير الأخلاقية التى لا تهتم إلا بالامور المادية فى هذا العالم إلى الاهتمام بالروح؛ بل كان الاهتمام كله بعملية الانتقال المحسوبة للمصلحة المادية الذاتية فقط، وأصبحت الاستنارة تسابق فى الجرى وراء المصلحة الذاتية ونوع من المهارة غير المنضبطة بالاخلاقيات حولت الإنسان ألى كيان أكثر أنانية، وأكثر تركيزاً على الذات، وأكثر طمعاً وجشعاً، كيان يركز على المردود المادى للحياة ويتجاهل القيم الأخلاقية، كيان فقد كل إحساس بأبسط الفضائل، وأصبح يحيا حياة مادية محضة فى ظل إطار زائف من المدنية المعاصرة.

وأصبح التربويون يرسمون صورة بشعة لفقدان القيم الأخلاقية وفقدان الرغبة الصادقة فى التقيد بها فى العلاقات العامة بين الطلاب فسادت أخلاقيات الواجب التى تؤكد على الأدب الظاهر فى السلوك، وتدعو إلى أن يعيش المرء بمبادئه الشخصية أيا كانت مستوياتها، وتهمل الحسابات المنطقية لنتائج تصرفاته ولا تحد التصرف الشخصى إلا بقيود المجتمع، وقد أدى ذلك إلى الفشل المأساوى للإنسان فى تحقيق ما يصلح من شأنه، وفقدان الثقة بالنفس، وانعدام القيم المحددة فى مجتمع هو بذاته ملىء بالشكوك؛ مما جعل الطلاب يعيشون فى محاولة يائسة للبحث عن هوية لهم، دون جدوى، وجعل الغش فى الامتحانات بين طلبة المدارس والكليات عاراً عاما. والدليل على عدم استهجان الطلاب له هو الشعار المطروح - إذا تمكنت من الغش فلا تتردد - والذى أصبح شيئاً معروفاً لكل من الإداريين وأعضاء هيئة التدريس فى مختلف مراحل التعليم، وأصبح الاهتمام بالأمانة والاستقامة فى الحياة الشخصية أمرا بعيد المنال.

وقد انعكست آثار ذلك فى انعدام الإنسانية بين الناس على مختلف المستويات -- الفردية والاجتماعية والقومية والدولية - والذى أصبح سمة من سمات عصرنا، خاصة فيما يسمى بالدول المتطورة، وبين ما يفترض فيهم أنهم متعلمون.

ومن هنا فإن الصيحة الآن هى من أجل تعليم أخلاقى لأن التعليم لا يمكن أن يكون كاملاً دون أخلاق، ولكن التساؤل الذى يطرح هنا هو أى أخلاق؟ هل هى أخلاق المصلحة والقيم المادية التى ابتدعها الإنسان لتتلاءم مع أنانيته الشخصية وتطلعاته المادية العاجلة؟ أم هى الوفاء لقيم مشتركة أساسها الخير العام، والعقلية المتفتحة المتسامحة، وجمال الهيئة والنطق، وغيرها من القيم الأخلاقية التى تطلق الإنسان من عقال ذاتيته وأنانيته وأطماعه الشخصية وتجعله يرى الأمور فى إطارها الصحيح وأبعادها السوية؟ ولكن هل يستطيع الإنسان بكل قصوره وعجزه وقدراته المحدودة أن يؤسس لنفسه مثل هذه القيم السامية، أم أنه محتاج فى كل ذلك إلى إرشاد ربانى؟ وإذا كان هذا الإرشاد الربانى موجوداً

بين أيدى الناس فما هو السر فى انصراف الناس عنه، ومجافاتهم لنهجه حتى وصلت المجتمعات والأفراد إلى هذا القدر من التحلل الأخلاقى؟

يعتقد عدد من التربويين أن التحلل الأخلاقى فى زماننا يرجع إلى سيطرة الاتجاهات المادية الصرفة على العملية التعليمية، ويرجعون ذلك إلى سيطرة العلوم البحتة والتطبيقية على الفكر الإنسانى بصفة عامة. فمنذ مطلع هذا القرن تربعت العلوم البحتة وتطبيقاتها التقنية على عرش المعارف الإنسانية، وذلك لأنها قد أدت إلى شيء من النجاح المادى، والقوة، والانتصار على الأمراض، وكشف جزء من المجهول مما أدى إلى الافتتان بمنطقها ومنهجها الذى يطالب بالعقلية المتفتحة التى لها قدرة على التصور وطاقة على التساؤل، وعلى اختبار الأفكار بالتجربة فإن لم تصمد لذلك سقطت، ومن هنا صار العلم التجريبى لا يتقبل المطلق من الأمور، ولا المعتقدات القديمة ولا الأفكار الثابتة التى لا تتغير. وفى هذا الوقت كان يسيطر على الكنيسة فى أوروبا رجال ليست لهم خلفية علمية أو فهم بمنطق المنهج التجريبى فاصطدموا برجال العلم التجريبى فى معركة مريرة من الكراهية والحقد انتهت بانتصار بالعلم التجريبى وانهيار الكنيسة ومعها الارتباطات الأخلاقية.

ولم يكن الخطأ خطأ رجال العلم التجريبى وحدهم، بل كانت مساهمة رجال الكنيسة فى ذلك أكبر، فقد انشغلوا بالصراع على السلطة ضد بعضهم البعض أكثر من انشغالهم بالدعوة إلي الله، وانصرفوا من التأكيد على أن الإنسان كائن أخلاقى بالفطرة،إلى إشعال العصبيات الدينية والمذهبية الضيقة، وتجاهلوا فضل المنهج العلمى، وذهبوا إلى صور بدائية خاطئة فى العهد القديم أرادوا فرضها بقوة السلطة الدينية على العلماء الذين اضطهدوهم وسجنوهم وقتلوهم وحرقوهم أحياء حتى انتصر العلم على الكنيسة التى انحسر دورها انحسارا ًشديداً.

أما أهل العلم التجريبى فكانوا يعتقدون فى التقدم والتغيير المستمر بينما

كان رجال الكنيسة جامدين لا يتغيرون، ولما كان العلم التجريبى قد أسس على نظرية المنفعة المادية (البراجماتية أو الفلسفة العلمية التى تقوم على اختبار صحة المفاهيم بواسطة نتائج تطبيقاتها العملية فقط)، فقد حصر نفسه فى إطار المادة مهملاً ومتناسياً جانب الروح وعالم الغيب، فإن منطقه قد اقتصر على الجانب المادى الذى لا يسمح بأى قدر من الأحكام الأخلاقية سواء كان ذلك فى تحديد واجب الإنسان الشخصى تجاه نفسه أو تجاه مجتمعه.

وعلى ذلك فقد ادعى بعض الغربيين من المشتغلين بالعلوم أن المنطق العلمى يتطلب موضوعية لا تسمح بالأحكام الأخلاقية، وهذه الموضوعية بدلا من أن تعنى حالة مثالية تسود فترة البحث فى مرحلة محددة، أصبحت عند كثير من الأساتذة والطلاب تعنى فلسفة ثابتة أو حالة ذهنية دائمة، تلغى الأخلاقية والتقيد بها فى القضايا العامة، كما دعوا إلى تصفية الحياة الثقافية من كل تحيز مقصود، وأية رائحة للدفاع عن الثقافة، وأى اعتبار للأخلاق، والقيم والدين، بدعوى أن العلوم البحتة والتطبيقية خالية من هذه القيم الروحية خلواً كاملاً، وذلك بدعوى أن المنطق عندهم يتوجه إلى ثقافة تتخطى القيم اسمها الحقيقة العلمية، وأن ولاء المشتغل بالعلوم يجب أن يكون بالدرجة الأولى إلى تلك الحقائق العلمية، وإلى مجتمع علمى هو بالنسبة له شىء فوق القوميات، وقد أدى ذلك إلى عبادة الإنسان للعلوم التجريبية، مع علمه بأنها لا يمكن أن تضىء كل جوانب الحياة الإنسانية ولا أن تقود سلوك الإنسان، وذلك لأن وسائل العلم التجريبى هى حواس الإنسان وعقله التى ثبت أنها محدودة وأن الإنسان فى تحليله العلمى محدود بنسبية مكانه (على بقعة محددة من كوكب الأرض)، ونسبية زمانه (أى عمره).

هذه الحدود تؤكد على أن العلوم التجريبية لا يمكنها إلا أن تدور فى دائرة عالم الشهادة أى العالم المادى الذى يمكن للإنسان أن يدرك ما فيه بحواسه، وأن يعقله بعقله وذلك أيضاً فى حدود إمكانيات حسه وعقله، ونسبية زمانه ومكانه.

ويتمثل قصور العلم التجريبى من جهة بفشله فى مواجهة التحديات الأخلاقية، فإن الادعاء الخاطىء بأنه لا توجد حدود أخلاقية تقف فى سبيل البحث العلمى قد أفسد رسالة العلم النبيلة، وأدى إلى قدر هائل من شقاء الإنسان ومعاناته، ومن جهة أخرى فإن العلوم التجريبية لم تستطع أن تقف فى وجه صور الظلم الاجتماعى المختلفة أو القوى الحاكمة المستبدة المتسلطة فى مختلف جنبات الأرض وذلك بدعوى أن الانتصار للحق وكبح جماح القوى السياسية هو فى الحقيقة التزام أخلاقى لا يمكن أن يقنن بواسطة المنهج العلمى التجريبى الذى جرد نفسه من أية قيم أخلاقية، ولا يمكن للإنسان أن يجابه التحدى الأخلاقى فى عصرنا الحاضر إذا استمر فى البحث عن مبررات تجريبية للقيم، فخلال القرن العشرين ساد الاعتقاد الخاطىء أنه لا سبيل لتقنين القيم الأخلاقية علمياً بمعنى أن العلوم التجريبية لا تستطيع التمييز بين الخير والشر، وعلى ذلك فإن المجتمعات المعاصرة قد تركت نهباً لموجة من التحلل الأخلاقى الذى افتقر فيه كل من الفرد والمجتمع إلى قيم عليا تحكمهما، وفى محاولة للتوفيق لجأ بعض رجال الكنيسة إلي تحويل الضرورات الأخلاقية إلى ضرورات ثقافية، فاختلط التعصب الدينى بالتعصب لأوضاع اجتماعية معينة، وبدت القوانين الأخلاقية كعقبات أمام عملية التغيير الاجتماعى، ونشب الصراع بين المجتمع وبين قيمه، وفى هذا الصراع سقطت القوانين الأخلاقية وهجرت الأديان من قبل المنادين بضرورة التغيير الاجتماعى، وتحلل الإنسان من جميع الضوابط السلوكية والأخلاقية بدعوى احترام الحرية الشخصية وتحللت المجتمعات من العديد من الأعراف الطيبة والعلاقات الإنسانية النبيلة بنفس هذه الدعوى الباطلة، وصار الفرد من الناس يرى الجرائم تقترف والأعراض تنتهك على قارعة الطريق ولا يحرك ذلك فيه غيره، ولا يثير انتقادا.

وأصبحت الصيحة فى الدول الصناعية الكبرى اليوم هى من أجل قيادة عامة راشدة، مدركة للأهداف القومية، تصدر بإلحاح شديد عن يأس الناس من

إصلاح هذا الضعف الأخلاقى الذى يتخلل المجتمعات الإنسانية نتيجة لسيادة نسبية المعارف؛ فطبيعة تلك النظرية تؤكد أننا لم نعد واثقين من قدرتنا على الاتصال بالقيم المجردة وبالصدق المجرد عن طريق عقولنا وضمائرنا، وبالتالى فنحن لا نستطيع أن نقرر ما هو الصواب لنفعله وسط التعقيدات والتغيرات السريعة فى حياتنا المعاصرة، هذه النسبية فى علاقات الأشياء قد هزت ثقة الناس فى أن معتقداتهم الشخصية يمكن أن تهبهم بصيرة يسترشدون بها فى حل المشاكل المتجسدة فى مجتمعاتهم، وحتى العلماء أصبحوا يستشعرون أن حقائقهم العلمية التى قد طورت بدقة ليست صالحة لإصدار حكم أخلاقى واحد. وهذا يوضح بجلاء حاجة الإنسان إلى علم أكبر من علمه فى حل مشاكله الرئيسية ولا يمكن أن يتأتى ذلك إلا عن طريق رسالة سماوية تأتى من خالق الكون والإنسان الذى هو أدرى بحقيقة كل فرد من أفراد خلقه.

كذلك فقد أدى تفتيت المعارف الإنسانية إلى انفصام واضح بين العلوم والفلسفة لدرجة أنه قد أصبح مقبولاً اليوم أن لا يكون الفيلسوف بالضرورة عالماً ولا العالم فيلسوفاً، ولم يبق يربط العلم بالفلسفة إلا تعبير « دكتوراه الفلسفة » كتذكار للصلة القديمة بين هذين المجالين من مجالات المعرفة الإنسانية في الماضى غير البعيد، كذلك فقد أصبح من محض المصادفة أن يكون العالم التجريبى متصفاً بشيء من الحكمة (مهما كان مبدعاً فى تخصصه)، ولكن على الرغم من ذلك هيىء الناس نفسياً للسجود للعلم والركوع لاستنتاجاته. ونتيجة لافتقار العلم التجريبى إلى الحكمة شاع بين المشتغلين فيه ادعاء بالكفر بالله أو بالشرك به، والإنكار للغيب والحيرة والخوف من كل شيء والمناداة بالشعار الخاطىء بأن العلم لا يتقيد بالدين، ولا بالأخلاق، ولا بالقيم بل يقف منهما موقفاً متعادلاً، وهذا مناقض لفطرة الأشياء حيث إن العلماء التجريبيين هم أولى الناس بخشية الله، لأنهم أكثر الناس اطلاعاً على إعجازه فى خلقه!! فالعالم التجريبى يشتغل بالبحث عن طبائع الأشياء وخصائص كل من المادة والطاقة وأنماطهما وسلوك

المخلوقات وحوافزهم في محاولة لتفهم الإنسان صنع الله فى نفسه وفى خلق كل ما حوله وليكتشف نظاماً رائعاً فى إبداعه حيثما وجه ناظريه فى هذا الكون. ولكن على النقيض من ذلك فإن فضائل التأمل والعالمية قد فقدا من البحث العلمى الذى أصبح يتكيف بالمكاسب المادية أكثر من تكيفه بالتأمل والجرى وراء الحقيقة المجردة فقد أصبح التقدم فى أبحاث الطب عادة ما يرتبط بالاتجار به. وفى مجال الرياضيات يلاحظ المرء بدهشة أن ابتداء نظريات الاحتمالات التى تعتمد عليها الحسابات المعاصرة قد وجدت فى مجال المراهنات، كما أن اكتشافات باستير قد حفزتها أرباح تجار الخمور الفرنسيين، وأنا لا أنكر روعة النتائج على المدى الطويل ولا أقول إن كل البحوث العلمية تبدأ وضيعة ولكنى ألاحظ فقط أن الأبحاث عادة ما تتكيف بالأهـداف التى تحقق أكبر عائد مادى ممكن أكثر من تكيفها بالتأمل، وربما كان من أوضع الحوافز فى البحث العلمى نظرية «انشر أو أهلك» التى أصبحت سائدة فى جامعات المفروض فيها أنها أنشئت لتكون موهوبة للذكاء المجرد، ولكن البحوث العلمية أصبحت وضيعة فى أهدافها ووضيعة فى وسائلها ودوافعها ووضيعة فيما تصل إليه من نتائج.

* * *

سَادسًا : الأسبَابُ الدِّينية للأزمَة

بمعنى فقدان التربية الدينية الصحيحة

وتخلى المجتمعات المعاصرة عن الدين كأساس للأزمة

يعتقد بعض التربويين أن من الأسباب الرئيسية لأزمة التعليم المعاصر فقدانه للتربية الدينية، وتخلى المجتمعات المعاصرة - بصفة عامة - عن الدين وليس ثابتاً إن كان تباعد النظم التعليمية عن المنهج الدينى فى التربية هو السبب فى هجر المجتمعات الحديثة للدين أو أن العكس هو الصحيح، غير أن السمة الغالبة على التعليم المعاصر هى أنه تعليم غير دينى - دهرى، عالمانى منكر أو متجاهل للدين - لا يؤمن إلا بالمدرك المحسوس فقط، وينكر أو يهمل كل ما هو غيبى؛ ولذلك يدور بالعملية التربوية، وبمعالجاته للأنشطة البشرية الأخرى، بل بالمعارف الإنسانية - التى يقوم على نقلها من جيل إلى جيل - فى حدود الأطر المادية للأشياء فقط وهذه - على أهميتها - لا تشكل إلا جزءاً يسيراً من الحقيقة الكلية، ومن هنا أتت المعارف المتداولة فى معاهد العلم المعاصرة قاصرة منقوصة وأتت العملية التعليمية عاجزة عن القيام بدورها التربوى؛ وذلك لأن دورانها فى الأطر المادية الضيقة جعلها تقصر اهتماماتها على هذه الحياة الفانية، وتنسى أو تتناسى أن من ورائها حياة أخرى خالدة هى أولى بالعمل لها والجهاد من أجلها . وهذا التحديد الضيق أرغم نظم التعليم المعاصر على الجرى وراء المكاسب المادية، وتجاهل الحقيقة الواقعة أن المادة فى حياة الناس وسيلة وليست غاية، وأن هذه الوسيلة لا يمكن لها وحدها أن تحقق للإنسان أى قدر من السعادة!!! وهذا التحديد للعملية التعليمية فى الأطر المادية وحدها دفعها إلى وضع أطر مادية بحتة لضبط السلوك الإنسانى، ولكنه تغافل عن أن الإنسان مخلوق عاقل ذو إرادة، وأن إرادته إذا لم يحكمها من الداخل ضمير حىّ، فلا سبيل لكل القوانين الوضعية إلى تنظيم سلوكها . . .، وأن هذا الضمير إذا لم يؤمن بأن الإنسان

محصّية عليه أنفاسه وحركاته وسكناته، وأنه محاسب على كل عمل يعمله، وكل كلمة يتفوه بها، وكل خطوة يخطوها، وأنه مسئول عن كل لحظة يحياها، وكل علم يتعلمه، وكل مال يكسبه أو ينفقه لا يمكن أن يكون ضميراً حياً يقيم من الإنسان على نفسه رقيباً!!!، وأن هذا الضمير ينمو مع الإنسان، فإذا لم يتعهد من الصغر بوسائل إحيائه فإنه يموت، وإذا مات مات صاحبه ولو عاش لعشرات السنين من بعده، ووسائل إحيائه وإحياء الإنسان عامة تتلخص فى التربية الصالحة القائمة على فهم الإنسان لحقيقة رسالته فى هذه الحياة عبدا لله، مكلفا بعبادته – تعالى بما أمره، ويحسن القيام بواجبات الاستخلاف فى الأرض بعمارتها وإقامة عدل الله – تعالى – فيها.

ومن وسائل هذه التربية الصالحة الدعوة المستمرة الذكية الواعية اللطيفة إلى الإيمان بالله – تعالى – وحسن عبادته، وإلى معرفة الحق والتواصى به، وممارسة العمل الصالح والتعاون عليه، والتعود على الخلق القويم والالتزام بقيمه، وأن التربية الصالحة دوما تدعو إلى اكتساب العلم النافع الذى يدعمه الإيمان الصادق، والعمل الصالح الدؤوب المنظم الذى يحيطه سياج من الخلق القويم.. وأن غرس ذلك فى النفوس الناشئة يحتاج إلى القدوة الحسنة الملتزمة التى بدونها لا يمكن للتربية الصالحة أن تتم.

ولما كانت النظم التعليمية المعاصرة – فى غالبيتها – تفتقر إلى كل ذلك.. فإنها لم تعد تربية بالمعنى المحدد للكلمة، بل أضحت مجرد وسيلة لنقل المعلومات أو للتدريب على قدر من المهارات ومنح عدد من الشهادات بذلك. وهذا هو السر فى أن الأنانية والمبالغة فى الإحساس بالذات، والتردد والخوف من الارتباط بأية قيم أخلاقية أو دينية قد أصبح من سمات المعاهد التعليمية المعاصرة وخريجيها لا يفترق فى ذلك معهد عن معهد، ولا طالب عن أستاذ... ولا أستاذ عن إدارى، وهذا هو سبب أزمة التعليم التى نواجهها فى هذا العصر إن لم يكن السبب المباشر لكل الأزمات التى يعيشها إنسان اليوم.

فمن البدهيّ أن التعليم يجب أن يضيء حياة الطالب؛ وذلك بتعريفه بذاته، ورسالته فى هذه الحياة، وكيفيات تحقيقه لها، والغاية من وجوده فيها، وبمصيره من بعد هذه الحياة، كما يجب أن ينظم التعليم حياة الطالب بتعويده على قبول القيم الأخلاقية والضوابط السلوكية الفردية والجماعية - لا فى إطار مدرسته وأسرته والمجتمع الذى يحيا فيه فحسب، بل والدنيا كلها، ومع الناس على تعدد ألوانهم وأشكالهم وأفكارهم ومعتقداتهم ومواطنهم؛ وذلك لتمكين الطالب من مواجهة مصاعب الحياة، ومشاكل الوجود الإنسانى ذاته، والتصرف على أسس الخير والصلاح فيه، وهذه أمور لا يمكن للعقل البشرى وحده أن يحيط بها، أو أن يقنن لها، بل هو محتاج فى كل ذلك إلى علم أكبر من علمه وإدراك أشمل من إدراكه، وقدرة فوق قدرات عقله وحسّه. وهنا تبرز حاجة الإنسان إلى رسالة السماء، ويتضح مدى الضرر الذى أصاب المجتمعات الإنسانية بصفة عامة، ومراكز التعليم المعاصر بصفة خاصة نتيجة لتخليها عن الدين، وتحللها من الارتباط بنهجه وقيمه وأخلاقياته وضوابطه.

وهنا أيضاً يكمن السر فى بروز الدعوة إلى العودة للتربية الدينية من جديد فى أغلب مراكز التعليم المعاصر على الرغم من انقسام رجال التعليم حيال هذا الأمر بين مؤيد ومعارض، ومنهم من تؤرقه موجة التحلل الدينى والأخلاقى التى تجتاح مدارس ومعاهد وجامعات اليوم والأخطار الرهيبة التى تتهدد العالم بأسره من وراء ذلك، وحالات البؤس واليأس والشقاء والضياع التى تطبق على مختلف مجتمعات البشرية، ومن يؤمن - عن تجربة - بعجز التعليم المنسلخ من الدين عن القيام بالدور اللازم لبناء الإنسان.

وفى معارضة ذلك الاتجاه يرى التربويون أن التعليم فى أوروبا كان فى بادىء الأمر بيد الكنيسة وتحت هيمنتها...، ولم يستطع هذا التعليم الكنسى أن يحقق للإنسانية سعادتها المنشودة، ولا للعلم حريته وانطلاقه، بل وقف حجر عثرة فى سبيل أى تقدم علمى أو تقنى أو إنسانى، وسجن العقل البشرى وأعاق إبداعه، وقاوم البحث العلمى التجريبى واضطهد علماءه، وحاول فرض العديد

من الآراء الخاطئة فى سفر التكوين عليهم، وساند حكم الطغاة والجبابرة والمفسدين فى الأرض، واستغل الناس واستخف بعقولهم، وأصدر صكوك الغفران، ونصر الباطل على الحق أينما كان، وأعان الظالم على المظلوم، وأهدر كرامة الإنسان، وسفك الدماء وأشعل الحروب!!! وبإيجاز شديد فشل هذا «التعليم الكنسى» فى تخريج الإنسان المثقف الذى يفهم ذاته، ويعى حقيقة دوره فى الحياة، فانتقلت مسؤولية التعليم من الكنيسة إلى الحاكم، وكان ذلك بداية التعليم المدنى المنسلخ من الدين، والمتنكر لهدايته والذى تبدل القساوسة والكّهان فيه بالسلطات السياسية والعسكرية والصناعية والاقتصادية. والتى تمثل القوى المتحكمة فى التعليم المعاصر.

وهنا يبرز تساؤلان هامان هما:

- إذا كان التعليم الكنسى قد فشل فى الاستمرار بالعملية التعليمية داخل إطارها الصحيح فهل يعنى ذلك فشل التعليم الدينى؟
- وما هو المقصود بالتعليم الدينى؟

وللإجابة على هذين السؤالين الهامين نورد ما يلى:

(أ) هل فشل التعليم الدينى فى رسالته؟

يعرف «الدين» بأنه مجموعة من المعتقدات والعبادات ودساتير الأخلاق وضوابط السلوك التى يؤمن بها ويمارسها نفر من الناس، لهم فلسفتهم الخاصة فى الحياة والتى غالباً ما تنطلق من نظرة عقائدهم إلى حقيقة الإنسان والكون والحياة... أما الدين بمعناه القرآنى فهو النظام السماوى الكامل الشامل لحياة البشر كافة (عقيدة وعبادات وأخلاقاً ومعاملات) وذلك بالنسبة لهم أفراداً ومجتمعات، وشعوباً وأمماً وعوالما، فى مختلف العصور، وعلى مر الزمن وذلك انطلاقا من الإيمان بوحدانية الخالق - سبحانه وتعالى - الذى علم أبينا آدم - عليه السلام - لحظة خلقه حقيقة ذاته، وتفاصيل رسالته فى هذه الحياة، وحتمية مصيره من بعدها، وعلم آدم بنيه، وكلما عاشت البشرية فى نور الهداية الربانية سعدت وأسعدت. وكلما خرجت عليها ضلت وأضلت وعاشت البشرية فى

موجات من المد والجزر، فأرسل ربنا - تبارك وتعالى - مائة وعشرين ألف نبى لهداية خلقه، واصطفى من هذا العدد الكبير من الأنبياء ثلاثمائة وبضعة عشر رسولا تكاملت رسالاتهم جميعا فى بعثة الرسول الخاتم - صلى الله وسلم وبارك عليه وعليهم أجمعين - ولذلك تعهد ربنا - جلت قدرته - بحفظها، فحفظت فى القرآن الكريم وفى سنة خاتم الأنبياء والمرسلين - ﷺ - ولذلك قال ربنا - وهو أحكم القائلين: ﴿ **إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الإِسْلامُ وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلاَّ مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ وَمَن يَكْفُرْ بِآيَاتِ اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ** ﴾ [آل عمران: ١٩]. وهذه الآية الكريمة تؤكد أن كل نبى وكل رسول قد بعث بالإسلام وإن اختلفت تفاصيل التشريع من رسالة إلى أخرى باختلاف الأزمنة والأماكن، كما تؤكد على ضرورة الدين لاستقامة الحياة على الأرض ولضبط سلوك الناس عليها؛ وذلك لأن الحياة مليئة بالغيبيات المطلقة التى لا سبيل للإنسان فى الوصول إلى شىء منها إلا عن طريق الهداية الربانية، ومن هذه الغيبيات فهم الإنسان لذاته، ولعلاقته بخالقه، وكيفية عبادة هذا الخالق العظيم، ومعرفة الإنسان بطبيعة رسالته فى هذه الحياة، وكيفية تحقيقها على الوجه الذى يرضى الله، ومنها حاجة الإنسان إلى دستور أخلاقى يحكمه وإلى ضوابط سلوكية تحدد علاقاته بالآخرين والتاريخ يؤكد لنا عجز الإنسان عن وضع ضوابط أخلاقية وسلوكية لنفسه. ومن هنا كانت حاجة الإنسان إلى الدين، بياناً ربانيا خالصا فى أمور العقيدة والعبادة والأخلاق والمعاملات لا يداخله أدنى قدر من التصورات أو المداخلات البشرية. وهذا شمول يعجز البشر قاطبة عن الإحاطة به، لأن نظام الحياة الشامل الصالح لكل زمان ومكان،لا يمكن أن يكون إلا من صنع الخالق العظيم الذى لا تحده حدود، ولا يخفى عليه شىء فى الأرض ولا فى السماء والذى وسع كل شىء علماً وعلى ذلك؛ فلا يمكن لمعتقد من المعتقدات، أو لمثالية من المثاليات أو لمذهبية من المذهبيات أن تسمى ديناً إلا إذا كانت من صنع الخالق - سبحانه وتعالى - وكانت خالية من أى عبث إنسانى مهما تضاءل، كذلك لا يجوز للناس أن يدينوا لنظام من وضع البشر حتى لو اختلط برسالة من رسالات

السماء؛ لأن العمل البشرى بطبيعته متسم بالقصور والنقص والتناقض والبعد عن الكمال – ومهما تضافرت من أجله الجهود – وعلى ذلك فإنه إذا اختلط برسالة سماوية أخرجها عن إطارها القدسى، وهبط بها إلى مستوى الأعمال البشرية فلم تعد تصلح ديناً، ومن ثم لا يجوز إطلاق اسم الدين عليها. ولذلك قال ربنا – تبارك وتعالى –:

﴿ **وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلامِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ** ﴾ [آل عمران: ٨٥].

وهذا الدين السماوى الذى يعرفه القرآن الكريم لنا باسم «الإسلام» قد أرسل به عدد من الأنبياء والمرسلين ابتداء بأبينا آدم عليه السلام الذى علمه ربه فقال: ﴿ **وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلائِكَةِ فَقَالَ أَنبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلاءِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ* قَالُوا سُبْحَانَكَ لا عِلْمَ لَنَا إِلاَّ مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ** ﴾ [البقرة: ٣١، ٣٢].

وانتهاءً بنبينا محمد عليه الصلاة والسلام الذى أدبه ربه فأحسن تأديبه، وجعله خاتماً للأنبياء والمرسلين (صلى الله وسلم وبارك عليه وعليهم أجمعين).

فمنذ اللحظة التى خلق فيها أبونا آدم – عليه السلام – علّمه الله سبحانه وتعالى أن الإسلام هو النظام الربانى الشامل للحياة، وعلّم آدم من شهد من بنيه وأحفاده هذا الدين القيم، فعاشوا به فترة من الزمن، ثم انحرفت سلالاتهم عنه وخرجت عليه، وساءت بهم الأحوال حتى أصبحت الحاجة ملحة إلى رسالة فأتت برحمة من الله نوراً وهداية من ذات المصدر الربانى وعلى نفس النهج الإسلامى، وتكررت الصورة، وتكرر الأنبياء والمرسلون يحملون نفس الرسالة إلى البشرية فى مختلف الأماكن والعصور، ﴿ **إِنَّا أَنزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا** ...... ﴾ [المائدة: ٤٤].

حتى تكاملت هذه الرسالات السماوية كلها فى دعوة خاتم الأنبياء والمرسلين سيدنا محمد ﷺ التى دعا إليها الناس كافة.

ولقد قاوم الضعف البشرى رسالة السماء بالوقوف فى وجهها ورفضها تارة، وبقبولها ثم الانصراف عنها بعد أن يرفع حاملها إلى ربه تارة أخرى، وبإفسادها بالعمل البشرى الذى يدخلونه عليها حتى يخرجوها من إطارها الربانى تارة ثالثة، وبذلك تتحول رسالة السماء إلى اجتهاد بشرى صرف فتفقد نورها الربانى وكمالها وشمولها وقدسيتها، وبالتالى تفشل فى هداية الناس وتربيتهم، وفى تنظيم شؤونهم والفصل فى أمورهم، فيكون ذلك مدعاة لخروجهم عليها والكفر بكل معطياتها وبالتالى خروج الناس من عبودية الله الواحد القهار إلى عبودية نفر منهم، وتتردى بهم الأوضاع حتى تصبح الحاجة ماسة إلى رسالة أخرى، فيمّن الله سبحانه وتعالى على البشرية برسول يحمل نفس الرسالة، ويدعو الناس إلى الإسلام من جديد.

ولقد ظل الحال كذلك... الإسلام والجاهلية يتبادلان البشرية حتى قيض الله تعالى لها خاتم الأنبياء والمرسلين الذى تكامل الإسلام فى رسالته، ولذلك تعهد الله سبحانه وتعالى بحفظ تلك الرسالة بعهد قطعه على ذاته العلية - ولم يقطعه لرسالة سابقة أبدا - فقال - وقوله الحق -: ﴿**إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ**﴾ [الحجر: ٩].

انطلاقاً من ذلك فإن ما يسمى باسم «الأديان السماوية» اليوم - فيما عدا رسالة سيدنا محمد ﷺ - ما هى إلا مذهبيات وضعية اختلط فيها الإسلام الصافى - كما نزلت به الرسالات السماوية السابقة - بكثير من الفكر البشرى، والفلسفات الوضعية، فانحرفت عن النهج الربانى وفقدت هداه، ومالت عن الصراط المستقيم وتفرقت خطاها عنه!!!. ولا غرابة فى ذلك؛ فأصول كتبها السماوية قد فقدت كلها، ولم يبق بين أيدى الناس منها إلا ذكريات ممسوخة، ومشوهة، ومحرفة عنها نقلت شفاها عبر عدة قرون من الآباء للأبناء ومن الأجداد للأحفاد، وحينما فكروا فى تدوينها فعلوا ذلك بلغات تختلف كلية عن اللغة الأصلية التى نزلت بها كل رسالة من هذه الرسائل فى غيبة كاملة من الرسول الذى تلقاها وبأيدى مجهولين ليسوا بأنبياء ولا بمرسلين فملأوها تحريفا وتبديلا

وتزييفا مما أدى إلى انصراف غالبية المثقفين عنها، وبانصرافهم عنها تخلو عن فكرة الدين بصفة عامة، ولكن لما كان الإنسان مخلوقاً متديناً بالفطرة فقد لجأ نفر من المفكرين إلى تأسيس عدد من المذهبيات التى قامت كلها على أساس من الفكر البشرى الخالى من الدين، أو المتجاهل له مثل الشيوعية، والرأسمالية، والاشتراكية، والنازية، والفاشستية، والوجودية وغيرها؛ مما أشقى الناس وأتعسهم، وأوصلهم إلى ما هم فيه من حيرة وضياع وضلال..!

ومن سوء حظ الناس فى هذا العصر أن العالم الإسلامى كان قد تعرض إلى شيء من التمزق فى القرنين الأخيرين بصفة عامة، ولقد أدى ذلك التمزق إلى الهزيمة العسكرية ووقوع معظم بلاد المسلمين فى قبضة دول استعمارية، دهرية، دنيوية تتظاهر بدين كله شرك وضلال، كارهة للإسلام والمسلمين؛ ولذلك احتلت بلاد المسلمين من أجل نهب ثرواتهم، وتغريب أبنائهم فى محاولة لطمس معالم الإسلام، وإبعاد المسلمين عن دينهم الصحيح، وذلك بالهجوم المباشر وغير المباشر، على هذا الدين الخاتم الذى لا يرتضى ربنا من عباده ديناً سواه، ثم بمحاولات حصر فكرهم فى زاوية محددةمن زوايا الدين مثل العبادات فقط، أو بالدس عليهم تحت شعارات مشركة مزيفة، تدّعى لنفسها صلة بالإسلام مثل القاديانية والبهائية والعلوية وغيرها، أو بالتشكيك عن طريق الفلسفات المادية والوضعية المنحرفة - كالعمل على نشر الشيوعية أو الوجودية بين الناس -، ثم بتأسيس نظم التعليم والاقتصاد والسياسة والتشريع والاجتماع على أساس من المفاهيم المادية المنكرة للدين، وبخلق عداوات مفتعلة بين نظم الحكم التى نصبتها القوى المستعمرة وبين المنادين بتطبيق الإسلام نظاماً شاملاً للحياة، وتحكيمه فى كل أمر من أمورهم؛ مما ساعد على إقصاء الإسلام فى دوله عن كل شيء إلاّ عن قلوب الناس.

أما المعتقدات التى اختلطت فيها رسالة السماء مع الفلسفات الوضعية والتزيّد البشرى الذى أخرجها عن إطارها الصحيح ومنها ما صاغه كل من أتباع

موسى وعيسى عليهما السلام تحت اسم اليهودية والمسيحية على التوالى. واليهودية تقوقعت فى عقيدة مغلقة قائمة على الادعاء الباطل بأنهم شعب الله المختار، وأبناؤه وأحباؤه، وانطلاقا من هذا الوهم قامت تلك العقيدة اليهودية على العنصرية البغيضة، والأنانية المحضة، والاستعلاء الأخرق، والكراهية لكل الناس، والحقد عليهم جميعاً، واستباحة دمائهم وأموالهم وأعراضهم، واعتبار ذلك تعبداً وقربى إلى الله!! واندفعت بذلك كله لتجعل من اغتصاب أرض فلسطين بالقوة، وتشتيت أهله باستخدام كل الوسائل الهمجية وغير الإنسانية، قضية دينية، ومشكلة أراقت فى سبيلها بحار الدماء وأزهقت مئات الآلاف من الأرواح، وكانت ولا تزال تهدد العالم كله بالحرب والدمار، وذلك انطلاقا من تعاليمهم الدينية المحرفة.

أما المسيحية المعاصرة فقد قصرت دورها علي الرهبانية والكهنوت، والأناشيد والموسيقى، والترانيم والمواعظ المختلفة، ونسيت قضايا الناس الملحة، فهجرها معظم أتباعها، وتبنوا العديد من المذهبيات الوضعية البعيدة كل البعد عن رسالة السيد المسيح؛ مما ساعد على تجاهلها واستمرار ابتعاد الناس عنها، وقد أدى فشلها فى العالمين الغربى والشرقى، وإنحسارها انحساراً مخجلاً هنا وهناك، إلى انطلاقها إلى أراضى العالم الثالث وما يعرف باسم الدول النامية مستغلة حاجة الناس، وفقرهم، ومرضهم، فتفرض عليهم المسيحية ثمناً لدواء يتقاضاه مريضهم، أو لقمة عيش يتبلغ بها جائعهم، أو كسوة يكتسى بها عاريهم أو خيمة تأويه، وليس ما تقترفه الكنيسة - بمختلف مللها ونحلها اليوم - فى مختلف دول العالم بغائب عن الأذهان؛ بل وصل ببعض هؤلاء المشركين التبجح إلى حد إقامة الإذاعات والقنوات الفضائية، والمواقع على شبكة المعلومات الدولية وغير ذلك من وسائل الإعلام المقروءة والمسموعة والمرئية لمهاجمة الإسلام العظيم، ورسوله الكريم، وقرآنه المجيد، وكبار علمائه ورموزه بأقلام وألسنة حثالة من حثالات الناس أمثال الجاهل المدعو زكريا بطرس وهو شيطان من شياطين الأرض، وحشرة من حشراتها القذرة يدلل بكذبه على نفاقه وجهله وقد فر هاربا من مصر ليبيع نفسه

وعرضه وعقله ودينه لحفنة من عملاء المخابرات الصهيونية والصليبية العالميتين من أجل ثمن بخس دراهم معدودة سينفقها فى الدنيا ومصيره إلى نار جهنم وبئس المصير، هو وأمثاله من المرتزقة الضالين المشركين. والشيطان زكريا بطرس - وأمثاله كثيرون - قد أغنانا القرآن الكريم عن الرد عليهم وذلك بقول ربنا - تبارك وتعالى وهو أعلم بهم : ﴿ ... **إِنَّا جَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِن تَدْعُهُمْ إِلَى الْهُدَىٰ فَلَن يَهْتَدُوا إِذًا أَبَدًا** ﴾ [الكهف: ٥٧].

أما معتقدات جنوب شرقى آسيا المتعددة - مثل الهندوكية، والكونفوشيوسية، والبوذية، والشنتووية، والطاوية، والزرادشتية وغيرها - فقد انعزلت فى أطر جاهلية بعيدة عن واقع الحياة، ولسنا نعلم إن كانت هذه المعتقدات لها أصول سماوية قديمة، أم أنها مجرد اجتهادات فردية محضة مبنية على ما تجمع لدى واضعيها من تجارب غير أنها قد أثبتت فشلها فى إدارة أمور أتباعها فهجروها وأقاموا حياتهم على أسس من الفلسفات والنظم الوضعية. ومن هنا بدأ الناس فى الانصراف عنها، والانفضاض من حولها فيما عدا استخدامها كنوع من أنواع الهوية.

كذلك لا يزال فى كثير من الأماكن المنعزلة من العالم بعض العقائد الوثنية البدائية الجاهلة؛ وهذه تتناقص باستمرار مع تقدم مجتمعاتها، واتصالها بالعالم المتحضر صناعيا وماديا.

هذا التحليل يلخص موقف العالم من الدين فى النقاط التالية:

(١) تخلى أهل الكتاب فى الوقت الحاضر عن رسالاتهم السماوية - التى هى فى حقيقتها الإسلام - واتبعوا خليطاً من الفكر البشرى وبعض الحق مما جاء فى رسالة السماء إليهم، وقد أدى ذلك إلى انصرافهم عن الدين، وتبنى نظم وضعية مغايرة لفكره، مناهضة لفلسفته وعقائده وأصوله.

(٢) تقوقع معتقدات جنوب شرقى آسيا فى أطر جاهلية بعيدة عن واقع الحياة، وبالتالى بقيت بعيدة عن حكم المجتمعات التى تسود فيها على الرغم من كثرة المنتمين إليها عددا وهوية.

(٣) تفشى الدنيوية أو الدهرية أو البعد عن الدين فى أغلب المجتمعات المعاصرة إما عن جهل، أو فساد، أو عن انقياد للشهوات.

(٤) فرضت على معظم دول العالم الإسلامى خلال القرن الحالى بصفة خاصة قيادات تحكم بغير الإسلام، وتعادى المنادين به نظاماً شاملاً للحياة، وتضطهد كل المطالبين بتطبيقه وتحكيمه؛ بل وبذلت ولا تزال تبذل جهودا مضنية من أجل إقناع السواد الأعظم من أبناء الإسلام بالاكتفاء من هذا الدين العظيم بالجوانب التعبدية فقط مسخرة فى ذلك كل وسائل الإعلام والتعليم.

من ذلك يتضح أن فشل التعليم الكنسى في الاستمرار بالعملية التعليمية لتحقيق أهدافها النبيلة لا يمكن أن ينسحب على التعليم الدينى فالدين عند الله الإسلام، والتربية الإسلامية قد أثبتت – بالتجربة – أنها أكمل النظم التربوية قاطبة، لأنها تتبع منهج الله الذى خلق الإنسان والكون والحياة، وهو سبحانه أدرى بمخلوقاته، وبطبائعهم وإمكانياتهم، وبالتالى بأفضل الوسائل لتربيتهم. وقد تمكن المسلمون عبر حضارتهم التى استمرت لأكثر من عشرة قرون وإلى عهد قريب من تأسيس نظم تعليمية إسلامية ناجحة استطاعت أن تربى أجيالاً من أصحاب العقيدة السليمة، والإيمان الصادق، والأخلاق الحميدة، والسلوك النبيل، والعلم والمعرفة الحقة، وقد استطاع هؤلاء استيعاب كل المعارف المحيطة بهم والسابقة عليهم وغربلتها بمعايير الإسلام وإعادة صياغتها من هذا المنطلق الإيمانى الصحيح، والإضافة إليها إضافات هائلة أصيلة فى مختلف مجالات المعرفة من العلوم البحتة والتطبيقية إلى مختلف الفنون والآداب والتشريع، و علوم الاجتماع والفلسفة، مما يعتبر المصدر والمنطلق الحقيقى للنهضة العلمية والتقنية المعاصرة، والأساس الحقيقى الذى بنى عليه الغرب حضارته المادية الحالية.

كذلك استطاع نتاج التربية الإسلامية من الرجال والنساء تأسيس مجتمعات إنسانية – على مختلف المستويات من الأسرة إلى الدولة وإلى العالم بأسره – قائمة على الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، وعلى التصديق بضرورة العمل الصالح، والتواصى بالحق، والتواصى بالصبر. وتمكنت

التربية الإسلامية من تخريج رجال ونساء استطاعوا أن يقودوا العمل الإنسانى فى مختلف مجالات الحياة، وأن يضربوا للناس المثل الحية فى كيف تكون القدوة الحسنة، وكيف يكون الإنسان الربانى جديراً بخلافة الله فى الأرض.

وإذا أردنا أن نعيد للمجتمع الإنسانى الحائر اليوم هداه فإن علينا أن ندعو البشرية كافة، والمسلمين خاصة أن يعودوا إلى دين الله إلى الإسلام من جديد كما تكامل فى القرآن الكريم وفى رسالة خاتم النبيين؛ فالقرآن هو الكتاب السماوى الوحيد الموجود بين أيدى الناس اليوم محفوظاً بنفس اللغة التى أوحى بها دون أدنى تحريف أو تبديل أو تغيير، وإذا طلب الناس الهداية الربانية، فلا يمكن أن يجدوها فى سواه؛ وذلك لأن الإنسان محتاج دوما إلى الهداية الربانية فى كل شيء خاصة فى أمور الدين بركائزه الأربع الأساسية: العقيدة، والعبادة، والأخلاق، والمعاملات، والإنسان مهما اجتهد فليس فى مقدوره أن يضع لنفسه نظاماً للحياة يتسم بالشمول والعدل والكمال كما وضعه له الله سبحانه وتعالى فى القرآن الكريم، وفى سنة خاتم الأنبياء والمرسلين – صلى الله وسلم وبارك عليه وعليهم أجمعين.

(ب) ما المقصود بالتعليم الدينى؟

من الاستعراض السابق يتضح بجلاء أن المقصود بالتعليم الدينى هو أمر أكبر بكثير من مجرد أن يضاف إلى المنهج الدعوى المتبع فى أغلب المعاهد التعليمية المعاصرة قليل من دروس الدين وتاريخه وفلسفته بزيادة أو نقصان يتباين من معهد إلى آخر ومن دولة إلي أخرى؛ لأنه لن تكون هناك قيمة لذلك بجوار هذا الحشد الهائل من المعارف المنطلقة من تصورات مادية بحتة منكرة أو متجاهلة لكل ما هو فوق المادة فى عصر فتن الناس فيه بالمعرفة الإنسانية – خاصة فى مجال العلوم البحتة والتطبيقية – فتنة كبيرة وهذا التناقض بين المعارف المكتسبة التى صيغت فى عصرنا صياغة مادية منكرة للغيب لا تؤمن بغير المحسوس المدرك وبين الدين هو أحد الأسباب الرئيسية لتدهور التعليم فى العالم بصفة عامة وفى العالم الإسلامى بصفة خاصة.

وإذا أردنا للتعليم أن ينهض من هذه المحنة التى يعيشها فعلينا أن نعيد صياغة المعارف الإنسانية كلها من المنطلقات الإسلامية الصحيحة؛ وبذلك نضفى على التعليم المعاصر بعداً يفتقر إليه، ونزيل هذا التناقض بين دروس الدين وبين المعارف التى تعلم من منطلقات مادية بحتة، وهذا هو ما يمكن أن يسمى بالتعليم الدينى؛ أما أن يعلّم الطفل شيئاً من الدين وفى نفس الوقت تمتلئ كتبه الأخرى بمفاهيم منكرة لذلك أو متجاهلة له أو متعارضة مع أصوله فإنه سيعيش فى حالة من التمزق الفكرى قد تؤدى به فى النهاية إلى الكفر بكل شئ.

ويقوم التعليم الدينى فى الإسلام العظيم على عدد من القواعد الأساسية التى يمكن إيجازها فيما يلى:

(١) إن الدين هو بيان من الله – تعالى – للإنسان فى القضايا التى يعلم ربنا – تبارك وتعالى – بعلمه الشامل عجز الإنسان عن الوصول فيها إلى أية تصورات صحيحة من قبل قضايا العقيدة، والعبادة، والأخلاق، والمعاملات. وهذه القضايا لابد من استقائها من مصادرها السماوية الصحيحة: القرآن الكريم، وسنة خاتم الأنبياء والمرسلين – ﷺ –.

(٢) على الرغم من التخصص في علوم الدين والعلوم المساعدة لذلك التخصص من مثل اللغة العربية، التاريخ، مقارنة الأديان لابد من تعلم إحدى اللغات الأجنبية إن لم يكن أكثر من لغة. ولابد من الإلمام بالمعطيات الكلية لبقية العلوم المكتسبة وتقنياتها حتى لا ينعزل الدين عن عصره.

(٣) إن التعليم الدينى لابد أن يقوم على أساس من الحوار المنطقى بدلا من الاعتماد على مجرد الحفظ.

(٤) إن الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وبالقدر خيره وشره يشكل حجر الزاوية فى التعليم الدينى.

(٥) وكذلك الإيمان بالوحى، وبالوحى الخاتم الذى تعهد الله – تعالى – بحفظه فحفظ على مدى الأربعة عشر قرناً الماضية فى القرآن الكريم وفى سنة خاتم الأنبياء والمرسلين – صلى الله وسلم وبارك عليه وعليهم أجمعين.

(٦) ضرورة التلازم بين العبادة والسلوك .

(٧) ضرورة الفهم لحقيقة رسالة الإنسان فى الحياة : عبداً الله – تعالى – مستخلفا فى الأرض لفترة محددة يعبد الله – تعالى اسمه – خلالها بما أمر، ويجتهد فى عمارة الأرض بإقامة عدل الله فيها حتى يلقى الله – سبحانه وتعالى – وهو راض عنه .

(٨) ضرورة الإيمان بواحدانية الله المطلقة فوق جميع خلقه، وضرورة تنزيهه عن كل وصف لا يليق بجلاله من مثل الشبيه أو الشريك أو المنازع أو الصاحبة والولد؛ لأن هذه كلها من صفات المخلوقين، والله تعالى منزه عن جميع صفات خلقه من مثل كل من المادة والطاقة وحدود كل من المكان والزمان، وكلها من بديع صنعه والمصنوع لا يشكل صانعه أو يحده .

(٩) ضرورة التفريق بين عالمى الشهادة والغيب، والتفريق بين الغيبيات المرحلية التى تجرى البحوث العلمية من ورائها للكشف عن شىء من حقيقتها وسننها وأسرارها، والغيبيات المطلقة التى لا سبيل للإنسان فى الوصول إلى شىء منها إلا عن طريق وحى السماء وذلك من مثل حقيقة وجود الله، والملائكة، والروح، والجن، وحتمية الآخرة، والبعث والحشر والميزان والصراط والجنة والنار وما يتعلق بذلك كله من صفات جاءت فى كتاب الله وفى سنة رسوله – ﷺ – .

(١٠) ضرورة الإيمان بوحدة رسالة السماء، وبالأخوة بين الأنبياء، وبوحدة الدين، وبالأخوة بين بنى آدم أجمعين وما يقتضيه كل ذلك من ضوابط أخلاقية وسلوكية .

* * *

الفَصْـلُ الثَّـاني

التربيَـة الإسْـلاميَة وَأزمَـة التَعليـم المعَاصْر

من التحليل السابق لأزمة التعليم المعاصر فى أطرها المختلفة: الاقتصادية، والاجتماعية، والتربوية، والقيادية، والنفسية، والأخلاقية، والدينية يتضح أن الأزمة فى أساسها تكمن فى انطلاق التعليم المعاصر من منطلق مادى بحت، منكر أو متجاهل للدين، وذلك فى فلسفته، وأهدافه، ومحتواه، ووسائله، وعلى ذلك فإن المخرج من تلك الأزمة يتلخص فى العودة بالتربية إلى منهجها الإسلامى الصحيح؛ لأنه هو المنهج الربانى الوحيد الموجود بين أيدى الناس اليوم. وهو المنهج الوحيد المطابق للفطرة الإنسانية؛ لأنه من صنع الله خالق الإنسان وفطرته، والكون وما فيه، وما يحكم ذلك كله من سنن وقوانين، والله هو العليم بخلقه وبطبائعهم، وبأفضل الوسائل لتربيتهم.

وهنا ترد تساؤلات عدة أهمها: ما هى التربية الإسلامية؟ وما هى فلسفتها، وأهدافها، ومحتواها، ووسائلها؟ وهل قامت هذه التربية الإسلامية بدور فى تاريخ البشرية؟

والإجابة على ذلك قد تحتاج إلى مؤلفات عدة ولكن نوجزها فى النقاط التالية:

أولاً: ماهية التربية الإسلامية؟

تعرف التربية الإسلامية بأنها النظام التربوى الفريد القائم على الإسلام بمعناه الشامل الذى لخصه لنا القرآن الكريم فى قول ربنا – جلت قدرته –: ﴿ **إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الإِسْلامُ وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلاَّ مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ وَمَن يَكْفُرْ بِآيَاتِ اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ** ﴾ [آل عمران: ١٩).

ويعلمنا الإسلام العظيم أن الإنسان بدأ وجوده عالما عابدا، ولم يبدأه بجهالة وكفر كما يدعى أغلب المتخصصين فى الدراسات الإنسية (Anthropology)، وأن المعرفة الإنسانية بدأت بتعليم من الله سبحانه وتعالى القائل: ﴿ **وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاءَ كُلَّهَا** ﴾ [البقرة: ٣١] .

ثم ورث هذا العلم لبنى البشر جيلاً بعد جيل، فضاع منه ما ضاع، وبقى ما بقى، وأضيف إليه ما أضيف من تجارب الأفراد والمجتمعات، وخبراتهم المكتسبة من ممارسة الحياة، ومن البحث عن حقائق الأشياء؛ بالتأمل والتفكر والتدبر فى الكون وما فيه، وفى الإنسان وأعماقه؛ وعلاقة كل منهما بالآخر، وبالخالق العظيم عن طريق استجواب الكون فى محاولة للتعرف عليه واستنتاج السنن التى تحكمه بالملاحظة والاستنتاج، أو بالتجربة والملاحظة والاستنتاج .

وقد تناقل الناس هذا التراث بمصدريه الربانى الموهوب والبشرى المكتسب، أمة بعد أمة فطوروا ما طوروا وضيعوا ما ضيعوا. ومرت المجتمعات البشرية فى حالات من الإزدهار والأفول والإنسانية والهمجية على قدر تمسك الناس أو إهمالهم لجوانب المعرفة بمصدريها الربانى والإنسانى، فإذا ما فقدت المجتمعات الإنسانية نور الرسالة السماوية وإشراقها غاصت فى جاهلية مضلة حتى تهلك أو تكاد فيسعفها الله – تعالى – بنبى يردهم إلى نور الهداية الربانية إذا كانت لا تزال محفوظة عندهم ولكنهم انصرفوا عنها، أو برسول يدعوهم إلى الإسلام من جديد حسب رسالة جديدة من نفس المصدر إذا كانوا قد ضيعوا الرسالة السابقة... فيخرجهم من الظلمات إلى النور.

وظلت رسالات السماء إلى الأرض تترى والإسلام يصارع الجاهلية فى مد وجزر وإقبال وإدبار حتى من الله تعالى على البشرية بخاتم الأنبياء والمرسلين وبرسالته الشاملة للناس كافة. والتى تعهد الله سبحانه وتعالى بحفظها فحفظت، وبقى كتابها – القرآن الكريم – وبقيت سنة نبيها مصدراً للهداية الربانية للبشر كافة.

من ذلك يتضح أن الإيمان سابق على الكفر، وأن العلم سابق على الجهل - بعكس ما يزعم متخصصو علم دراسة الإنسان - الأنثروبولوجيا - المعاصرون - وأن الأنبياء والمرسلين هم بشر يختارهم الله - تعالى - بعلمه وحكمته وقدرته، ويعلمهم ويربيهم، ليقوموا بدورهم بتعليم البشرية وهدايتها، وفى ذلك يصف سيدنا رسول الله ﷺ نفسه بقوله: «إنما بعثت معلماً»(١)، ولذلك ركز إهتمامه على التربية الفردية والجماعية، وأمر بتعليم القراءة والكتابة، وافتدى كل أسير من أسرى بدر بتعليمه عشراً من الأميين، وجعل من مسجده فى المدينة المنورة. مركزاً من مراكز العلم والتربية والنور والهداية، وقرر أن طلب العلم فريضة على كل مسلم (٢)، ونادى بأن الحكمة ضالة المؤمن أنّى وجدها فهو أولى الناس بها،(٣) وجعل العلماء ورثة الأنبياء، وساوى بين مدادهم ودماء الشهداء(٤) وهذا هو القرآن الكريم يصفه ﷺ بأنه معلم الكتاب والحكمة وذلك بقول ربنا - تبارك وتعالى -: ﴿ **هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولاً مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ** ﴾ [الجمعة : ٢].

والقرآن الكريم يحض الناس على التعلم والتفكر والتدبر، وتحصيل المعرفة فى شتى جنبات هذا الكون، ويدعو إلى القراءة والكتابة ويعظم أدواتها ويعتبرهما من أهم وسائل التسجيل والتدقيق والضبط، والكشف العلمى، ونشر الهداية والمعارف بين الناس، وهذه آياته الأولى تأمر بكل ذلك فتقول موجهة الخطاب إلى خاتم الأنبياء والمرسلين - ﷺ -:

﴿ **اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ * خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ * اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ * الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ * عَلَّمَ الْإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ** ﴾ [العلق: ١ - ٥].

﴿ **نٓ وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ** ﴾ [القلم : ١].

﴿ **وَالطُّورِ * وَكِتَابٍ مَّسْطُورٍ * فِي رَقٍّ مَّنشُورٍ** ﴾ [الطور : ١-٣].

---

(١) سنن ابن ماجه.

(٢) ذكره الحافظ المنذرى، وابن ماجه وغيرهما.

(٣) ذكره ابن عبد البر.

(٤) رواه الشيرازى.

والقرآن المجيد يكرم العلماء وذلك بقول ربنا – تبارك وتعالى –:

﴿ ... هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُوا الأَلْبَابِ ﴾ [الزمر : ٩].

وقوله – تعالى –:

﴿ .. يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ .. ﴾

[المجادلة : ١١]

وقوله – عز من قائل –:

﴿ يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَن يَشَاءُ وَمَن يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا ... ﴾.

[البقرة: ٢٦٩]

وقوله – سبحانه وتعالى – آمرا خاتم أنبيائه ورسله – ﷺ –:

﴿ وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا ﴾ [طه: ١١٤].

ويخاطب الله تعالى خاتم أنبيائه ورسله ﷺ ممتناً عليه بما علمه عن طريق الوحى فقال عز من قائل:

﴿ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا ﴾.

[النساء: ١١٣]

وبجوار القرآن الكريم – الذى لا تنتهى عجائبه، ولا يخلق على كثرة الرد – هناك السنة النبوية المطهرة وهى مجموع أقوال المصطفى ﷺ وأفعاله وسلوكه وسيرته، والتى حفظها لنا ربنا – تبارك وتعالى، لنقتدى بها، وقد جعل من خاتم أنبيائه ورسله – ﷺ – نموذجاً بشريا كاملا للناس، عاش بينهم نبياً ورسولا، معلماً وهادياً ومربياً بما يأتيه من علم من ربه الذى وصفه بقوله الحق فقال – عز من قائل –: ﴿ .. وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ * إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ * عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَىٰ ﴾ [النجم: ٣ – ٥].

وبما حفظه به ربه – تبارك وتعالى – من كل سوء حتى يجعل منه تجسيدا

للكمال البشرى الذى يرتضيه ربنا – جلت قدرته – من عباده الصالحين فحقق الله – تعالى – به ﷺ – ذلك، كما حقق به للناس قدوة عليا بسلوكه وبما ترك فى الناس من سنن طيبة ثابتة حتى قال: «**أدبنى ربى فأحسن تأديبى**»، ووصفه ربنا – سبحانه وتعالى – حين أراد أن يمدحه – ﷺ – فقال فيه: ﴿ **وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ** ﴾ [القلم: ٤].

فهذا رسول الله ﷺ يجلس بالمسجد النبوى؛ ليعلم المسلمين دينهم، ويبصرهم بعاقبة أمرهم حتى كان مجلسه يتنافس عليه الصحابة – رضوان الله تعالى عليهم أجمعين – ولقد كان جلوسه ﷺ عند موضع الأسطوانة المسماه اليوم «أسطوانة التوبة» – وهى الأسطوانة الرابعة فيما بين المنبر والحجرة المشرفة فى الروضة الشريفة، وكان ﷺ إذا صلى الصبح انصرف إلى ذلك الموضع فحلق أصحابه به حلقا بعضها دون بعض فيتلو عليهم ما أنزل عليه من القرآن من ليلته، ويفسر لهم ويحدثهم فى مختلف أمورهم إلى طلوع الشمس ويسألونه هم بدورهم عن كل ما يعرض لهم، وفى الصحيح:

[. . . فهذا رسول الله ﷺ يمر بمجلسين فى مسجده: مجلس يتعلمون الفقه ويعلمونه، ومجلس يدعون الله تعالى ويرغبون إليه، فقال صلوات الله وسلامه عليه: «كلا المجلسين على خير وأحدهما أفضل من الآخر، أما هؤلاء فيدعون الله تعالى ويرغبون إليه فإن شاء أعطاهم وإن شاء منعهم، وأما هؤلاء فيتعلمون ويعلمون الجاهل، وإنما بعثت معلماً» ثم أقبل فجلس معهم][1].

وهؤلاء هم أصحاب رسول الله ﷺ يقومون بمهمة تعليم المسلمين فى المساجد وفى مقدمتهم ساداتنا من أمثال أمير المؤمنين: عمر بن الخطاب، وأمير المؤمنين على بن أبى طالب، والصحابة الأجلاء من أمثال: عبد الله بن مسعود، وعبد الله ابن عمرو بن العاص، وأنس بن مالك، وعبد الله بن عمر، وزيد بن ثابت، ومعاذ ابن جبل، وأبو هريرة، وعبد الله بن عباس، وأبو موسى الأشعرى رضى الله تعالى

---

(١) ذكره ابن عبد البر عن عبد الله بن عمرو بن العاص فى كتابه المعنون «جامع بيان العلم وفضله».

عنا وعنهم أجمعين، كما كانت تقوم بنفس الدور بين النساء أم المؤمنين السيدة عائشة – رضى الله عنها وغيرها من أمهات المؤمنين والصحابيات الجليلات.

وسلك مسلكهم فى التعليم من التابعين كثيرون من أمثال: سعيد بن المسيب، وعروة بن الزبير، وسالم مولى عبد الله بن عمر، وابن جريج ومجاهد، وسعيد ابن جبير وكانوا جميعاً يعقدون مجالسهم العلمية فى المساجد.

واستمر الحال على ذلك زمن التابعين وتابعى التابعين ففى الموطأ عن أبى بكر ابن عبد الرحمن أحد فقهاء المدينة ومن كبار التابعين أنه كان يقول: من غدا إلى المسجد ليتعلم خيرا أو ليعلمه، ثم رجع إلى بيته كان كالمجاهد فى سبيل الله ورجع غانما. ولقد كان الإمام مالك بن أنس يتتبع خطى رسول الله ﷺ، فلقد ورد أنه كان يجلس للعلم بالمسجد النبوى وكان موضعه عند اسطوانة التوبة التى كان يجلس عندها رسول الله ﷺ بعد صلاة الصبح من كل يوم يفقه أصحابه ويعلمهم، وتتابعت الدروس بعد ذلك بالمساجد فى مختلف أرجاء الدولة الإسلامية فلقد ذكر القاضى عياض رحمه الله فى كتابه (المدارك) أن القنازعى قد قال.. دخلت مسجد عمرو بن العاص بالفسطاط وفيه من المجالس المالكية فى الفقه والحديث نحو عشرين حلقة.

وهذه أحاديث رسول الله ﷺ فى فضل العلم وأهله وحث الناس على طلبه – وهى أكثر من أن تحصى فى معرض الحديث هنا، خاصة وقد أفرغت لها من المجلدات ما يفوق حجم هذا الكتاب بأسره، وتكفى فى ذلك الإشارة إلى كتاب «جامع بيان العلم وفضله وما ينبغى فى روايته وحمله للإمام القرطبى» وهو فى جزئين فاق عدد صفحاتهما الأربعمائة، ولكن نقتطف من أقوال المصطفى صلوات الله وسلامه عليه: فى الحث على العلم قوله الشريف:

- «طلب العلم فريضة على كل مسلمَ»[(1)].

---

(1) أخرج الإمام ابن ماجه فى سننه عن أنس بن مالك – رضى الله عنه – أنه قال: قال رسول الله ﷺ: «طلب العلم فريضة على كل مسلم، وواضع العلم عند غير أهله كمقلد الخنازير الجوهر واللؤلؤ والذهب».

● «أغد عالماً أو متعلماً أو مستمعاً ولا تكن الرابع فتهلك»[1].

● «... إنه ليستغفر للعالم من فى السماوات ومن فى الأرض حتى الحيتان فى البحر»[2].

● «اطلبوا العلم ولو بالصين فإن طلب العلم فريضة على كل مسلم»[3].

● «ما من رجل يسلك طريقاً يطلب فيه علماً إلا سهل الله له به طريق الجنة...»[4].

● «إن الملائكة لتضع أجنحتها لطالب العلم رضا بما يطلب»[5].

● «من خرج فى طلب العلم كان فى سبيل الله حتى يرجع»[6].

● «فضل العالم على العابد كفضلى على أدناكم»[7].

● «فضل المؤمن العالم على المؤمن العابد سبعون درجة»[8].

● «يشفع يوم القيامة ثلاثة: الأنبياء ثم العلماء ثم الشهداء»[9].

● «يوزن يوم القيامة مداد العلماء بدماء الشهداء»[10].

● «للأنبياء على العلماء فضل درجتين وللعلماء على الشهداء فضل درجة»[11].

● «لأن تغدو فتتعلم باباً من العلم خير لك من أن تصلى مائة ركعة»[12].

● «إذا جاء الموت طالب العلم وهو على حاله مات شهيداً»[13].

● «لكل شىء عماد وعماد هذا الدين الفقه، وما عبد الله بشىء أفضل من فقه فى الدين، ولفقيه واحد أشد على الشيطان من ألف عابد»[14].

---

(١) سنن الدارمى. (٢) سنن ابن ماجه. (٣) سنن ابن ماجه.

(٤) سنن أبى داود ومسلم، والترمذى، والنسائى، وابن ماجه، وابن حبان، والحاكم.

(٥) سنن الدارمى. (٦) سنن الترمذى. (٧) سنن الدارمى.

(٨) ذكره ابن عبد البر عن ابن عباس (رضى الله عنهما).

(٩) سنن ابن ماجه.

(١٠) رواه الشيرازى، وأورده كل من ابن الجوزى وابن عبد البر.

(١١) ذكره ابن عبد البر.

(١٢) ذكره ابن عبد البر فى «جامع بيان العلم وفضله».

(١٣) رواه البزار عن كل من أبى ذر وأبى هريرة (رضى الله عنهما).

(١٤) أخرجه كل من الترمذى وابن ماجه والبيهقى.

● «ما من عبد يخرج يطلب علماً إلا وضعت له الملائكة أجنحتها وسلك به طريق إلى الجنة، وإنه ليستغفر للعالم من فى السماوات ومن فى الأرض حتى الحيتان فى البحر، وإن فضل العالم على العابد كفضل القمر ليلة البدر على سائر الكواكب، إن العلماء هم ورثة الأنبياء، إن الأنبياء لم يورثوا ديناراً ولا درهماً ولكنهم ورثوا العلم فمن أخذه أخذ بحظ وافر»(١).

● «إن الله وملائكته وأهل السماوات والأرضين حتى النملة فى جحرها وحتى الحوت في البحر ليصلون على معلم الناس الخير»(٢).

- «من طلب علماً فأدركه كتب الله عز وجل له كفلين من الأجر، ومن طلب علماً فلم يدركه كان له كفل من الأجر»(٣).

● «يبعث الله العباد يوم القيامة، ثم يميز العلماء، ثم يقول لهم: يا معشر العلماء إنى لم أضع علمى فيكم لأعذبكم، اذهبوا فقد غفرت لكم»(٤).

● «العالم أمين الله فى الأرض»(٥).

● «أيما ناشيء نشأ فى طلب العلم والعبادة حتى يكبر وهو على ذلك كتب الله له أجر سبعين صدِّيقاً»(٦).

● «تعلموا العلم فإن تعلمه لله خشية، وطلبه عبادة، ومذاكرته تسبيح، والبحث عنه جهاد، وتعليمه لمن لا يعلمه صدقة، وبذله لأهله قربة، لأنه معالم الحلال والحرام، ومنار سبل أهل الجنة، وهو الأنس فى الوحشة، والصاحب في الغربة، والمحدث فى الخلوة، والدليل على السراء والضراء، والسلاح على الأعداء، والدين عند الأخلاء، يرفع الله به أقواماً فيجعلهم فى الخير قادة وأئمة، تقتص آثارهم، ويقتدى بأفعالهم، وينتهى إلى رأيهم، ترغب الملائكة فى خلتهم، وبأجنحتها

---

(١) أورده ابن عبد البر وقال: أورده الحافظ المنذرى وقال رواه كل من أبى داود والترمذى وابن ماجه وابن حبان والبيهقى.

(٢) سنن الترمذى. (٣) سنن الترمذى.

(٤) ذكره ابن عبد البر فى «جامع بيان العلم وفضله».

(٥)، (٦) ذكره ابن عبد البر فى «جامع بيان العلم وفضله».

تمسحهم، ليستغفر لهم كل رطب ويابس، وحيتان البحر وهوامه، وسباع البر وأنعامه، لأن العلم حياة القلوب من الجهل، ومصابيح الأبصار من الظلم، يبلغ العبد بالعلم منازل الأخيار، والدرجات العلى فى الدنيا والآخرة، التفكر فيه يعدل الصيام، ومدارسته تعدل القيام، به توصل الأرحام، وبه يعرف الحلال من الحرام، هو إمام العمل والعمل تابعه، يلهمه السعداء ويحرمه الأشقياء »(١).

● « من جاءه أجله وهو يطلب علماً ليحيى به الإسلام لم تفضله النبيون إلا بدرجة »(٢).

● « مجلس فقه خير من عبادة ستين سنة »(٣).

● « يسير الفقه خير من كثير العبادة »(٤).

● « فقيه أفضل عند الله من ألف عابد »(٥).

● « إذا مات الإنسان انقطع عنه عمله إلا من ثلاثة: إلا من صدقة جارية، أو علم ينتفع به أو ولد صالح يدعو له »(٦).

والإسلام بطبيعته يفرض على الأمة التى تعتنقه أن تكون أمة مثقفة مدركة واعية، منتجة، قادرة على تنمية مجتمعاتها، وذلك لأن حقائق هذا الدين الربانى من عقيدة وعبادات وأخلاق ومعاملات بتفاصيلها الدقيقة، وأصولها العميقة ليست طقوساً مبهمة تنقل بالتقليد والوراثة دون فهم أو تمحيص كما هو الحال عند أغلب أصحاب العقائد الأخرى، وليست تمائم وتعاويذ ومجسمات تحمل بغير وعى أو إدراك، وليست سحراً أو شعوذة يعتمد على الإيحاء والإيهام، ولكنه وحى ثابت محدد يقينى من الله خالق الخلق وموجد الوجود، وحقائق تستخرج من هذا الكتاب الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، والذى قامت الأدلة الثابتة على صدق وحيه، ودقة تنزيله، وإحكام حروفه وكلماته وآياته،

(١ : ٥) ذكره ابن عبد البر فى « جامع بيان العلم وفضله.
(٦) صحيح مسلم.

وإعجاز حكمه وتشريعه وإشاراته، وإحاطة علمه وصدق نبوءآته ودقة حفظه فى الصدور قبل الصحائف بينما ضيعت الكتب السماوية السابقة كلها وما بقى من بعضها من ذكريات نقلت شفاها على هيئة القصص المروى من الآباء للأبناء ومن الأجداد للأحفاد قبل أن يدون فى غيبة كاملة من مصادره الصحيحة ومن الرسل الذين تلقوه، فأضيف إليه ما أضيف، وحذف منه ما حذف، وتذكر الناس منه ما تذكروا ونسوا ما نسوا وظل هذا التراث يتعرض للتبديل والتغيير وللتحرير بعد التحرير حتى وصل إلى ما وصل إليه اليوم، ولا يزال يعبث به أتباعه إلى قيام الساعة.

والقرآن الكريم يأمر قارئيه بضرورة التفقه في الدين فيقول فيه ربنا - تبارك وتعالى -: ﴿ **فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ** ﴾ [التوبة: ١٢٢].

ولا يتم فهم المسلم لدينه إلا بفهم دقيق لما جاء فى كل من القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة من تعاليم، ولا يمكن أن يتم له ذلك بغير دراسة وفهم وتمحيص، وبغير تعليم وتربية وتدريب منذ لحظة الإدراك الأولى وحتى الممات، وفى ذلك قال الإمام القرطبى: «قد أجمع العلماء على أن من العلم ما هو فرض متعين على كل امرئ فى خاصته بنفسه، ومنه ما هو فرض على الكفاية إذا قام به قائم سقط فرضه على أهل ذلك الموضع» وعلى ذلك فقد شغف المسلمون بتعلم العلم ونشره فى كل مكان حلوا به، فكانوا إذا فتحوا بلداً من البلاد سارعوا إلى بناء المساجد، ومراكز تحفيظ القرآن، ومدارس العلم ومجالسه وحلقاته باعتبار ذلك من مقتضيات الرسالة التى حملوها لإخراج الناس من الظلمات إلى النور، وبذلك قامت الحضارة الإسلامية على أساس من العلم بمدلوله الشامل: الوحى السماوى المنزل، والعلم البشرى المكتسب، وميراث الإنسانية فى هذين المجالين.

وعلى ذلك فقد اهتم المسلمون منذ مطلع العهد النبوى بالتعليم، واعتبروه الوسيلة الرئيسية لنشر الدعوة، وللتنمية الاقتصادية والاجتماعية؛ ولذلك أسسوا للتربية مراكز، وقواعد ونظماً ومناهج وطرائق، وكتبوا فى العلاقة بين المعلم

والمتعلم، والأخلاق الواجبة لكل منهما، والحال التى تنال بها العلم، والعوائق التى يمكن أن تقف فى سبيل ذلك، مما يعتبر أسساً ثابتة فى مناهج التربية بمقاييسها العصرية الإسلامية تبدأ من الصغر فى وسط الأسرة بالمحاكاة والتقليد ثم بالممارسة المتدرجة، لأن من واجب الوالدين فى الأسرة المسلمة تعليم أطفالهما الشهادتين بمجرد تمكنهم من النطق السليم، وتعليمهم مبادىء الإسلام وعباداته، وسير الأنبياء والصالحين بطريقة مبسطة تستوعبها قدرات عقولهم وإدراكهم وحسهم، ثم ينتقل الطفل بعد ذلك إلى الكتاب، والكتاتيب كانت أساساً مدارس لتحفيظ القرآن الكريم ولتعليم مبادىء القراءة والكتابة والحساب. وكان الكتاب ملحقا بالمسجد أو مبنياً بالقرب منه، وانتشرت الكتاتيب بالقرى والنجوع والمدن والأمصار، وكانت تستقبل الصغار من سن الإدراك إلى ما دون سن التكليف؛ ليتعلموا فيها القرآن الكريم وأصول القراءة والكتابة وتحسين الخط وعلوم الحساب ورواية الأخبار وشيئاً من الشعر مما يتباين وتباين المعلمين واختصاصاتهم والمجتمعات ومتطلباتها إلا أن الطفل كان يتم حفظ القرآن الكريم ويتعلم ضوابط تلاوته فى سن مبكرة، وبعد أن يتم ذلك يخرج لتحمل تكاليف الحياة بينما ينتقل النابهون من خريجى الكتاب إلى حلقات العلم فى المساجد حيث يتقنون علوم القرآن والحديث والفقه واللغة والتاريخ والفلسفة والمنطق وغيرها...

ثم ينتقل المتميزون من هؤلاء إلى حلقات المناظرة والحوار فى الأماكن العامة أو فى حوانيت الوراقين – المكتبات – حيث كانت تعقد المناظرات، وتروى الأشعار، وتعرض القضايا العلمية والفكرية والفلسفية المختلفة.

ولم تكن سنى الدراسة تلك محددة بعدد معين من السنين، بل كان الطفل يمضى في دراسته على قدر ما يحمله استعداده الشخصى، وإمكاناته العقلية والذهنية، وكان يتحرك من مرحلة إلى أخرى أو يتخرج منها بمجرد إكماله ما كان يتوقعه أستاذه منه من مستوى؛ لذلك كانت العملية التعليمية عملية تربوية

متكاملة يهتم فيها بالسلوك الشخصى، والالتزام بالآداب الخاصة والعامة وبالتقيد بمكارم الأخلاق ونبيل الصفات قدر الاهتمام باستيعاب النصوص وفهم دلالاتها، وإجادة التلاوة للقرآن الكريم وتدبر آياته، والتفقه فى الدين ومعرفة أحكامه، وسلامة التعبير، وجمال المنطق وحسن الاستدلال؛ وليس أدل على ذلك من وصية الرشيد للكسائى مؤدب ابنه حيث يقول له:

«اقرئه القرآن، وعرفه الآثار، ورده الأشعار، وعلمه السنن، وبصره مواقع الكلام وبدئه، وامنعه من الضحك إلا فى أوقاته، وخذه بتعظيم مشايخ بنى هاشم إذا دخلوا عليه، ورفع مجالس القواد إذا حضروا مجلسه، ولا تمرن بك ساعة إلا وأنت مغتنم فيها فائدة تفيده إياها من غير أن تخرق به فتميت ذهنه، ولا تمعن فى مسامحته فيستحلى الفراغ ويألفه، وقوّمه ما استطعت بالقرب والملاينة فإن أباهما فعليك بالشدة والغلظة».

وكان من هؤلاء المتعلمين من يعكف على إلقاء الدروس فى المسَاجد أو المدارس ودور العلم الأخرى، ومن وصل به علمه وشهرته إلي مجالس الحكام والخلفاء حيث كانت أكثر مجالس العلم تخصصاً وتميزاً وشهرة. وكان منهم من ضرب فى الأرض باحثاً وراء التراث الإنسانى جامعاً ومدققاً وفاحصاً وناقداً، وكان هناك المعلمون والمؤرخون وكبار المؤدبين وهى مراحل متدرجة فى السلك التربوى كما كان هناك العلماء والفقهاء والمحدثون، والأدباء والشعراء والقصاصون جنبا إلى جنب مع الأطباء والصيادلة والجغرافيين والفلكيين ومختلف الحرفيين. وكان المجتمع كله يولى رجال العلم وطلابه من الرعاية والتقدير والتبجيل ما حدا بالناس إلي الإقبال على العلم والاستزادة منه، وإلى التعاون على بناء معاهده ومراكزه ومكتباته، ووقف الأموال والممتلكات عليه؛ وعلى ذلك لم يكد يطلع القرن الهجرى الثانى حتى كان فى الدولة الإسلامية جهاز تربوى كامل منتشر فى كل جزء من أجزاء تلك الدولة المترامية الأطراف؛ والممتدة من بخارى وسمرقند شرقاً إلى الأندلس غرباً، ابتداء من المساجد وحلقات تحفيظ القرآن إلى الكتاتيب

والمدارس والجامعات، إلى مجالس العلم ودوره، وبيوت الحكمة ومكتباتها وغير ذلك من وسائل المعرفة، والتى شكلت مراكز للتعليم والتربية استطاعت أن تنشر نور المعرفة وأن تبنى الإنسان الصالح الجدير بتكريم الله – تعالى –، وبحسن القيام بواجبات الاستخلاف فى الأرض، وأن تقيم به المجتمع الفاضل المؤسس على تقوى الله وعلى الجهاد من أجل تحكيم شريعته، وكل ما يتبع ذلك من عدل اجتماعى، وتسام إنسانى، وفهم حقيقى لرسالة الإنسان فى هذه الحياة.

واستطاع هذا النظام التربوى الإسلامى الفريد استيعاب كل المعارف الإنسانية المتاحة من الحضارات السابقة والمعاصرة من مثل حضارة الهند والفرس وما بين النهرين ومصر والروم والإغريق وغيرها انطلاقاً من التصور الصحيح لمعنى الأخوة الإنسانية، ووحدة التراث البشرى؛ مما أكد على أن هذا هو تراث الإنسانية جمعاء ومن الواجب المحافظة عليه، وبالفعل استطاعت الحضارة الإسلامية جمع شتات هذا التراث ونقده وتطويره وتنميته بالعديد من الإضافات الأصيلة، وإثرائه بالرؤية الإسلامية الشاملة للإنسان والكون وعلاقتهما بالخالق العظيم. كما استطاع ذلك النظام التربوى المحافظة على هذا التراث الإنسانى ونقله إلى الأجيال اللاحقة فى إطار إسلامى إنسانى متكامل على مدى فترة زادت عن عشرة قرون كاملة.

فلقد كانت مساجد المسلمين أماكن للعبادة، ومجالس للعلم، ومنطلقات للأنشطة ومحاكم للقضاء بين الناس، ومراكز لإنطلاق قوافل الجهاد فى سبيل الله، وتكفى فى ذلك الإشارة إلى أن كبار العلماء والأئمة المسلمين قد تلقوا العلم فى المساجد، فمالك بن أنس تعلم فى مسجد المدينة المنورة، وأبو حنيفة فى مسجد الكوفة، والشافعى فى مسجد الفسطاط، وابن حنبل فى مسجد بغداد، وغيرهم كثير من رجال العلم والفكر والرأى ممن أضافوا إلى الفكر الإنسانى وأثروه.

كذلك تكفى الإشارة إلى أن أقدم جامعات العالم وهى جامعات الفسطاط – الجامعة الأم – والقرويين والزيتونة وقرطبة والأزهر الشريف قد نشأت وعلمت

فى المسجد . . .، وأن بيت الحكمة الذى أسسه هارون الرشيد فى منتصف القرن الثانى الهجرى، وجهزه بمكتبة ضخمة ضمت تراث كل من الهند وفارس واليونان كان من أكثر مراكز العلم أثراً فى نقل الثقافات القديمة، وحفظها ونقدها وتطويرها. كذلك فإن المدارس التى بدأ المسلمون فى تأسيسها منذ القرن الثانى الهجرى ومن أمثلتها مدرسة المأمون فى خراسان، ومدرسة ابن فورك فى نيسابور، ومدرسة الطب التى أسسها عبد الرحمن الناصر فى قرطبة فى منتصف القرن الرابع الهجرى، ومدرسة ساليرى التى أسسها المسلمون فى ايطاليا، والمدرسة النظامية فى بغداد فى منتصف القرن الخامس الهجرى وهى أول مدرسة قرر فيها رواتب للمعلمين، وبنيت فيها مساكن للطلبة، ونظم فيها أول منهاج تخصصى فى الدراسات الإسلامية، وبها اقتدى الناس فى كل من العراق والشام ومصر وخراسان وغيرها من بلاد المسلمين التى شهدت نهضة تربوية رائدة انتشرت فيها المعاهد العلمية المختلفة من دور لدراسات القرآن والحديث، ومدارس للفقه، ومراكز لتعليم الطب والهندسة، والفلك والحساب والكيمياء والعقاقير، وغيرها من مختلف أنواع المعارف والعلوم. وكان من ثمار هذه النهضة التعليمية، الثقافية، التربوية الرائدة جامعة الزيتونة التى أسست فى تونس سنة ٧٩ هـ (٦٩٨ م) وجامعة القرويين التى أسست فى مدينة فاس (بالمغرب) سنة ٢٤٥هـ (الموافق ٨٥٩ م) وجامعة قرطبة التى أسست فى منتصف القرن العاشر الميلادى، والأزهر الشريف الذى أسس بالقاهرة سنة ٣٦١ هـ (٩٧٢ م). وكانت هذه الجامعات مراكز للعلوم على اختلاف أنواعها، وأول نماذج للجامعات العلمية فى العالم، وإلى جوار هذه الجامعات الأولى فى تاريخ الإنسانية كانت هناك دور الحكمة، ومن أمثلتها دار الحكمة التى أسسها المأمون فى (بغداد) سنة ٢١٧ هـ ودور العلم التى من أشهرها دار العلم فى الموصل (٣٣٣ هـ) وفى بغداد (٣٨٣ هـ) وفى القاهرة (٣٩٥هـ) ثم بعد ذلك انتشرت المدارس ومنها النظامية فى بغداد (٤٥٩ هـ)، وكل من البيهقية والسعيدية والنظامية فى نيسابور.

وقد زودت دور الحكمة والعلم هذه بالمكتبات الواسعة، والاختصاصيين الأكفاء من معلمين ومترجمين، وجمعت لها المخطوطات من كل حدب وصوب، وزودت بالأجهزة والمعدات اللازمة لكل من التدريس والبحث العلمى، فكانت مراكز عليا للدراسة والبحث، ولم تقتصر على دراسات كل من القرآن والحديث والفقه والسيرة وأصول الدين واللغة وقواعدها وآدابها فقط، بل اهتمت بالطب والهندسة والعلوم الكونية والتجريبية. فدار الحكمة فى بغداد على سبيل المثال كانت لها مدرسة خاصة لتدريس الفلك، وأنشىء بجانبها مرصد فلكى ومكتبة كبيرة للمخطوطات، ووقفت عليها الضياع والأراضى والأموال، ووصلت فى زمانها إلى أعلى مستوى للمعرفة المكتسبة، فاجتذبت كثيراً من محبى العلم من شتى أقطار الأرض، وانغمس رجالها فى دراسات مستفيضة امتدت من الطب والهندسة إلى الكيمياء والفلك والرياضيات والجغرافيا بالإضافة إلى دراسات الشريعة وعلوم الدين وفقه اللغة وآدابها والفلسفة بمختلف مدارسها، وتميزت هذه المدرسة البغدادية – دار الحكمة – وتميزوا بمذاهب فريدة فى طرائق البحث وأساليب الابتكار فى مختلف المجالات.

وقد قامت المراكز التعليمية المختلفة فى ظل الحضارة الإسلامية – على تعددها، وتنوعها، واختلاف أساليبها – بتخريج العديد من العلماء المسلمين الذين حملوا تراث الإنسانية – على تعدد مصادره –، وقاموا بنقده وتطويره، وإثرائه على مدى زاد على عشرة قرون كاملة، وكان منهم أئمة فى علوم القرآن، والحديث، والفقه، واللغة، والفلسفة، والعلوم الإنسانية، والعلوم البحتة والتطبيقية، وكان منهم مؤسسون لكثير من المعارف الحديثة من مثل علم الاجتماع الذى بدأه ابن خلدون، ومن هؤلاء الأعلام نعرض على سبيل المثال – لا الحصر – أسماء الأئمة أبى حنيفة، مالك، والشافعى، ابن حنبل، أبى يوسف، أبى داوود، الأوزاعى، ابن تيمية، الغزالى، الطبرى، ابن الأثير، ابن خلدون، ياقوت، ابن خلكان، ابن النفيس، ابن الهيثم، الخوارزمى، ابن سينا، جابر بن حيان، الرازى،

الفارابى، الزهراوى، البيرونى، ابن بطوطة، الإدريسى، الكندى، المسعودى، الجاحظ، الزمخشرى، أبو الفداء، القزوينى، ابن مسكويه، ابن طفيل، ابن يونس، ابن جبير، ابن اسحق، ابن بشر، البتانى، البوزيجانى، بنو شاكر، المجربطى، اخوان الصفا، القابسى، البغدادى، الحريرى، الطغرائى، ابن الجزار، القلقشندى، الخازن، الخيام، التيفاشى، طاش كبرى زاده، حاجى خليفة، وغيرهم كثيرون.

ولقد كان للنظام التربوى الإسلامى فلسفته الواضحة، وأهدافه المحددة، وأساليبه المتجددة، وبحوثه الرائدة فى التربية؛ فقد قام علماء المسلمين بمناقشة موضوعات تربوية أساسية من مثل: (١) هل تكون التربية إلزامية بالنسبة لجميع أفراد الأمة أم لا؟ (٢) هل يعلم البنات فى الكتاتيب كما يعلم الصبيان أم يخصص لهن نظام آخر؟ (٣) هل يأخذ المعلم أجرا عن التعليم أم لا يأخذ؟ (٤) هل يعاقب التلاميذ وكيف يعاقبون؟ إلى آخر هذه المسائل التى تعتبر من صميم العملية التربوية (الأهوانى، ١٩٦٧ م.

كذلك ناقش التربويون المسلمون العديد من القضايا التربوية مثل: (١)أهداف التعلم. (٢) أحكام تعلم العلم وأحواله. (٣) اختيار مواد التعلم. (٤) طرائق اختيار المعلمين وما يشترط فيهم، وما لهم من حقوق وما عليهم من واجبات. (٥) الشروط الواجب توفرها فى طالب العلم. (٦) العلاقة بين الأستاذ وولى الأمر. (٧) التدرج فى طرح القضايا ابتداء بالبسيط وارتقاء إلى ما هو أعقد. (٨) توجيه الطلاب حسب مواهبهم. (٩) طرق تقييم المتعلمين. (١٠) التعليم الداخلى وآداب السلوك فى أقسامه. (١١) أعمار الطلاب، وطرائق توزيعهم على الفصول حسب معايير مختلفة. (١٢) اختبارات الذكاء عند القبول. (١٣) آداب حلقات العلم ومجالسه. (١٤) الإجازات العلمية وشروط منحها. (١٥) قواعد السلوك العام فى إطار المعهد العلمى من مثل علاقة الطالب بزملائه، وأساتذته، آداب السؤال والاستفسار والإجابة، طرائق الاستذكار والامتحان، أساليب استعارة الكتب من المكتبات، إلخ...).

(١٦) الأحوال الاجتماعية لكل من المعلمين والمتعلمين. (١٧) فرضية العلم. (١٨) تعليم المرأة، إلى غير ذلك من تفاصيل العملية التربوية، وكتبوا فى ذلك العديد من المؤلفات التى نختار منها:

- «آداب المعلمين» لابن سحنون (المتوفى سنة ٢٥٦ هـ).
- «الرسالة»، و«النوادر والزيادات» لعبد الله بن أبى زيد القيروانى (المتوفى سنة ٣٨٦ هـ).
- «الرسالة المفصلة لأحوال المتعلمين وأحكام المعلمين والمتعلمين» للقابسى (المتوفى سنة ٤٠٣ هـ).
- « كتاب تهذيب الأخلاق وتطهير الأعراق » لابن مسكويه. (المتوفى سنة ٤٢١ هـ).
- «الأحكام السلطانية والولايات الدينية» لأبى الحسن على الماوردى (المتوفى سنة ٤٥٠ هـ).
- « جامع بيان العلم وفضله، وما ينبغى فى روايته وحمله» للقرطبى (المتوفى سنة ٤٦٣ هـ).
- «إحياء علوم الدين» للإمام الغزالى (المتوفى سنة ٥٠٥ هـ).
- «أيها الولد » للإمام الغزالى (المتوفى سنة ٥٠٥ هـ).
- « تعليم المتعلم، طريق التعليم» للزرنوجى (المتوفى سنة ٥٩١ هـ).
- « العواصم من القواصم» لابن العربى (المتوفى حوالى ٦١٨ هـ).
- « كتاب آداب المتعلمين» للطوسى (المتوفى سنة ٦٧٢ هـ).
- « تذكرة السامع والمتكلم فى آداب العالم والمتعلم» لابن جماعة (المتوفى سنة ٧٣٣ هـ).
- « المقدمة » لابن خلدون (المتوفى سنة ٨٠٨ هـ) (باب تعليم الولدان).
- « تحرير المقال فى آداب وأحكام وفوائد يحتاج إليها مؤدبو الأطفال» لابن حجر الهيثمى المصرى (المتوفى سنة ٩٧٤ هـ).

- «الأعلاق الخطيرة» لابن شداد.
- «الدارس فى تاريخ المدارس» للنعيمى.
- «رسالة المعلمين» للجاحظ.
- «رسالة فى التربية» لابن عبدون.
- «ترغيب الناس إلى العلم» للقطمونى.
- «منهاج المتعلم»؛ وهى مخطوطة لم يمكن التعرف بعد على كاتبها.
- «وصية الإمام أبى حنيفة ليونس بن خالد السمتى».
- «الوجازة فى أحكام الإجازة» للوليد بن بكر.
- «المنبه» للشهيد.
- «رسالة فى علم الأدب» لـطاش كبرى زاده.
- «أدب المفيد والمستفيد» للعاملى.
- «جامع جوامع الاختصار والتبيان» لأحمد المغراوى.

ولقد بلغ الاهتمام بالتربية والتعليم فى الحضارة الإسلامية مبلغ الأعمال التعبدية حتى أن المسلمين ابتدعوا نظاماً يشجع على التعليم ويرفع أعباءه عن عاتق الطلاب؛ وهو نظام وقف الضياع والعقار وصرف ريعها على أهل العلم وطلابه. وهو نظام رائد فى دعم معاهد العلم ورجاله وطالبيه، لم يسبقه نظام من قبل كفل لمراكز العلم ورجاله الاستقلال عن السلطان خاصة فى حالات انحراف الحكم وتجبر الحاكمين.

وقد ساعد هذا النظام التربوى الرائد على ازدهار الحضارة الإسلامية وانتشارها على مدى اثنى عشر قرناً من أوائل القرن السابع إلى أواخر القرن التاسع عشر الميلاديين ثم تعرضت البلاد الإسلامية للغزو الاستعمارى من قبل دول فقدت عقيدتها وحركها الحقد على الإسلام فى هجمة معادية للدين الحق،

همجية مستعلية، همجية متعصبة، غير متبصرة لم تسمح لها بمحاولة التعرف على هذا الدين الحنيف، فحاولت القضاء عليه بكل الطرق وشتى الوسائل، وكان أمضى أساليبهم فى ذلك هو القضاء على نظام التربية الإسلامية، وفرض نظمهم التعليمية الدهرية المادية المعادية للدين فقاموا بمحاصرة معاهد التربية الإسلامية ومحاربتها حتى تمت تصفيتها وما بقى منها يقاوم عملية التصفية الهمجية هذه رفض الفكر الوافد بخيره وشره، وركز همه فى المحافظة على التراث وحمايته من هذا الزحف المادى القادم مع مختلف المعارف الوافدة؛ فجمدت هذه المعاهد جموداً أبعدها عن التقدم العلمى والتقنى المذهل الذى تحقق فى القرنين الأخيرين، وعن المعطيات الكلية لهذا التقدم، وعن قضايا مجتمعاتها المتجددة مما أفقدها دورها القيادى الرائد . . . وذلك لأن مهمة العملية التربوية لا تنحصر فى المحافظة على التراث ونقله من جيل إلى جيل فقط؛ ولا فى تأديب النفس، وتصفية الروح وتقوية الجسم، وتثقيف العقل فقط؛ بل إن الاهتمام بقضايا المجتمعات المتراكمة الملحة، والسعى المخلص الدؤوب من أجل إيجاد الحلول الناجعة العاجلة لها هو من أوائل وأهم مسئوليات المثقفين فى كل مجتمع إنسانى؛ كذلك فإن الاهتمام بتنمية المهارات الذهنية واليدوية للطلاب وتدريب العقل البشرى على الإبداع والتجديد والاختراع يشكل أحد الركائز الأساسية للعملية التربوية التى لا يمكن تحقيقها إذا انعزلت هذه العملية عن التطورات العلمية والتقنية المذهلة التى تحققت خلال القرنين الماضيين، والمعطيات الكلية لها؛ لأنها بذلك تنعزل عن العالم المحيط بها وعن مشكلاته وقضاياه.

والمعاهد التربوية إذا فقدت هذا البعد فإنها تتخلف عن مسار الركب الإنسانى الذى يتسارع معدل سيره باستمرار، وتجد نفسها معزولة عن الناس، وتجد ثقافتها غريبة على أفكارهم فيقف الناس منها موقف المعارضة والعداء؛ لأن الناس أعداء ما جهلوا وبالتالى تأخذ تلك المؤسسات فى الضمور تدريجياً حتى تموت إذا لم يقيض الله لها من يبعث فيها روح التجديد والإبداع من جديد.

من ذلك تتلخص أزمة التعليم فى العالم الإسلامى المعاصر فى النقاط التالية:

(١) تصفية نظم التعليم الدينى فى العالم بصفة عامة، وفى العالم الإسلامى بصفة خاصة، وإحلالها بنظم تعليمية مادية بحتة تدور بالعملية التربوية وبالمعارف المكتسبة فى إطارها المادى فقط؛ وبذلك تأتى جزئية، منقوصة، قاصرة، لا يمكنها أن تقوم بدورها التربوى أو التعليمى على وجه سليم.

(٢) صياغة المعارف المكتسبة كلها صياغة مادية بحتة، تنكر أو تتجاهل الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر حتى فى المجتمعات التى يؤمن أفرادها بذلك.

(٣) الفصل بين التعليم الدينى والتعليم المدنى فى مختلف دول العالم الإسلامى، وهى عدوى انتقلت إلينا من الغرب.

(٤) التضييق على المعاهد التربوية الإسلامية حتى تم حصر نشاطها فى دور تقليدى يتلخص فى المحافظة على التراث ونقله من جيل إلى جيل مما أزهد طالبى العلم فيها حتى من أبناء أساتذتها، وقادتها، وخريجيها. وقد أخذت المعاهد الإسلامية هذا الموقف درءاً لتيار الفكر الإلحادى الوافد من الشرق ومن الغرب الذى تغلغل فى مختلف مجالات المعارف المكتسبة.

(٥) تقصير المسؤلين عن عملية التربية من المسلمين فى تقديم البديل للنظم التعليمية المادية السائدة فى ظل حكومات تبنت المنهج الدنيوى المادى إرضاءً للقوى الكبرى رغم علم الحكومات بأن ذلك يتم ضد رغبات الأغلبية المطلقة لأبنائها وقهرا لهم، وذلك من مثل المطالبة بإلغاء نص أن الإسلام هو الدين الرسمى للدولة فى غالبية الدول الإسلامية كما تطالب به الولايات المتحدة الأمريكية وتدفع ببعض الأقليات العميلة إلى المطالبة به بدعوى أن الدين قضية فردية لا دخل للدولة فيه وهى خطوة شيطانية تآمرية من أجل إخراج الدول الإسلامية من إطارها الصحيح.

وبإيجاز أشد تتمثل أزمة التعليم المعاصر فى غياب المنهج الإسلامى للتربية بصفة عامة، وفى غيابه من الدول الإسلامية بصفة خاصة، والتى كان فى امكانها أن تقدم النموذج التطبيقى للتربية الإسلامية، وفى ذلك كتب الجمالى (١٩٦٧) مشيراً إلى التعليم فى العراق ما نصه: «لقد اقتنعت الآن أن فلسفة التعليم العراقى أكدت الناحية العلمية الضيقة أكثر من تأكيدها نواحى الأخلاق والروحيات، كما أكدت الناحية الحفظية اللفظية أكثر من تأكيدها على الفكر والعمل، وأكدت القومية الضيقة أكثر من تأكيدها الإسلامية والإنسانية، كما كانت التربية العراقية دكتاتورية أكثر منها ديموقراطية، واتكالية أكثر منها استقلالية، وفردية أكثر منها تعاونية، وباختصار أنها لم تكن تربية ذات فلسفة حياتية شاملة ومتزنة. هذا وقد ظهرت نقائص التربية العراقية فى أيام الهزات والمحن، ولا يزال العراق فى نظرنا يعانى من مواطن الضعف المتأصلة فى فلسفته التعليمية».

وهذه هى نقائص العملية التعليمية فى مختلف الدول العربية والإسلامية المعاصرة؛ وذلك لأننا اتبعنا فيها نظماً غريبة علينا، وعلى عقيدتنا، وفكرنا، وتراثنا، وفلسفتنا فى الحياة.. فرض بعضها علينا الاستعمار الغربى الغاشم، وفرض البعض الآخر نفر من أبناء أمتنا الذين فتنوا بمنجزات الحضارة المادية المعاصرة فلهثوا فى الجرى من ورائها ونسوا فى غمرة ذلك نظماً تربوية عريقة قامت على أساس من الإيمان بالله وهدايته، وحققت من النجاح ما لم تستطع النظم المادية المعاصرة تحقيق جزء منه ومن يتذكر ذلك منهم يتذكره بعد فوات الأوان؛ فهذا هو الدكتور الجمالى وهو من رجال التربية المرموقين، ورجل الدولة الذى شغل كثيراً من المناصب القيادية فى العراق حتى وصل إلى رئاسة مجلس الوزراء أكثر من مرة يقف بعد سن الخامسة والستين لينعى على النظم التعليمية العراقية خروجها على المنهج الإسلامى فى التربية!!! والسؤال الذى يفرض نفسه هو أين كان الدكتور الجمالى من نظم التعليم العراقى وهو يشغل أكبر المناصب السياسية فى بلده وهو يعلم أن الله ليزع بالسلطان ما لا يزع بالقرآن؟؟

وأمثال ذلك فى عالمنا العربى والإسلامى كثير؛ حيث لا يعرف الناس قيمة الإسلام إلاّ فى المحن والشدائد، أو عندما يقارب العمر نهايته ويأخذ الضعف منهم مأخذه وينسون أو يتناسون أنهم كانوا فى مقتبل العمر وعز السلطان يدورون فى فلك الحضارة المادية الملحدة حيث دارت. وأن الأمة الإسلامية، بل الإنسانية كلها تجنى اليوم ثمار تفريط المفرطين فى تأسيس النظم التربوية، بل نظم حياتنا كلها على أسس إسلامية أصيلة.

ثانياً: فلسفة التربية الإسلامية:

بينما تعتبر فلسفة التربية الحديثة فى العالم الغربى قائمة على الإيمان بالحرية، والديمقراطية والفردية، وفى العالمين الشيوعى والاشتراكى قائمة على دكتاتورية الطبقة العاملة، والمادية الجدلية، والشيوعية أو الاشتراكية الجماعية، فإن فلسفتها فى الإسلام قائمة على الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، وبالقدر خيره وشره، والالتزام بالعمل الصالح والتعاون عليه، وبالالتزام بالحق والتواصى به، وبالحرص على بناء الإنسان بناء متكاملاً يقوم على تأديب النفس وتصفية الروح وتثقيف العقل وتقوية الجسد، حتى يصل إلى درجة من الكمال الإنسانى المتسامى بصورة عامة فى إطار من القيم العالية والأخلاق النبيلة التى ينشأ عليها ويعود على التعامل بها.

وذلك لأن التربية كانت ولا تزال نظاماً اجتماعياً ينبع من عقيدة الأمة، ويقوم على إبراز تلك العقيدة إلى الوجود بالعيش بها نظاماً كاملاً شاملاً للحياة وبغرسها فى عقول ونفوس أبنائها من الصغر؛ من هنا **فإن فلسفة التربية الإسلامية هى فلسفة الإسلام** القائمة على أن هذا العالم المادى الذى نعيش فيه ليس كل شىء، وأن هذه الحياة الدنيا ليست هى نهاية المطاف؛ فمن وراء المادة غيب مطلق لا نستطيع بحواسنا المحدودة أن نشق حجبه، أو أن نصل إلى معرفة شىء من حقيقته إلا عن طريق وحى السماء، وأن من هذا الغيب المطلق وراء هذه الحياة الدنيا الفانية من حياة أخرى خالدة سيبعث لها الإنسان بعد الموت. وأن من

هذا الغيب المطلق أيضا أن الإنسان لم يوجد نفسه بنفسه، ولم توجده الجمادات من حوله؛ لأنه عاقل والجمادات لا عقل لها، بل أوجده وأوجد الكون كله - بمن فيه وما فيه - من العدم إله واحد أحد لا شريك له فى ملكه، ولا منازع له فى سلطانه، ولا شبيه له من خلقه، وأن هذا الخالق العظيم منزه عن جميع صفات خلقه فلا يحده المكان ولا الزمان؛ لأنهما من إبداعه وإيجاده، ولا يشكله أى من المادة أو الطاقة لأن كلاهما من صنعه وخلقه، ولا حاجة لجلاله إلى الصاحبة أو الولد؛ لأن هذه من صفات المخلوقين والخالق منزه عن صفات خلقه ومن صفات هذا الخالق العظيم أنه - تعالى - هو الذى يحيى ويميت، وهو الذى يجرى الأرزاق، ويدبر ما فى الكون ويرعى الوجود بكل ما فيه ومن فيه بقدرته وعلمه وحكمته وبرحمته وعنايته.. ، وهذا الإله العظيم ليس كمثله شىء؛ فهو قديم لا أول له، باق لا آخر له، قادر لا حدود لقدرته، عالم لا يخفى شىء عن علمه، عادل لا يفلت ظالم من حكمه، هو الذى وضع نواميس الكون وجعل كل شىء فيه بمقدار، وحدّد من الأزل وحداته ونظمه وهيئاته وأشكاله وحركاته، من أدق دقائقه إلى أكبر وحداته، ووضع ما يحكمه من سنن وقوانين، وقدر كل ما يطرأ عليه من تغيير وتبديل.

وهذا الخالق العظيم قد منح الإنسان عقلاً يحكم به على الأمور التى جعلها خاضعة لقدراته، ويميز به بين الخبيث والطيب، ويختار به ما يريده، كما أرسل له بياناً من السماء فى الأمور التى لا يمكن لعقله منفرداً أن يهديه إلى تفاصيلها وحدودها من مثل قضايا العقيدة والعبادة والأخلاق والمعاملات، ثم جعل الله له بعد هذه الحياة المؤقتة حياة دائمة فى الآخرة، تبدأ بحساب دقيق، يكافأ المحسن به على إحسانه، ويعاقب المسيىء على إساءته.

وأن هذا الإله الخالق - سبحانه وتعالى - يختار أناساً يصطفيهم بعلمه من البشر ينزل عليهم شرائعه ليبلغوها للناس، وهؤلاء هم الأنبياء والمرسلون الذين بلغ عددهم كما أخبر الصادق المصدوق - ﷺ - مائة وعشرين ألف نبى اختار

من بينهم ثلاثمائة وبضعة عشر رسولا، وآخر الرسالات السماوية هى رسالة سيدنا محمد ﷺ، ومعجزته الكبرى هى القرآن الكريم، وقد ضاعت الكتب السماوية السابقة كلها ونسيت، وتعرض ما هى منها من ذكريات إلى التحريف والتبديل والتغيير وبقى القرآن سليماً من التحريف والضياع.

هذه هى فلسفة الإسلام، وفلسفة التربية الإسلامية، وهى فلسفة تمتاز بالشمول والتوحيد والدعوة إلى التسامى، وإلى مراقبة السلوك ومحاسبة النفس باستمرار.

فالمعرفة فى الإسلام تتناول الوجود كله فى شمول مكانى وزمانى يجمع بين الدنيا والآخرة في معادلة واحدة لا تتجزأ ولا تنفصم، يتوجه الإيمان بخالق الوجود...، والتوحيد فى الإسلام ينطلق من توحيد الخالق – سبحانه وتعالى – إلى توحيد خلقه الذى على الرغم من كونه فى زوجية واضحة – من اللبنات الأولية لكل من المادة والطاقة إلى الإنسان؛ كى يبقى ربنا – تبارك فى علاه – متفردا بالوحدانية المطلقة فوق جميع خلقه غير أن هذه المخلوقات الزوجية تشير بتآصلها إلى وحدانية خالقها، فتتواصل المادة والطاقة والمكان والزمان، والجمادات والأحياء كما يتواصل الجسد والروح، والسلوك والأخلاق، والإيمان الصادق والعمل الصالح، والدين والعقل، وتتلاقى الدنيا والآخرة وهما عالما الشهادة والغيب وينتهى بهما الأمور إلى الله تعالى؛ وعلى ذلك فإن فلسفة التربية الإسلامية تجمع بين السعى الصادق والعبادة الخالصة لله باعتبارهما وجهان للعمل الصالح، وبين الفكر المتأمل والعمل البدنى باعتبارهما من مجالات العبادة، وبين المثالية والواقعية باعتبارهما من أبعاد الطبيعة البشرية، وبين الإنسان والكون.. باعتبار الإنسان جزءاً من هذا الكون وإن تفرد بخلافة الله فيه، وبين الدنيا والآخرة؛ باعتبار الدنيا رحلة إلى الآخرة، وباعتبار ذلك كله من خلق الله، وأن مرده إليه وحده سبحانه وتعالى، كله ينطق بوحدانيته المطلقة من الإنس والجن سبحانه وتعالى ويؤكدها فى كل وقت وفى كل حين فيما عدا عصاة المكلفين.

هذه الفلسفة الإسلامية توحد فى ذات الإنسان بين جسده وروحه وما يربطهما من قيم وأخلاق، وبين عقله وعاطفته وما يحكمهما من علم وحكمة، وبين عقيدته وعبادته وما يصدقهما من أخلاق وسلوك، لا ينفصل أحدهما عن الآخر.

وهذا الكيان الإنسانى المركب هو جزء فى مجتمع؛ يتأثر به ويؤثر فيه، وعلى ذلك ففلسفة التربية الإسلامية تراعى مكونات الإنسان المختلفة فى وحدته الذاتية، وتربط بين تلك الوحدة الذاتية المركبة المتمثلة فى الفرد وبين المجتمع من جهة، وبينه وبين الكون من جهة أخرى، وبينه وبين الكون وخالقه من جهة ثالثة، وهذا هو ما يجسم معنى الشمول والتوحيد فى الإسلام.

وفلسفة التربية الإسلامية تقوم على الدعوة إلى التسامى باستمرار، وإلى ارتفاع الإنسان إلى المثل العليا التى جسدها لنا ربنا – تبارك وتعالى – فى أنبيائه ورسله، وجمعها فى قمة الكمال البشرى الذى تحقق فى خاتم الأنبياء والمرسلين – صلى الله وسلم وبارك عليه وعليهم أجمعين –.

وهذا التسامى البشرى لا يمكن أن يتم إلا فى نطاق أطر سلوكية وأخلاقية محددة، ومن خلال محاسبة النفس، وإحياء الضمير الدينى فى الإنسان، ويكفى فى ذلك أن يراجع المرء من نصوص الكتاب والسنة ما يؤكد على ضرورة محاسبة النفس قبل أن تحاسب (فالكيّس من دان نفسه)، وعلى أن الله – سبحانه وتعالى – رقيب على كل شيء، قائم على كل نفس بما كسبت، يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور، وأنه – تعالى – قد أقسم فى القرآن الكريم بالنفس اللوامة فقال – عز من قائل –: ﴿ **لا أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ* وَلا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ** ﴾ [القيامة: ١، ٢].

وهذا رسول الله ﷺ يحدثنا بقوله: «لا تزول قدما عبد يوم القيامة حتى يسأل عن عمره فيم أفناه، وعن علمه فيم فعل فيه، وعن ماله من أين اكتسبه وفيم

أنفقه، وعن جسمه فيم أبلاه»[1]، ويقول: «المؤمن وقاف متأمل»[2]، وقوله: «اتق الله عند همك إذا هممت»[3].

وهذه المحاسبة فى الإسلام تسير بالإنسان دائماً نحو الأفضل والأكمل، وتجعل من نفسه على نفسه رقيباً، وتحفظه من التردى فى مزالق الهوى وحبائل الشيطان وتعمل على السمو به سمواً روحياً وأخلاقياً وبدنياً وفكرياً واجتماعياً، فالإيمان بالله – والإقرار بوجوده واليقين باطلاعه على أعمال العباد، وخشية ورجاء جزائه العادل على ما يرتكب من خير أو شر، والإيمان بالآخرة والبعث والحساب والأمل بالخلود فى جنات النعيم هو حجر الزاوية فى التربية الإسلامية.

ومجمل القول: أن فلسفة التربية الإسلامية تقوم على التصور الإسلامى الصحيح للإنسان، والكون، والحياة، ولمعنى ألوهية الله، ويمكن إيجاز هذه الفلسفة فى النقاط التالية:

(١) أن الإنسان هو عبد من عباد الله – تعالى – خلقه من طين،ونفخ فيه من روحه، وعلمه من علمه، وأمر الملائكة بالسجود له، وكرمه واستخلفه فى أرضه، وفضله على كثير ممن خلق تفضيلا. وفى ذلك يقول الحق – تبارك وتعالى –:

- ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لا تَعْلَمُونَ * وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلائِكَةِ فَقَالَ أَنبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلاءِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ * قَالُوا سُبْحَانَكَ لا عِلْمَ لَنَا إِلاَّ مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ * قَالَ يَا آدَمُ أَنبِئْهُم بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنبَأَهُم بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴾ [البقرة: ٣٠ – ٣٣].
- ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِّن صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ * فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ ﴾ [الحجر: ٢٨، ٢٩].

(١ : ٣) سنن الترمذى.

وعلى ذلك فإن القدرة على التعلم واكتساب المعرفة هى صفة أساسية من صفات الإنسان، وضرورة من ضرورات وجوده؛ فهى التى تعينه على عبادة الله - تعالى - بما أمر، وعلى القيام بواجبات الاستخلاف فى الأرض بعمارتها وإقامة عدل الله - سبحانه وتعالى - فيها وهذا لا يمكن أن يتم بغير علم والتزام؛ ومن هنا كان طلب العلم فريضة على كل مسلم.

(٢) الإنسان جزء من هذا الكون المادى الذى خلقه الله - تعالى - بعلمه وحكمته وقدرته فقال - عز من قائل -: ﴿ ... وَاللَّهُ أَنبَتَكُم مِّنَ الأَرْضِ نَبَاتًا ﴾ [نوح: ١٧]، ولكن الإنسان يختلف عن الكون المادى بأنه - بالاضافة إلى جسده المادى - هو كيان روحى عاقل، قادر على التفكير، وعلى إدراك ما يفكر فيه، وعلى التعبير عن تفكيره ومشاعره ببيان واضح ولذلك قال عنه خالقه - سبحانه وتعالى -: ﴿ خَلَقَ الإِنسَانَ * عَلَّمَهُ الْبَيَانَ ﴾ [الرحمن: ٣، ٤]، والإنسان يحس فى نفسه معانى وقيماً للأشياء والأفعال تجعله يستطيع إدراك ذاته، وتجسيد تلك الذات تجسيدا يجعلها متميزة على كل ما سواها من الكائنات الحية الأخرى، رغم ما بينه وبينها من شبه فى البناء؛ فهو أعلى المخلوقات مرتبة، وآخرها وجودا وعلى ذلك فهو جامع لكل صفاتها، ومتميز عليها بالقدرة والاختيار والتكريم، فهو الكائن الحى، العاقل، القادر، المختار المكلف الذى وصفه خالقه - سبحانه وتعالى - بقوله العزيز: ﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً ﴾ [الإسراء: ٧٠].

على ذلك فالإنسانية فى الإنسان ليست بجسده المادى المعقد، ولا بصفاته التشريحية الخاصة؛ إنما الإنسانية فيه هى ا لقدرة التى وهبها له خالقه - سبحانه وتعالى - على ارتقاء بنفسه إلى الدرجة التى تؤهله لاحتمال تبعات التكليف، وأمانة المسؤولية حتى يصل إلى المقام الخاص به وهو الاجتهاد فى تحقيق الكمال الاختيارى الواعى بإرادته وعزيمته وصبره ويظل مثابرا على ذلك حتى يصل فى معراج الله إلى ما جاء فى الحديث القدسى الذى يقول فيه رب العزة والجلال:

«وما يزال عبدى يتقرب إلى بالنوافل حتى أحبه، فأكون سمعه الذى يسمع به، وبصره الذى يبصر به، ولسانه الذى ينطق به، وقلبه الذى يعقل به، فإذا دعانى أجبته، وإذا سألنى أعطيته، وإذا استنصرنى نصرته، وأحب ما تعبدنى عبدى به النصح لى»[1]، وهذا لا يمكن الوصول إليه بغير تربية، وبغير علم وفهم وهداية وأخلاق والتزام، وبغير مجاهدة للنفس. وفى ذلك يقول الحق - تبارك وتعالى -: ﴿ **إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنسَانُ...** ﴾ [الأحزاب: ٧٢].

فالإنسان كل مركب من جسد وروح، وعقل وعاطفة، وأحاسيس ومشاعر، وعلى التربية أن تنهض بكل هذه الجوانب بعدل وتناسق، فتهتم بتصفية الروح اهتمامها ببناء الجسد، وبتأديب النفس اهتمامها بتثقيف العقل وعلى ذلك فالتربية فى الإسلام تربية شاملة لكل مكونات الإنسان، وقدراته ومواهبه، وهى ليست عملية محددة بزمان ومكان؛ ففى الأثر الشريف «اطلبوا العلم من المهد إلى اللحد»، و«الحكمة ضالة المؤمن أنى وجدها فهو أولى الناس بها» وإذا لم يتلق الإنسان قدرا كافيا من التربية فإنه قد يستخدم هذه الإرادة الحرة فى الخروج على منهج الله، والإفساد فى الأرض فيتحقق فيه قول الحق - تبارك وتعابى -: ﴿ **وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَىٰ * قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا * قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَٰلِكَ الْيَوْمَ تُنسَىٰ** ﴾ [طه: ١٢٤ - ١٢٦].

(٣) إن الخير أصيل فى الإنسان، والشر طارىء عليه، وقد وهب الله الإنسان القدرة على التمييز بينهما، والإنسان يولد على الفطرة قال - تعالى -: ﴿ **فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ** ﴾ [الروم: ٣٠]، وقال - عز من قائل -: ﴿ **وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا * فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا * قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا * وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا** ﴾ [الشمس: ٧ - ١٠].

---

(١) رواه الإمام الطبرانى فى الكبير عن أبى أمامة.

ثم تتفاعل قابلية الإنسان وميوله وقدراته مع المجتمع الذى يربى فيه فتنمو فى الاتجاه الصحيح أو الخاطىء حسب ما يتلقى من توجيه، ومن هنا تتضح أهمية التربية الصالحة، ودورها فى توجيه العقل لاستخدام قدراته كلها فى الخير وليس فى الشر، وهذا هو دور أساسى من أدوار التربية: ﴿ **وَاللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ** ﴾ [النحل: ٧٨]، وفى ذلك يقول المصطفى - ﷺ -:

«ما من مولود إلا يولد على الفطرة فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه»(١).

(**٤**) إن قمة الخير فى الإنسان، ووسيلته إلى إنمائه هى خضوعه بالعبودية لله وحده؛ بمعنى ألا يشرك بعبادته أحداً لأنه إذا لم يخضع بالعبردية لله كان جباراً عاتياً فى الأرض، يستخدم كل نعمة وهبها إياه الله فى الاستعلاء والتجبر والإفساد فى الأرض، أو يكون عبداً لغير الله وهذه صورة من صور الإذلال الإنسانى الذى يتنافى مع تكريم الله لبنى آدم.

ومن سمات هذا التوحيد الخالص لله الخالق - سبحانه وتعالى - أن يؤمن الإنسان بأنه لا سلطان فى هذا الوجود لغير الله؛ **ومن ثم فالعبودية لغيره - تعالى - هى إهدار لكرامة الإنسان، وإذلال لإنسانيته، وهى صورة من صور الشرك الذى حرمه الله - تعالت قدرته - وجعله المصطفى - ﷺ - من الكبائر، ومن السبع الموبقات المهلكات، ثم إنه لمن سمات الإحسان أن يعبد الإنسان الله - تعالى - كأنه يراه فيسعى فى هذه الحياة وهو يعلم أن أنفاسه معدودة عليه، وأعماله محصية عليه، وأقواله موزونة عليه، فيقدر الخطوة قبل خطوها، والكلمة قبل النطق بها، ويحاسب نفسه قبل أن يحاسب، ويزن أعماله قبل أن توزن عليه ويجب أن يبقى هذا الإيمان إطارا للعملية التربوية، وهدفاً من أهدافها.**

ومن الخير الفطرى فى الإنسان كذلك تلك القيم الكبرى التى فطر الله - سبحانه وتعالى - الإنسان عليها ومنها حب الحق، وحب الخير، وتذوق الجمال

(١) أخرجه الإمام مسلم فى صحيحه (كتاب القدر).

الحسي والمعنوى وهذه فى المخلوقات انعكاس لعظمة القدرة المبدعة ودلالة على الخالق العظيم الذى هو الحق والخير، وهو مسبغ كل صور الجمال على الإطلاق، فالله تعالى هو مصدر كل القيم العليا، وهو سبحانه غايتها، وقد وصف ذاته العلية بقوله العزيز: ﴿ فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ ﴾ [المؤمنون: ١١٦]. وواجب التربية **أن تحافظ على الفطرة الإنسانية السليمة، وأن تعمل على تنميتها** وتزكيتها باستمرار، فالتعليم بدون تربية وتزكية تعليم ناقص، فهذا هو سيدنا إبراهيم أبو الأنبياء، وولده إسماعيل - عليهما السلام - يدعوان الله لذريتهما من بعدهما فيقولان: ﴿ رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ [البقرة: ١٢٩].

فيستجيب الله - سبحانه وتعالى - لدعوتهما مرسلا الرسول تلو الرسول هادياً ومعلماً ومزكياً حتى تكتمل رسالة الله فى بعثة سيدنا محمد ﷺ والذى يصفه ربه بقوله: ﴿ كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولاً مِّنكُمْ يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة: ١٥١].

(٥) إن الإنسان الفرد هو عضو فى جماعة تشمل الإنسانية كلها بما فيها أسرته وأهله، ومجتمعه وبلده وأمته، والعالم بأسره، فهو مرتبط بهذه الجماعات كلها بارتباطات شتى، وله عندها حقوق، كما أن عليه تجاهها واجبات، ولا تستقيم الحياة فى هذه الدنيا إلا بقيام اتزان دقيق بين حقوق الفرد وواجباته تجاه الجماعة، وهو أمر من صميم العملية التربوية، وهو من الأمور التى لا يكتفى فيها بالتلقين، وإنما لا بد لها من أن تغرس فى النفوس بالممارسة الفعلية وباتباع القدوة الحسنة، والتزام أوامر الله واجتناب نواهيه، والوقوف عند حدوده التى وضعها لعلاقات الأفراد بعضهم ببعض، وعلاقات كل منهم بالمجتمع الإنسانى كله وعلى اختلاف أبعاده.

والتربية فى ذلك لا يمكن أن تكون عملية إقليمية ضيقة، تحدها حدود الأرض، أو فواصل اللغة، أو اختلاف اللون وتنوع الجنس؛ فهى تسعى إلى بناء

الإنسان الصالح لتبنى به المجتمع الإنسانى الصالح، و هو مجتمع لا بد أن يكون مجتمعاً متعلماً متبصراً،يستشعر الفرد فيه معنى الأخوة الإنسانية، ويعتز به، ويصونه ويحافظ عليه.

وعلى ذلك فالمساواة فى التعليم بين عناصر الجنس البشرى كلها أمر واجب لا فرق فى ذلك بين أبيض وأسود، ولا بين ذكر أو أنثى، فكلهم مطالبون بعبادة لله وتقواه، ولا عبادة بغير علم وهدى والتزام ، وفى ذلك يقول ربنا – تبارك وتعالى –: ﴿ **يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ** ﴾ [الحجرات: ١٣].

وقال – عز من قائل –: ﴿ **وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّلْعَالِمِينَ** ﴾ [الروم: ٢٢].

(٦) إن الأفراد متفاوتون في قدراتهم، وملكاتهم ومواهبهم، وفي ذلك يقول ربنا – تبارك وتعالى –: ﴿ **وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلائِفَ الأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ...** ﴾ [الأنعام: ١٦٥]، وإن كان ذلك بمثابة ابتلاء واختبار إلا أن هذا التفاوت بين الأفراد لا بد وأن يؤخذ بعين الاعتبار فى العملية التربوية فلا يكلف إنسان فوق طاقته إنطلاقا من قول **الحق – تبارك وتعالى** –: ﴿ **لا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا...** ﴾ [البقرة: ٢٨٦]؛ ومن ثم فالتربية فى الإسلام تربية فردية، لا تحد فى قوالب موحدة جامدة تفقدها طبيعتها الإنسانية، بل تتركها لحسن تقدير المربى وقدرته على توجيه الملكات الخاصة لكل طالب وحسن قبول الطالب لتوجيه مربيه لما يربطهما من صلة نورانية أساسها خشية الله تعالى والعمل على مرضاته.

(٧) أن مصادر المعرفة الإنسانية فى الإسلام هى الوحى السماوى المنزل، والمعارف والتقنيات المكتسبة التراث البشرى الموروث فى هذين المجالين، وعليه فإن التربية لا بد أن تستمد منهجها ومحتواها من كل من وحى السماء وميراث المعارف والتقنيات المكتسبة، فإهمال أى منهما لا يمكن أن يؤدى إلى معرفة متكاملة نافعة أو إلى تربية سليمة.

(٨) إن وسيلة الإنسان إلى العلم السماوى هى وحى السماء المنزل على عدد من الرسل والأنبياء، والذى تجمع واكتمل وحفظ فى الرسالة الخاتمة المتمثلة فى القرآن الكريم وفى سنة الرسول الخاتم - ﷺ - وقد تعهد ربنا - تبارك وتعالى - بحفظهما، فحفظا حفظا كاملا فى نفس لغة الوحى بهما - اللغة العربية - حتى يبقيا حجة على الناس كافة إلى قيام الساعة.

ووحى السماء هو بيان من الله - تعالى - للإنسان فى القضايا التى يعلم ربنا - جلت قدرته - بعلمه الشامل أن الإنسان لا يستطيع الإجابة عليها إما لكونها من الغيب المطلق كقضايا العقيدة، أو من الأوامر الربانية المطلقة كالأوامر بالعبادة أو من ضوابط السلوك كالأخلاق والمعاملات والتاريخ يؤكد عجز الإنسان دوما عن وضع ضوابط لنفسه فى هذه القضايا.

وعلى ذلك فإيمان الإنسان برسالة السماء هى ضرورة من ضرورات علمه، بل من ضرورات وجوده؛ فهى من ضرورات علمه لأن العلم الذى لا يستطيع أن يجيب على تساؤلات أساسية فى حياة الإنسان - من مثل من هو؟ من الذى خلقه وأرسله إلى هذه الحياة؟ وما هى رسالته فيها؟ وكيف يمكن له أن يحقق تلك الرسالة على الوجه الأمثل؟ وما مصيره بعد هذه الحياة؟ - هو علم ناقص حتى لو وصل بالإنسان إلى القمر، وجاب به فى الفضاء، وفجر له أسرار الذرة، وسخر له طاقاتها!!! والإيمان بوحى السماء هو من ضرورات وجود الإنسان لأنه لا يستطيع أن يضع لنفسه نظاماً شاملاً كاملاً ينظم حياته وعلاقاته أفراداً وجماعات، ودولاً وأمماً، ومجتمعاً إنسانياً واحداً على أساس من الحق والعدل، دون ميل شخصى، أو هوى نفسى مهما أوتى الإنسان من أسباب الذكاء والفطنة؛ وذلك لأن الإنسان - مهما أوتى من أسباب الذكاء والفطنة - لا يستطيع أن يحدد تفاصيل رسالته فى هذه الحياة، ولا أن يدرك مصيره بعدها بعقله منفرداً؛ ومن هنا كانت ضرورة رسالة السماء ليهتدى بهديها الإنسان فى القضايا التى لا يستطيع أن يصل فيها بجهده إلى أية تصورات صحيحة، ولذلك بعث الله الرسل والأنبياء بدينه الحق، وطالب الناس بالإيمان بهذا الدين الحق وإقامة

حكم الله فى الأرض على إســاس من هذا الدين الحق، وفى ذلك يقــول ربنا - تبارك وتعالى -:

﴿ رُسُلاً مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ ﴾.

[النساء: ١٦٥]

وآخر الرسالات السماوية هى رسالة سيدنا محمد ﷺ، الذى جعله الله - تعالى - خاتم الأنبياء والمرسلين، وجعل معجزته القرآن الكريم، وتعهد بحفظه فبقى سليماً من الضياع ومن التحريف والتبديل، بينما ضاعت الكتب السماوية السابقة كلها، وما بقى من بعضها من ذكريات نقلت شفاها لقرون طويلة من قبل أن تدون بأيدى أناس مجهولين ليسوا بأنبياء ولا بمرسلين وفى لغات غير لغة الوحى فتعرضت للتحريف والتبديل والتغيير الذى أخرجها عن إطارها الربانى وجعلها عاجزة عن هداية أتباعها؛ ومن هنا **فإن التربية فى الإسلام تقوم على القرآن وهديه، وتعاليم رسولنا الكريم وسنته.**

وعلى ذلك فـإن اهتـمـام السلف الصـالح من المسلمين بتـحـفـيظ أبنائهم وبناتهم القرآن الكريم فى سن مبكرة كان عملا أساسياً فى تربيتهم؛ به تكونت عقيدتهم وأخلاقهم، وانضبط سلوكهم ومعاملاتهم، وعمق إيمانهم وصلتهم بخالقهم، وزاد فهمهم لرسالتهم، وسادوا الدنيا بهذا الفهم وملأوها علماً وعدلاً ورحمة وإنسانية وبه تمكنوا من لغتهم، وحفظوا رسالة ربهم!!! ولا يزال ذلك هو الأسلوب الأمثل فى تربية المسلم على الرغم من الاعتراضات التى وجهت ولا تزال توجه إلى ذلك النهج فى تربية الصغار من أعداء الإسلام وأبواقهم؛ وذلك لأن حفظ القرآن الكريم فى سن مبكرة - تتميز فيها الذاكرة بصفائها - هى عملية سهلة ميسرة... والقرآن بالإضافة إلي كونه ذخيرة علمية ودينية ولغوية وتربوية وأخلاقية هامة لحافظه حتى لو لم يع معانيه كاملة فى سن مبكرة، فإن ذلك ينمو - بالقطع - مع نموه العقلى والجسدى، ويبقى ذخيرة له فى دنياه كما هو ذخيرة له فى آخرته، فالتربويون اليوم يجمعون على أن للمفردات والتراكيب الجميلة

التى يحفظها الطفل فى صغره صلة كبرى بنمو الطفل العقلى والفكرى، وبنمو قدراته على البيان.

وفى ذلك كتب ابن خلدون فى مقدمته تحت فصل بعنوان «تعليم الولدان» ما نصه: «اعلم أن تعليم الولدان للقرآن شعيرة من شعائر الدين أخذ به أهل مكة ودرجوا عليه فى جميع أمصارهم لما يسبق إلي القلوب من رسوخ الإيمان وعقائده بسبب آيات القرآن الكريم ومتون الأحاديث، وصار القرآن أصل التعليم الذى ينبنى عليه ما يحصل بعد من الملكات».

انطلاقاً من ذلك أيضاً قسم ابن سحنون الفنون إلى اجبارية واختيارية، فما فرض تعليمه وجوباً هو القرآن الكريم مع إعرابه ورسمه، وإتقان الهجاء والقراءة الحسنة من توقيف وترتيل مع تحذير من التغنى بالقرآن، وكل ما وراء ذلك فهو اختيارى.

وقد ظل الحال كذلك حتى منتصف القرن العشرين؛ فقد كانت الأسر المسلمة ترسل أبناءها إلى الكتاتيب ليحفظوا القرآن الكريم قبل إرسالهم إلى المدارس النظامية؛ ولا تزال بعض الأقليات المسلمة فى العالم اليوم تحرص على إرسال أبنائها يومياً إلى مراكز تحفيظ القرآن بعد انتهاء الدوام الرسمى للمدارس النظامية غير المسلمة، أو فى خلال العطل الأسبوعية والفصلية والسنوية على الرغم مما يفرضه ذلك على الصبية من جهد زائد ولكن الهجمة الهمجية التى شنتها المذاهب الهدامة المعاصرة على دول الإسلام وشعوبه قد عمدت إلى مراكز تحفيظ القرآن الكريم فصفتها تقريباً. فيما عدا بعض المعاقل التى لم تستطع غزوها والتى تبقى أملا لتخريج أجيال من حفظة القرآن الكريم يعلق عليهم الرجاء إن شاء الله تعالى.

أما بقية الأمور والمعارف فقد تركت لاجتهاد الإنسان وتحصيله، ووسيلته فى ذلك عقله وحواسه، وهما من نعم الله الكبرى التى مَنَّ بها على الإنسان، وأن من قبيل الشكر عليهما استخدامهما إلى أقصى حد ممكن ولذلك فالإنسان

مطالب دوماً بتحكيم العقل، والاستدلال بالبرهان المنطقى، وهو منهى عن التقليد الأعمى، والجمود على المفاهيم الخاطئة لمجرد أنها موروثة، فالمحافظة على التراث المكتسب ضرورة من ضرورات بقاء المعرفة الإنسانية غير أن الإنسان مطالب دوماً بنقد هذا التراث وتطويره، ومطالب كذلك بالنظر فيما حواليه من أمور الكون وما فيه، نظراً بعين الاعتبار وبحضور القلب، فى عملية من التفكر والتدبر لا تنفصل فيها المعرفة عن الحكمة، ولا المادة عمّا وراءها!!

(٩) إن العلوم الكونية فى منهج التربية الإسلامية شيء أساسى، ولكن العلم بها ليس علماً مادياً مجرداً عن الحكمة . فتعرف الإنسان على الكون ضرورة من ضرورات وجوده؛ لأنه بذلك يتعرف على خصائص المادة والطاقة والأحياء ويقوم بتصنيفها وتبويبها، ويتعرف على الظواهر الطبيعية والسنن التى تحكمها، ويضع الفروض والنظريات اللازمة لذلك، ويستنتج القوانين للمطرد منها، ونتاج ذلك تعرف الإنسان على مصادر الخير المادى فى هذه الحياة فيستفيد منها وينميها بسد حاجاته وحاجات بنى جنسه الذين يتزايدون فى العدد مع الزمن، وتعرفه على شيء من قوانين الكون وسننه مما يعينه على تسخيرها فى عمران الحياة على الأرض، والقيام بواجبات الاستخلاف فيها وهذا مجال العلوم البحتة والتطبيقية أو ما يسمى بالعلوم الكونية.

وهذه العلوم فى التربية الإسلامية ليست فقط حقائق وأرقاماً، ومعادلات مجردة من الحكمة؛ فإن دلالتها المعنوية أكبر منها ومن هنا كان لزاماً على المسلم أن ينظر فى كل شيء، وفى كل أمر بعين الاعتبار، وهو حاضر القلب، متفتح الحواس، جاداً فى محاولة الوصول إلى المعرفة، وإلا أتت معرفته معرفة حسية فقط، معرفة بمادة الأشياء وهى أقل ما يمكن للإنسان أن يدرك منها... فالمسلم حين ينظر في الكون متأملا، دارساً، متفكراً يدرك أن الكون بكل ما فيه ومن فيه خلق بالحق، ولأجل مسمى، وأن لكل شيء طبيعته الخاصة، وقوانينه الثابتة، ووظيفته المحددة، وغايته المرسومة، وأن الكون لم يخلق لعباً ولا عبثاً، وكذلك يجب أن

تكون حياة الإنسان نظاماً، ودقة، وعملا، وفهماً ينسجم مع قوانين الكون وسننه، وإلا أتت حياة الإنسان شاذة عنها، خارجة عليها، متعارضة معها!!! وفى ذلك يقول ربنا – تبارك وتعالى –:

﴿ وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لاعِبِينَ* مَا خَلَقْنَاهُمَا إِلاَّ بِالْحَقِّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ ﴾ [الدخان: ٣٨، ٣٩].

والكون للمسلم هو كتاب الله المنظور يرى فيه عظمة الخلق، ودقة البناء، وانتظام الحركة، وإتقان الصنعة، فيدرك من ذلك جانبا من صفات خالقه العظيم، ويتعلم عددا من الشروط الواجبة للنجاح فى هذه الحياة، ويرى فى الكون وحدة فى البناء تنطق بوحدانية الخالق العظيم، ويرى فيه أنه مستحدث فان، كانت له فى الأصل بداية بدأها الخالق البارىء المصور ويحاول العلماء حسابها، وسوف تكون له فى يوم من الأيام نهاية هى بيد الخالق سبحانه وتعالى وحده، ويرى الإنسان من كل ذلك أنه فى كل لحظة من لحظات وجوده هو محتاج إلى رحمة الله ورعايته وإلاّ هلك وهلك كل ما فى الكون ومن فيه، ويحذرنا الخالق – سبحانه وتعالى – من إمكانية حدوث ذلك فيقول: ﴿ إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ أَن تَزُولا وَلَئِن زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ إِنَّهُ كَانَ حَلِيماً غَفُوراً ﴾ [فاطر: ٤١]. ويؤكد لنا ربنا – تبارك وتعالى – أن وجود الإنسان فى هذه الحياة هو لغاية قد حددها له الله فيقول – عز من قائل –:

﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ.. ﴾ [الذاريات: ٥٦] ويوضح لنا ربنا – جلت قدرته – أن هذه العبادة ليست مقصورة على طقوس دينية محددة، بل أن السعى فى عمران الحياة على الأرض عبادة، والسعى فى طلب العلم عبادة، والعدل بين الناس عبادة، وأن السعى فى مصالح الخلق عبادة فيقول – عز من قائل –: ﴿ هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ ذَلُولاً فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ ﴾ [الملك: ١٥]. ويؤكد على ذلك بقوله العزيز:

﴿ وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ [التوبة: ١٠٥].

وفى الأثر أنه «من بات كادا من عمل يده بات مغفوراً له»(١). وأن «تفكر ساعة خير من عبادة سنة»(٢) وأن «عدل ساعة خير من عبادة مائة عام»(٣).

ومعنى ذلك أن المعرفة – فى التربية الإسلامية – لا تنفصل عن الحكمة فهما من وسائل الإيمان الراسخ وفى ذلك يقول ربنا – تبارك وتعالى –: ﴿ يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَن يَشَاءُ وَمَن يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ ﴾ [البقرة: ٢٦٩].

ويقول – عز من قائل –:

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ * وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ وَالْأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَٰلِكَ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ﴾ [فاطر: ٢٧، ٢٨].

والإيمان الراسخ يصدقه العمل الصالح؛ ولذلك قرن ربنا – تبارك وتعالى – الإيمان دوما بالعمل الصالح فى محكم كتابه فقال: «الذين آمنوا وعملوا الصالحات»، وكل من الإيمان الصادق والعمل الصالح يؤدى إلى التزكية المستمرة للنفس الإنسانية حتى تصبح نفساً مطمئنة وكلها من وسائل التربية الإسلامية ومع إيمان هذه التربية الإسلامية بالتخصص الدقيق، ويقينها من فوائده – فإنها لا تعرف فصلاً متكلفاً بين معرفة بالله ومعرفة بما خلق الله، أو بين دراسات دينية منعزلة انعزالا كاملا عن المعطيات الكلية للعلوم، أو معارف كونية منفصلة عن المعارف الإنسانية، أو بين علوم بحتة وتطبيقية منعزلة انعزالا تاما عن بقية المعارف الإنسانية، فالمعارف كلها فى التربية الإسلامية تلتقى على غاية واحدة هى معرفة

(١ : ٣) ذكره ابن عبد البر فى «جامع بيان العلم وفضله».

الله – تعالى – وعبادته بما أمر وحسن القيام بواجبات الاستخلاف فى هذه الأرض، ومصدرها فى هذه المعرفة هو: كتاب الله وسنة رسوله – ﷺ –، ومجالها الكون كله، والإنسان بمختلف أبعاده، والحياة بكل أشكالها وألوانها ومستلزماتها، ومنطلقها ذلك التصور الإسلامى الصحيح عن الإنسان والكون والحياة وعن معنى «لا إله إلا الله»، ويتضح ذلك أكثر ما يتضح في الدراسات الكونية؛ ولذا فإننا نجد القرآن الكريم – ومنذ أربعة عشر قرناً – يحض الناس حضا على الاهتمام بالنظر فى الكون وفي كل مكوناته وأجزائه، وما به من مختلف صور المادة والطاقة والأحياء والظواهر المصاحبة لها، والأخذ بأسباب ذلك كله للتعرف علي الله والقيام بواجبات الاستخلاف فى الأرض، وقد أحصى المفسرون مئات الآيات التى تحض على ذلك ومنها قول ربنا – تبارك وتعالى –:

- ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ﴾ [العنكبوت: ٢٠].
- ﴿لَخَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ﴾ [غافر: ٥٧]
- ﴿خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ بِالْحَقِّ وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ﴾. [التغابن: ٣]
- ﴿مَّا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلاَّ بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى...﴾. [الروم: ٨]
- ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لأُوْلِي الأَلْبَابِ﴾. [آل عمران: ١٩٠]
- ﴿وَفِي الأَرْضِ آيَاتٌ لِّلْمُوقِنِينَ * وَفِي أَنفُسِكُمْ أَفَلا تُبْصِرُونَ﴾. [الذاريات: ٢٠، ٢١]
- ﴿قُلِ انظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾. [يونس: ١٠١]
- ﴿أَوَلَمْ يَنظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ﴾ [الأعراف: ١٨٥]

● ﴿ أَفَلا يَنظُرُونَ إِلَى الإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ* وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ* وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ* وَإِلَى الأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ* فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنتَ مُذَكِّرٌ ﴾.

[الغاشية: ١٧ – ٢١]

● ﴿ فَلْيَنظُرِ الإِنسَانُ إِلَىٰ طَعَامِهِ* أَنَّا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا* ثُمَّ شَقَقْنَا الأَرْضَ شَقًّا* فَأَنبَتْنَا فِيهَا حَبًّا* وَعِنَبًا وَقَضْبًا* وَزَيْتُونًا وَنَخْلاً* وَحَدَائِقَ غُلْبًا* وَفَاكِهَةً وَأَبًّا* مَتَاعًا لَّكُمْ وَلأَنْعَامِكُمْ ﴾. [عبس: ٢٤ – ٣٢]

وعلى ذلك فالتربية فى الإسلام يقترن فيها العلم بالإيمان، والمعرفة باليقين، وكلها وسائل للتعرف على الله عز وجل، وعلى بديع صنعه فى خلقه، حتى يستطيع الإنسان أن يقوم بواجبات الاستخلاف فى الأرض، ويحقق رسالته فى هذه الحياة!!!

(١٠) إن العلم النافع يصدقه العمل النافع، كما أن الإيمان الصادق مقرون بالعمل الصالح، فلا تكفى عقيدة وعلم مجردان عن العمل النافع الصالح، فهذا رسول الله ﷺ يستعيذ بالله من علم لا ينفع فيقول: «اللهم إنى أعوذ بك من علم لا ينفع، ودعاء لا يسمع، وقلب لا يخشع، ونفس لا تشبع، اللهم إنى أعوذ بك من هؤلاء الأربع»[١].

ويقول – صلوات الله وسلامه عليه –: «سلوا الله علماً نافعاً وتعوذوا بالله من علم لا ينفع»، وكان – ﷺ – يكثر من قوله الشريف: «اللهم إنى أسألك علما نافعا»[٢].

ونقتطف من أقواله ﷺ فى هذا المجال ما يلى:

● «إن من أشد الناس عذاباً يوم القيامة عالماً لا ينفعه الله بعلمه»[٣].

● «من تعلم العلم ولم يعمل به تكون الحجة عليه أكبر»[٤].

---

(١) صحيح مسلم ومستدرك الحاكم.

(٢) أخرجه البيهقى فى شعب الإيمان، وابن ماجه فى سننه، ومسلم فى صحيحه.

(٣) رواه الطبرانى فى الصغير والبيهقى فى سننه.

(٤) ابن عبد البر فى «جامع بيان العلم وفضله».

● « تعلموا العلم وانتفعوا به ولا تعلموه لتتجملوا به »[١].

● « تعلموا، تعلموا، فإذا علمتم فاعملوا »[٢].

● « من طلب العلم ليجارى به السفهاء، أو يبارى به العلماء، أو يصرف وجوه الناس إليه أدخله الله النار ». وجاء الحديث فى رواية ابن ماجه بالنص التالى: « لا تعلموا العلم لتباهوا به العلماء، ولا لتماروا بها السفهاء، ولا تخيروا به المجالس فمن فعل ذلك فالنار النار »[٣].

● « لا تعلموا العلم لتباهوا به العلماء، ولا لتجازوا به المجالس، فمن فعل ذلك فالنار. النار »[٤].

● « إن أول الناس يقضى يوم القيامة عليه رجل استشهد، ورجل تعلم العلم وعلمه، وقرأ القرآن فأتى به فعرفه نعمه فعرفها، قال: فما عملت فيها، قال: تعلمت العلم وعلمته وقرأت فيك القرآن. قال: كذبت، ولكنك تعلمت العلم ليقال عالم، وقرأت القرآن ليقال: هو قارىء فقد قيل، ثم أمر به فسحب على وجهه حتى ألقى فى النار »[٥]!.

● « العلم علمان: علم فى القلب فذلك العلم النافع، وعلم على اللسان فذلك حجة الله عز وجل على ابن آدم »[٦].

● « هلاك أمتى عالم فاجر، وعابد جاهل، وشر الشر أشرار العلماء، وخير الخير خيار العلماء »[٧].

ويروى عن عمر بن الخطاب (رضى الله تعالى عنه) أنه نظر إلى المصلين فقال: « ...ولا يغرنى كثرة رفع أحدكم رأسه وخفضه، ما الدين إلا الورع فى دين الله، والكف عن محارم الله، والعمل بحلال الله وحرامه »[٨].

(١ : ٢) ابن عبد البر فى « جامع بيان العلم وفضله ».
(٣) الإمام أحمد فى مسنده، والترمذى فى صحيحه وابن ماجه فى سننه.
(٤) صحيح مسلم. (٥) صحيح مسلم.
(٦) رواه ابن أبى شيبة والحكيم الترمذى عن الحسن مرسلا.
(٧) جاء فى « جامع بيان العلم وفضله » لابن عبد البر من حديث ابن وهب.
(٨) جامع بيان العلم وفضله لابن عبد البر.

وعليه فإن التربية فى الإسلام ليست مجرد كلام يلقن، أو نظريات تطرح، فى معزل عن مجال التطبيق، وواقع الحياة؛ إنما هى ممارسة فعلية تتحد فيها كل الأخلاق والقيم والحكمة التى تقوم عليها، وتتحقق فيها القدوة الحسنة فى المربى، والاتباع الفطن فى المتربى، فهذا هو رسول الله ﷺ يوصى ابن عمر - عليهما رضوان الله - فى حديث يقول فيه: « دينك دينك، إنما هو لحمك ودمك، فانظر عمن تأخذ، خذ الدين عن الذين استقاموا ولا تأخذ عن الذين قالوا: لأن الذين استقاموا قد اقتنعوا عن عقل »[1]، وهذا هو القرآن الكريم يستهجن الأمر بالبر وعدم تطبيقه فيقول ربنا - تبارك وتعالى -: ﴿ **أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلا تَعْقِلُونَ** ﴾ [البقرة: ٤٤].

ويوصينا ربنا - سبحانه وتعالى - بالإيمان والعمل الصالح والتواصى بكل من الحق والصبر فيقول: ﴿ **وَالْعَصْرِ * إِنَّ الإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ * إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ** ﴾ [العصر: ١ - ٣].

(١١) إن التربية فى الإسلام ضرورة إنسانية تقصد لذاتها. لا للمردود المادى أو الاجتماعى الذى يمكن أن يعود على الإنسان من وراء تحصيلها؛ وإن كان ذلك فى حد ذاته ليس مستنكراً لأن الأصل فى التربية الإسلامية أن تكون تأهيلا للفرد لكى يكون قادرا على تنمية نفسه وأسرته ومجتمعه خاصة بعد أن دمرت القوى الاستعمارية كل مقدرات المجتمعات المسلمة، ونهبت ثرواتها، وربطت اقتصاديات تلك الدول الفقيرة بمصالح الدول المستعمرة بعد أن أغرقت تلك الاقتصاديات بالقروض الربوية التى استوعبت فوائدها أغلب دخول تلك الدول الفقيرة التى حرمت من كل أسباب التقدم العلمى والتقنى والاقتصادى، لا لمجرد الترف الفكرى المنفصل عن التطبيق فى الحياة وتحقيق الاستخلاف فى الأرض، القائم على العمل الدئوب من أجل التنمية الشاملة للفرد وللمجتمع وللحياة. فالإنسان الفرد عمره محدود وهو محاسب عن كل لحظة من لحظات وجوده فيما أفناها، وعن كل علم فيما أفاد به، وعن كل مال وصل إلى يديه - من أين

---

(١) جامع بيان العلم وفضله لابن عبد البر.

اكتسبه وفيم أنفقه -؟ ثم إن له بعد هذه الحياة الموت، ومن بعد الموت البعث والحساب، ثم حياة أخرى خالدة يلقى فيها جزاء ما قدمت يداه فى هذه الدنيا!!! وهذا هو رسول الله ﷺ يعلمنا بقوله الشريف: «لا تزول قدما عبد يوم القيامة حتى يسأل عن عمره فيم أفناه، وعن علمه فيم فعل، وعن ماله من أين اكتسبه وفيم أنفقه، وعن جسمه فيم أبلاه»[1]، ويقول - ﷺ -: «والله لتموتن كما تنامون، ولتبعثن كما تستيقظون، ثم إنها للجنة أبداً أو النار أبداً»[2]، وهذا هو التنزيل ينطق:

﴿ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴾ [الأعراف: ١٢٩].

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ ﴾ [الحشر: ١٨].

﴿ يَوْمَ يَنظُرُ الْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ وَيَقُولُ الْكَافِرُ يَا لَيْتَنِي كُنتُ تُرَابًا ﴾.
[النبأ: ٤٠]

هذه الصورة الإسلامية الصادقة للوجود الإنسانى تجعل له معنى لا يمكن أن يتحقق إذا كانت حياته مقصورة على هذه الدنيا فقط، وهى تبعث فى الإنسان الضمير الحى الذى يحاسبه دوماً قبل أن يحاسب، ويزن عليه أعماله قبل أن توزن عليه، فى عملية من المراجعة الذاتية الآنية المستمرة، التى تعمل على تطهير قلبه، وتزكية نفسه، وتدفعه إلى المسارعة فى عملها الخيرات باستمرار، فتحقق معنى التربية الإسلامية بكل أبعادها، فى شمول، وكمال، تعجز كل النظم التربوية الأخرى عن تحقيق شىء منه.

(١٢) هذا التصور الشامل الكامل للإنسان والكون والحياة ولمعنى ألوهية الله الذى يتلخص فى قوله تعالى: ﴿ **قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ * اللَّهُ الصَّمَدُ * لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ * وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ** ﴾ [الإخلاص]، يمثل أساس فلسفة التربية الإسلامية؛ فهذا الخالق العظيم متفرد فى وحدانيته المطلقة فوق جميع خلقه، بغير شريك ولا شبيه، ولا منازع، ولا صاحب ولا ولد، ومنزه تنزيها كاملا عن كل

(١) سنن الترمذى. (٢) ابن عبد البر فى «جامع بيان العلم وفضله».

من المادة والطاقة والمكان والزمان – فهذه كلها من صفات المخلوقين – والخالق – في علاه – منزه عن جميع صفات خلقه في ذاته وصفاته وأفعاله: ﴿ **لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ** ﴾. [الشورى: ١١]، فهو قديم لا أول له، باق لا آخر له، قادر لا حدود لقدرته، عالم لا يخفى شيء عن علمه، عادل لا يفلت ظالم من حكمه، متصرف لا يخرج شيء عن مشيئته، حكيم تتجلى في كل شيء حكمته، رحيم، تعم الكون رحمته، ورعايته وعنايته، هو الكبير المتعال الأول والآخر، والظاهر والباطن سبحانه له الأسماء الحسنى والصفات العليا لا إله إلا هو ولا معبود سواه!!!

هذه بإيجاز هي فلسفة التربية الإسلامية، وهي فلسفة تقوم على التصور الإسلامي الصحيح للإنسان ورسالته في هذه الحياة، عبدا لله خلقه – تعالى – لعبادته؛ ولذلك قال: ﴿ **وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ** ﴾ [الذاريات: ٥٦]، واستخلفه في الأرض للقيام على عمارتها وللعمل على إحقاق الحق وإزهاق الباطل، وعلى إقامة عدل الله.

وتقوم فلسفة التربية الإسلامية أيضا على أساس من الفهم الصحيح للكون ودلالاته ولعلاقة الإنسان به وبخالقهما معاً وهو الله وهذا كله ينعكس بوضوح في تحديد أهداف التربية الإسلامية، ويتراءى في وسائلها، وفي رسم منهجيتها.

ثالثاً: أهداف التربية الإسلامية:

إذا كانت النظم الدنيوية للتعليم تتجه إلى تكوين **المواطن الصالح**، فإن التربية الإسلامية تهدف إلى بناء **الإنسان الصالح** ليبني المجتمع الصالح الذى يعين الإنسان على تحقيق رسالته في هذه الحياة. عبدا لله – تعالى – يعبده بما أمر، ومستخلفا في الأرض لعمارتها وإقامة عدل الله فيها، حتى تنتهي رحلته في هذه الحياة، وشتان بين الهدفين، فبينما الأول يقصر دوره في إطار القومية الضيق –؛ فإن الثاني ينطلق إلى مجال الإنسانية الرحب –، ويؤكد على الأخوة بين الناس، انطلاقاً من قول الحق – تبارك وتعالى –: ﴿ **الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ...** ﴾ ومن قول رسولنا الكريم: «كلكم لآدم، وآدم من تراب»، وهذا المعنى الطيب

معنى الأخوة الإنسانية لم يستطع التعليم الدنيوى تبنيه. بل قد فشل حتى فى مجرد الدعوة إليه.

وبينما يقصر الصلاح فى نظم التعليم الدنيوى المعاصر. على مقدار النفع المادى الذى يمكن أن يعود على الفرد أو على المجتمع الضيق الذى يعيش فيه من اكتسابه لقدر من المعلومات أو لعدد من المهارات. ـ هذا إذا كان النفع المادى المجرد من ضوابط الدين الصحيح يمكن أن يكون صلاحاً!! فإن التربية الإسلامية تضع الصلاح فى إطار يشمل كل الجوانب المادية والمعنوية فى الكون بما فى ذلك من الإيمان الصادق، والعمل الصالح، والعلم النافع، والخلق القويم، وانعكاسات ذلك كله على الحياة بكل أبعادها، وعلى الأفراد والمجتمعات أينما وجد الأفراد، وكانت المجتمعات، ومهما تباينت الألوان والألسنة واللهجات – فالإنسان الصالح الذى يشكل هدف التربية الإسلامية **هو إنسان يعرف ربه** ويدين له بالطاعة والعبادة، **ويعرف نفسه** فيقدرها حق قدرها فى حدود العبودية لله وحده، ولكنها عبودية مكرمة، لأن فيها نفحة من روح الله، مفضلة على سائر الخلق بالعقل، والقدرة على التفكير وعلى الاختيار، **ويعرف رسالته** عبدا لله يعبده – تعالى – بما أمر ويقوم بواجبات الاستخلاف فى الأرض بعمارتها وإقامة شرع الله فيها، ويجتهد فى الوصول إلى الكمال الإنسانى الذى رسمه له الله، اجتهاداً اختيارياً واعياً، مستخدماً فى ذلك كل ما وهبه الله من قدرات، وما حباه به من علم، سواء كان من وحى السماء أو من العلوم المكتسبة فى شتى مجالات المعرفة الإنسانية البحتة أو التطبيقية، أو موروثاً عن هذين المصدرين، وهو فى كل ذلك مطالب بتحكيم العقل، منهى عن التقليد الأعمى والجمود على المفاهيم الخاطئة لمجرد أنها موروثة، ويعرف مصيره بعد هذه الحياة – ، موت ثم بعث ثم حساب عن كل ما قدمت يداه – ، ثم حياة خالدة قدرها له الله، يجزى فيها عن حسن قيامه بتبعات التكليف ومسئوليات الأمانة التى حملها فى هذه الحياة الدنيا.

وإنسان هذا شأنه إنسان يدرك أنه لم يخلق عبثاً، وأن حياته ليست لهواً ولا لعباً، وأنه محاسب عن كل لحظة من لحظات عمره، وعن كل حاسة وجارحة فى جسده، وعن كل نشاط قام به، وعن كل فائدة أفادها علمه، وعن كل مال

اكتسبه أو أنفقه، وعن كل عمل قام به. إنسان يدرك مسئولياته تجاه مجتمعه وأمته وبنى جنسه، ويدرك حقوقه عندهم كما يدرك واجباتهم عليه فى نور ما حدده له الله، إنسان يدرك أن الدنيا مزرعة للآخرة وهو محاسب عن كل ما يزرع فيها، وعن عمرانه لها، إنسان يعمل لدنياه كأنه يعيش أبداً، ويعمل لآخرته كأنه يموت غداً، هذا الإنسان لبنة صالحة لبناء المجتمع الصالح الذى تحكمه خشية الله وتقواه، وكل ما يستتبعه ذلك من فهم وسلوك اجتماعى، لا يمكن لقانون من القوانين الوضعية أن يحقق شيئاً منه. ومجتمع هذا شأنه هو بلا شك أمل البشرية كلها، وهو ليس مجتمعاً خيالياً – ، فقد تحقق فى خلال الأربعة عشر قرناً الماضية تحقيقاً فعلياً واقعياً أكثر من مرة ولا زلنا نطمع فى تحقيقه إن شاء الله بتأسيس حياتنا كلها، وفى مقدمتها نظمنا التربوية على أساس من الإسلام الصحيح.

رابعاً: أسس التربية الإسلامية:

من البدهىّ أن أساس التربية الإسلامية هو الإسلام بشموله، ولكن قد يكون من المفيد التأكيد فى ذلك على عدد من النقاط المحددة التى نوجزها فيما يلى: –

١ – الإيمان الصادق: فالإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، وبالقدر خيره وشره هو ركيزة العقيدة الإسلامية، وهو ضرورة من ضرورات الوجود الإنسانى؛ وذلك لأن العقيدة الموحى بها من رب العالمين هى المصدر الوحيد لمعرفتنا بخالقنا، وبأنفسنا، وبرسالتنا فى الحياة الدنيا وكيف نقوم بها، وبمصيرنا بعد هذه الحياة، ومن العقيدة الصحيحة تنطلق العبادات المشروعة، ودساتير الأخلاق والمعاملات، وهذه مع العقيدة الصحيحة تشكل ركائز الدين الذى يرتضيه ربنا – تبارك وتعالى – من عباده، والدين الصحيح يخبرنا بما لا تدركه حواسنا فى هذا الكون المليء بالغيوب من أمثال الملائكة، الجن، حياة البرزخ، حساب القبر؛ وهذه أمور لا سبيل للإنسان فى الوصول إليها بجهده منفرداً دون هـداية ربانية، وإذا لم يعرفها فإنه يعيش فى حالة من الضياع. والحيرة. والقلق ، أو الانفلات والتحلل والهمجية والفوضى والضياع مما يفسد عليه حياته، ويحرمه

من إمكانية الارتقاء إلى مستوى التكريم الذى رفعه إليه الله، ومن إمكانية القيام برسالته فى هذه الحياة مستخلفا فى الأرض يعمرها ويقيم حدود الله فيها، والإيمان هو وسيلة اتصال العبد بربه، ومصدر إشراق روحه، وطمأنينة نفسه، وسعادة قلبه، وهدوء باله، ومعرفة مصيره، وهى أمور إن خلت منها حياته - فضلاً عن منهجية لتربيته - أتت حياته وتربيته فارغة جوفاء لا خير فيها ولا فائدة منها.

والإيمان من الأمور التى لا يمكن أن تكتسب بمجرد الميراث، بل لا بد للفرد منا من قناعة عقلية فكرية منطقية، وقلبية عاطفية روحية فى آن واحد، تعين على العلم بالدين والالتزام بتعاليمه وهذه من الأمور التى لا يمكن أن يكتفى فيها بالميراث أو بالتلقين اللفظى المجرد.

فالتربية الإيمانية تتطلب شروطاً لازمة فى كل من المربى والمتربى، وفى البيئة وفى الصحبة، كما تتطلب استمرارية من المهد إلى اللحد، وتطبيقاً عملياً فى كل جانب من جوانب الحياة، واتصالا روحياً بين المربى والمتربى لا ينقطع بانتهاء مرحلة الدراسة، وتوفرا للقدوة الحسنة التى يقتدى بها فى التزام أدبى يمكن لهذه الهداية الربانية من التأصل فى قلوب المتربين، فالدين هو أهم قضية فى حياة الإنسان؛ لأن سلوكه فى الحياة ينبعث أساساً من تصوره الصحيح للوجود، ومن معرفته بذاته وبحقيقة رسالته فى هذه الحياة: عبدا لله، يعبده - تعالى - بما أمر، ويجتهد فى حسن القيام بواجبات الاستخلاف فى الأرض بالسعى فى عمارتها وإقامة عدل الله فيها وتقييمه المستمر لدوره فى الحياة؛ وعليه فمن الواجب ألا يستهين الناس بالدين لأن فى ذلك استهانة بحياتهم ووجودهم، وألا يكتفوا بميراثه عن الآباء والأجداد، دون تمحيص شخصى يفضى إلى القناعة العقلية والقلبية الكاملة، والاطمئنان النفسى، وإلا أصبح الدين تقليداً أعمى، وميراثاً محمولاً دون فهم، أو مهملا دون وعى، أو جموداً على عدد من التقاليد البالية التى ليست من الدين فى شىء، وكلها أمور نهى عنها الإسلام العظيم وحرمها.

٢ - العلم النافع : فالإيمان الصحيح يستلزم العلم النافع بشموله : (الوحى السماوى المنزل، والعلم البشرى المكتسب، وتراث الإنسانية الموروث فى هذين المجالين) . والعلم النافع هو كل معرفة تزيد الإنسان صلة بالله، وتمكنه من القيام بواجبات الاستخلاف فى الأرض، وعمران الحياة فيها، وإقامة العدل الإلهى بين الناس؛ فالعلم فى الإسلام مرتبط ارتباطاً وثيقاً بكل من الأخلاق والسلوك، وعليه فتسخير العلم فى صنع أسلحة الدمار الشامل، وأجهزة التصنت والتجسس المختلفة، واستنساخ الأجنة البشرية والعبث بها ليست من العلم النافع، وإنفاق البلايين على رحلات الفضاء - والإنسان لم يكمل بعد معرفته بالأرض، ولم يعمر أغلب مساحاتها بعد،، وملايين البشر لا تزال تتضور جوعاً وعطشاً والتصحر يزداد انتشاراً والبيئة تزداد تلوثاً وتدهوراً - ليست من الإنفاق على العلم النافع؛ على الرغم مما عادت به من معلومات وذلك لأن الدوافع لها ليست العلم بقدر ما هو التسابق بين قوى الشر فى العالم فى محاولات للاستعلاء فى الأرض والتجبر على الخلق والتجسس على عباد الله، كذلك فإن العلم النافع فى الإسلام مرتبط بالعمل الصالح، فهو ليس ترفاً ذهنياً معزولاً عن الحياة ومشاكلها؛ لأن ذلك أيضاً يخرجه عن إطار العلم النافع.

والقرآن الكريم يضع العلم النافع فى مكانة رفيعة، فالله سبحانه وتعالى يصف ذاته العلية بأنه - تعالى - هو « العليم »، وهو سبحانه يكرم أولى العلم بضمهم إليه فى قوله العزيز: ﴿ **شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ وَالْمَلائِكَةُ وَأُوْلُوا الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ ...** ﴾ [آل عمران: ١٨]، وبقوله: ﴿ ... **قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُوا الأَلْبَابِ ...** ﴾ [الزمر: ٩].

والعلم هنا مقصود بشموله؛ لأن الإسلام لا يفصل بين دين مجاله الإيمان بالغيب فقط، وعلم مجاله الإيمان بالملاحظة والاستنتاج أو بالتجربة والملاحظة والاستنتاج فقط؛ لأن الدين فى الإسلام علم، والعلم النافع جزء من الدين، وكلاهما يعتمد على الإيمان بعالمى الغيب والشهادة معاً، وبعالمى العقل والمنطق

الوجدان والشعور معا، غير أن دائرة الدين تشمل البيان الإلهى للإنسان فى القضايا التى يعلم ربنا - تبارك وتعالى - عجز الإنسان عن الوصول فيها إلى أية تصورات صحيحة مهما أوتى من أسباب الذكاء والفطنة؛ وذلك من مثل قضايا العقيدة والعبادة والأخلاق والمعاملات؛ لأن العقيدة غيب مطلق، والعبادة أوامر ربانية مطلقة، والأخلاق والمعاملات ضوابط للسلوك، والتاريخ يؤكد لنا عجز الإنسان دوما عن وضع ضوابط صحيحة له فى أى من هذه المجالات؛ ولذلك فلابد للدين من أن يكون بيانا ربانيا خالصا لا يداخله أدنى قدر من التصورات البشرية لأن الدين يقوم على الحقائق الثابتة، أما العلوم المكتسبة فيقتصر دورها على محاولات الإنسان للتعرف على الحقيقة فى حدود قدرات حسه وعقله، ونسبية زمانه ومكانه؛ وعلى ذلك فقد لا يتوفر له الوصول إلى حقيقة ما إلاّ على مدى طويل جداً قد يستغرق الجيل من وراء الجيل فى عمل جاد دؤوب، وهو يظل يراها فى حدود قدراته على الرغم من ثبوتها واضطراد تأثيرها، فالكون بمكوناته وسننه وقوانينه مجال من مجالات الحق يكتشف الإنسان فيه سنن الله ونواميسه، ويرى حكمته وإتقان صنعه، كما يكتشف دقة ترابط الكون ووحدة بنائه، وكلها تنطق بوحدة الخالق العظيم وتعكس قدرته الفائقة؛ وعلى ذلك لم يكن مستغرباً أن يحض القرآن الكريم الناس على النظر والتفكر والتدبر والتأمل فى كل نواحى الوجود، بلا حدود أو قيود إلا إذا كان فى ذلك إضراراً بالإنسان والحياة؛ فالقاعدة الأساسية فى الإسلام أنه «لا ضرر ولا ضرار» ويحصى المفسرون أن بالقرآن الكريم أكثر من ألف آية صريحة تتعلق بالأمور الكونية، بينما آيات الفقه لا تتعدى المائة والخمسين آية.

ومجالات العلم النافع فى التربية الإسلامية تشمل الوجود كله، والحياة بمختلف أشكالها، ومع تعدد صور النشاط فيها مادية ومعنوية، والمعرفة على تعدد دروبها من المهارات اليدوية، إلى العلوم البحتة والتطبيقية بمختلف مجالاتها، إلى فلسفات العلوم، إلى الدراسات الإنسانية بمختلف لغاتها وآدابها والدراسات السلوكية فيها، والفنون بمختلف أشكالها، إلى الفلسفة، إلى

الدراسات الإسلامية بتعدد أبوابها، والتدرب المنهجى الصحيح على إتقان فرع من هذه المعارف بالمنهجية الصحيحة للتخصص فيه، مع إلمام بشيء من بقية المعارف حتى لا ينعزل الإنسان عنها. وفى ذلك يقول الإمام الغزالى - عليه رحمة الله - فى كتابه الإحياء: الجزء الأول ص٥٢، ص٥٣ ما نصه: «فالعلوم على درجاتها إما سالكة بالعبد إلى الله تعالى، أو معينة على السلوك نوعاً من الإعانة، ولها منازل مرتبة فى القرب والبعد من المقصود، والقوّام بها حفظة كحفاظ الرباطات والثغور، ولكل واحد رتبة وله بحسب درجته أجر فى الآخرة إذا قصد به وجه الله تعالى، ولا تفهمن من غلونا فى الثناء على علم الآخرة تهجين هذه العلوم - يقصد العلوم الدنيوية -، فالمتكفلون بالعلوم كالمتكفلين بالثغور والمرابطين بها، والغزاة المجاهدين فى سبيل الله، فمنهم المقاتل، ومنهم الردء، ومنهم الذى يسقيهم الماء، ومنهم الذى يحفظ دوابهم ويتعهدهم، ولا ينفك أحد منهم عن أجر إذا كان قصده إعلاء كلمة الله تعالى دون حيازة الغنائم فكذلك العلماء».

٣ - الأخلاق الفاضلة:

والأخلاق الفاضلة ركيزة من ركائز الدين الإسلامى وضرورة من ضرورات الوجود الإنسانى، ومن ثم فهى أساس من أسس التربية الإسلامية، ولذلك فإن القرآن الكريم لم يكتف بالتأكيد على مكارم الأخلاق فى مختلف أطرها - الفردية، والأسرية، والاجتماعية، والدولية - فحسب، بل إنه قدم للإنسانية دستوراً أخلاقياً شاملا يوضح العناصر اللازمة لتكوين فكرة دقيقة عن الطريقة التى ينبغى أن نتصور بها معنى الأخلاق، ومن أين نستقيها؟ وبأى شروط تفرض نفسها؟، وما النتائج التى تترتب على موقفنا منها؟ وما المبدأ الذى يجب أن يلهم سلوكنا؟ وبأى وسيلة تنال الفضيلة؟ والإجابة على هذه الأسئلة تشكل نظرية أخلاقية فريدة عمدها الفهم، والالتزام، والمسئولية، والجزاء والبينة والجهد (دراز ١٩٤٨، ١٩٧٤) وإطارها حد أدنى من الأخلاق الفاضلة تفرض على

الإنسان العادى، وما زاد عن ذلك فهو كمال يحث عليه القرآن الكريم، ويدعو إليه، وهو ميدان فسيح يتنافس فيه المتنافسون، وتتفاوت فيه درجات الفضل والمثوبة، وهذه صورة رائعة من صور التيسير الإلهى على الناس حسب جهودهم وطاقاتهم، والحث على التنافس فى الخير يلخصه المولى عز وجل فى حديثه القدسى الذى يقول: «وما يزال عبدى يتقرب إلى بالنوافل حتى أحبه فأكون سمعه الذى يسمع به، وبصره الذى يبصر به، ولسانه الذى ينطق به، وقلبه الذى يعقل به، فإذا دعانى أجبته، وإذا سألنى أعطيته، وإذا استنصرنى نصرته، وأحب ما تعبدنى عبدى به النصح لى»(١).

والإسلام يؤكد على أن الحاسة الخلقية انبعاث داخلى فطرى فى الإنسان؛ لأن القانون الأخلاقى قد طبع فى الجبلة الإنسانية منذ نشأتها: ﴿**وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا* فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا**﴾ [الشمس: ٧، ٨]، غير أن عوامل التربية والبيئة، فى كل من البيت والمدرسة، ووسائل الإعلام، والسلوكيات العامة فى المجتمع والأعراف والتقاليد السائدة فيه وما ينشأ عن كل ذلك من إلف وتعود قد ينمى هذه النوازع الفطرية التلقائية فى الإنسان، أو يفسدها، فإذا فسدت انطفأ نور البصيرة الفطرية.. واختلط على الإنسان الأمر فعاش فى متاهات من التردد والتخبط، والحيرة، والضياع... بدلا من نور اليقين والدستور الأخلاقى الذى حدده له الله!!! وهذه النظرية الأخلاقية فى القرآن ضرورية للقناعة البشرية.، فكما أنه لا عقيدة بدون أخلاق فإنه لا أخلاق بدون عقيدة، والعقيدة هنا تتصل بالأخلاق ذاتها، ومعناها الإيمان بالحقيقة الأخلاقية كحقيقة قائمة بذاتها تسمو على الفرد، وتفرض نفسها عليه بغض النظر عن أهوائه ومصالحه ورغباته (دراز، ١٩٤٨، ١٩٧٤).

وهنا تتضح ضرورة الأخلاق الفاضلة كأساس هام من أسس العملية التربوية، ولذلك فإننا نجد أن التربية الإسلامية فى جميع أبعادها هى فى أساسها

---

(١) رواه الإمام الطبرانى فى الكبير عن أبى أمامة.

تربية أخلاقية هدفها المحافظة على الفطرة الإنسانية السليمة وتنميتها فى الاتجاهات الفاضلة التى حددها لها الله – سبحانه وتعالى –: «ولله المثل الأعلى».

فالأخلاق الفاضلة هى إطار التربية الإسلامية وأساسها، وهى جزء لا يتجزأ من فلسفتها، وأهدافها، ومحتواها، وخططها، وأساليبها ووسائلها وهى – شأنها شأن الإيمان – لا يمكن أن يكتفى فيها بالتوجيه اللفظى المجرد، بل لابد من الممارسة الفعلية المستمرة منذ اللحظات الأولى للإدراك، حتى تترسخ بالإلف والعادة، وباتباع القدوة الحسنة، وبالقناعة العقلية الفكرية، والقلبية العاطفية حتى تغرس فى النفس، وتصبح جزءاً من الكيان الإنسانى؛ وهذه هى سبيل المنهجية الإسلامية للتربية لأن الأخلاق فى الإسلام هى جزء لا يتجزأ من الدين وتكفى فى ذلك الإشارة إلى قول سيدنا محمد ﷺ:

«إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق»[1]، وقوله الشريف «الدين حسن الخلق»[2]، ونفيه الدين عن صاحب الخلق السيء وذلك بقوله «لا دين لمن لا خلق له»[3]، وقوله: «... وأكثر ما يلج به الإنسان الجنة تقوى الله عز وجل وحسن الخلق»[4]، وقوله: «حسن الخلق خلق الله الأعظم»[5]، وقوله «كرم المؤمن دينه، وحسبه حسن الخلق، ومروءته عقله»[6]، وقوله «إن أحبكم إلى وأقربكم منى فى الآخرة محاسنكم أخلاقاً وإن أبغضكم إلىَّ وأبعدكم منى فى الآخرة مساويكم أخلاقا، الثرثارون، المتفيهقون، المتشدقون»[7]، ويكفى أن القرآن الكريم ينعته ﷺ بقول ربنا – تبارك وتعالى – له:

﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم: ٤].

وهنا لابد لنا من التأكيد على أن الأخلاق فى التربية الإسلامية تختلف عنها فى أية تربية أخرى، وإن تشابهت المسميات، وفى ذلك كتب الدكتور السيد محمد بدوى فى تقديمه لكتاب المرحوم الدكتور محمد عبد الله دراز

(١ – ٧) مسند الإمام أحمد.

(دستور الأخلاق فى القرآن) ما نصه « فعلى حين أن الملحد العقلانى يقف نظره عند فكرة جامدة، أو عند مفهوم مجرد، أو عند كيان أخرس لا حياة فيه – نجد أن المؤمن يتعرف فى هذا النداء الداخلى على صوت معبوده، ويترجم فى ثنايا قلبه الرسالة السماوية لخالقه، ونجده خلف الفكرة يلمح حقيقة حية مؤثرة، ويشعر أنه مرتبط بها ارتباطاً عضوياً، ويستمد منها على الدوام القوة والنور، ويشعر نحوها بأعمق مشاعر الاحترام ممزوجة بأرق مشاعر الحب؛ هذه الشعلة العاطفية التى تحرك إيمانه العقلى، تغذى فى الوقت نفسه طاقاته الخلاقة، وهو حين يتوقف أو يسقط لا ييأس من أنه سيعاود الوقوف على قدميه ومتابعة المسيرة معتمداً على تلك القوة الهائلة التى يستمد منها العون وبذلك يمكن القول أن الأخلاق لا تجد مكاناً أكثر خصوبة، تزدهر فيه من ضمير المؤمن » .

تلك هى الأخلاق القرآنية، أخلاق قدوتنا وزعيمنا ومعلمنا محمد بن عبد الله صلوات الله وسلامه عليه « أخلاق فى عقيدة وعقيدة فى أخلاق مصدرها خالق السماوات والأرض ومن فيهن العليم الخبير، وهى الأخلاق التى تتبناها التربية الإسلامية منهجاً، وإطاراً، وهدفاً، وغاية، أخلاق ربانية من نور، تتسم بالتوازن والسوية والاعتدال، وبالحدود الواضحة المحددة، وهى بالقطع مغايرة لكل القيم الوضعية؛ لأن غايتها الله وغايات القيم الوضعية المصلحة المادية الآنية الفانية ولا شيء سواها، وليس معنى أننا نقصد الله بأخلاقنا أن هذه الأخلاق لا تهتم بأمور الدنيا، فعلى النقيض من ذلك تماماً نجدها أساس عمران الحياة على الأرض ووسيلة استقامة الحياة فيها غير أنها حينما تقيم تلك الحياة على أمتن دعائم، وأقوى أسس، فإنها لا تقصدها لذاتها، بل تتعداها إلى ما فوقها إلى الله مالك الملك ومجرى الخيرات وواهب النعم!!! وذلك هو شمول الأخلاق فى التربية الإسلامية شمول يعبر من الدنيا إلى الآخرة بالخير والأمل والنور والرجاء، ومن قلب الإنسان إلى جوارحه بالرضى والقبول والالتزام.، ومن الإنسان إلى الكون كله. بالمواءمة والاتفاق والانسجام.

٤ - العمل الصالح:

من أوضح واجبات الوجود الإنسانى، العمل الصالح، ومن ثم فهو من أهم «أسس التربية الإسلامية» وهو نتيجة طبيعية لكل من الإيمان الصادق، والعلم النافع، والأخلاق الفاضلة، بل هو تجسيد عملى لها جميعاً لأنه لا قيمة لإيمان لا يدعمه عمل صالح ويُحيطه سياج من مكارم الأخلاق، ولذلك فإن القرآن الكريم يقرن الإيمان دوماً بالعمل الصالح فى عشرات من الآيات: ﴿**الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ**﴾ وتردد ذلك فى مواضع عديدة من كتاب الله - تعالى - يؤكد على أنه لا انفصام بينهما؛ والرسول صلوات الله وسلامه عليه يعرف الإيمان بأنه «ما وقر فى القلب وصدقه العمل»(١). وعلى ذلك فإن الإسلام لا يقبل العلم منفصلاً عن العمل، لأن العمل هو وفاء الإنسان بالتزامه تطبيق ما يتعلمه، وعليه فهو مسئول يوم القيامة عن علمه ماذا عمل به؟ والرسول صلوات الله وسلامه عليه يعلمنا ذلك بقوله الشريف: «إذا مات الإنسان انقطع عنه عمله إلا من ثلاثة أشياء من صدقة جارية، أو علم ينتفع به بعده، أو ولد صالح يدعو له»(٢) وبقوله - صلوات الله وسلامه عليه -: «تعلموا العلم فإذا علمتم فاعملوا»(٣) ويؤكد ذلك أيضاً بقوله: «تعلموا العلم وانتفعوا به، ولا تتعلموا لتتجملوا به»(٤) وقوله: «لا يكون المرء عالماً حتى يكون بعلمه عاملاً»(٥). والعمل الصالح فى الإسلام يشمل كل أوجه النشاط الذى يقوم به الإنسان وفاءاًبأعباء الأمانة التى حملها، والتزاماً بواجبات الاستخلاف فى الأرض، فأداء الفروض الواجبة عبادة، والكدح فى الأرض لكسب لقمة العيش الشريفة وعمران الحياة على الأرض عبادة، وطلب العلم عبادة، والتفكر عبادة، والعدل بين الناس عبادة، بل أن كل خير يحققه الإنسان لنفسه، أو لأسرته، أو لمجتمعه، أو لأمته، أو للإنسانية على عمومها إذا كان خالصاً لوجه - الله تعالى - هو صورة من صور العبادة.

---

(١) (٢) الكتب الستة. (٣) سنن الترمذى.

(٤ :٥) ابن عبد البر فى «جامع بيان العلم وفضله».

والعمل الصالح هو تعبير صادق عن مدى إيمان الإنسان، وعلمه وخلقه، بل عن مدى نجاحه فى القيام برسالته فى هذه الحياة الدنيا فالله تعالى يعلمنا بقوله:

﴿ الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً... ﴾.
[الملك: ٢]

وقوله: ﴿ وَأَن لَّيْسَ لِلإِنسَانِ إِلاَّ مَا سَعَىٰ * وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَىٰ * ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءَ الأَوْفَىٰ * وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ الْمُنتَهَىٰ ﴾ [النجم: ٣٩ - ٤٢].

وعلى ذلك فلا يمكن للإيمان، أو للعلم، أو للأخلاق أن تبقى حروفاً تسطر، وألفاظاً تحفظ، ومعانى جميلة تناقش دون أن يصاحب ذلك تطبيق عملى لها فى الحياة، وهذا هو الالتزام الأخلاقى فى التربية الإسلامية، وإذا كان العمل فى بعض الفلسفات الوضعية المعاصرة يقصد لذاته على أنه القيمة الوحيدة في الحياة، فإن العمل - على أهميته - يقصد به فى التربية الإسلامية وجه الله؛ وشتان ما بين الغايتين.

خامساً: المحتوى فى التربية الإسلامية:

من الأسس السابقة يتضح مدى خطأ البعض فى اعتبار التربية الإسلامية مساوية لما هو معروف «بالتربية الدينية عند غير المسلمين» والتى تقتصر عادة على الجوانب الوجدانية والعاطفية فى الإنسان، دون تطرق إلى عللها العقلية، وعلاقاتها بالمنطق والفكر والسلوك، ومسئولياتها عن واقع الحياة العملية وإيجاد الحلول لمشاكل الإنسانية أفراداً ومجتمعات.

من هنا يتضح خطأ البعض فى قصر التربية الإسلامية على الجانب الدينى الخالص - بكل أبعاده الوجدانية العاطفية، والعقلية الفكرية، والعملية السلوكية -، وفصلها عن بقية المعارف الإنسانية، وهذا اتجاه خاطىء انتقلت عدواه إلينا من خارج حدود العالم الإسلامى انطلاقاً من الشعار المطروح هناك «دع ما لله لله، وما لقيصر لقيصر»، لأنهم لا يدركون حقيقة أن قيصر وغيره لا يملكون شيئاً من ملكوت الله، وأنه وغيره من الحكام لا بد أن يحكموا بما أنزل الله؛ ولذلك انقسمت المعارف عند غير المسلمين إلى دينية ودنيوية، وتضاءلت المعارف الدينية

حتى تقلصت على هيئة ترانيم وتراتيل، وأغان وألحان وموسيقى يؤدونها أحياناً بلغات لا يفهمونها، ولا يعقلون دلالاتها، واتطلقت المعارف الدنيوية مستقلة عن الدين بغير هداية ربانية فأضلت وأضلت على الرغم من كل ما حققته من انتصارات فى مجال المعارف البحتة والتطبيقية.

والتربية الإسلامية هدفها تكوين «الإنسان الصالح» القادر على بناء المجتمع الصالح، وعلى تنميته باستمرار، وعلى الوقوف فى وجه الباطل مهما كانت قوته، لا «الإنسان المتدين فقط» فالتدين إذا لم ينعكس علي الإنسان ومحيطه صلاحاً، ونورا، وهداية، وإشراقاً فلا قيمة له، وعلى ذلك فإن الرسول الخاتم صلوات الله وسلامه عليه يقول: «والله لقد سبق إلى جنات عدن أقوام ما كانوا بأكثر صلاة ولا صياما ولا اعتمارا ولكنهم عقلوا من الله مواعظه فوجلت قلوبهم، واطمأنت إليه النفوس، وخشعت منهم الجوارح ففارقوا الخليقة بطيب المنزل، وبحسن الدرجة عند الناس فى الدنيا وعند الله فى الآخرة»[1]. والإنسان الصالح هو الذى يعرف ربه فيعبده حق عبادته، ويعرف نفسه عبدا لهذا الخالق العظيم الذى كرمه وفضله على كثير ممن خلق تفضيلا، واستخلفه فى الأرض لفترة محددة هى عمره ليجتهد فى عبادة الله خلالها بما أمركما يجتهد فى عمارة الأرض وإقامة عدل الله فيها حتى يثبت فى نهاية عمره جدارته بالجنة أو استحقاقه للنار. وإذا علم الإنسان ذلك، وقدره حق قدره، عرف تفاصيل رسالته في الحدود التي وضعها له الله، فيقوم بها حق قيام، ويؤمن بأن ذلك كله يستلزم علماً بالكون ومن فيه وما فيه، ودراية بأساليب عمرانه وازدهار الحياة فيه فيقبل على دراسة الكون بما فيه من الإنسان، والحيوان، والنبات، والجمادات، وعلى دراسة المادة وخصائصها، والطاقة بمختلف صورها، والظواهر الفطرية والسنن التى تحكمها، والأرض بكل ما فيها، وأجرام السماء على عظم اتساعها، ووحدة بنائها من أدق دقائقها - وهى الذرة - إلى أكبر وحداتها - وهى المجرة -، وهذا مجال العلوم البحتة فى المعرفة الإنسانية، وتطبيقاتها فى كل ما يحتاجه الإنسان لعمران الأرض

(١) منتخب كنز العمال فى هامش سنن الإمام أحمد (١٧٢/١).

وتيسير وسائل العيش فيها، من نشاطات زراعية وصناعية، وتجارية وسياسية، ورياضية، وطبية، وتطويع السنن الكونية وتسخيرها فى خدمته وكل ما يستلزم ذلك من مهارات ذهنية ويدوية يشكل مجال العلوم التطبيقية، وكلا المجالين: العلوم البحتة، والعلوم التطبيقية من المجالات الهامة فى حياة الإنسان على الأرض، ومن ثمّ فهما من المكونات الأساسية للتربية الإسلامية لأنهما يشكلان وسيلة إعمار الحياة على الأرض واستخراج ما أودعه الله – تبارك وتعالى – فيها من خيرات يحتاجها الإنسان فى حياته عليها.

من ذلك يتضح أن التربية الإسلامية لابد أن تشمل الدراسات الدينية العقيدة، العبادات، الأخلاق، المعاملات كما وردت فى القرآن وعلومه، وفى الحديث ودراساته، وفى الفقه وتشريعاته – ، والدراسات الإنسانية – اللغات وآدابها، علوم التاريخ والاجتماع، والنفس والتربية والفلسفة، والفنون على تباين صورها، والاقتصاد، والإدارة، والسياسة، والإحصاء، والمحاسبة وغير ذلك من العلوم السلوكية –، ودراسات العلوم البحتة – الرياضيات، الفيزياء، الكيمياء، علوم الحيوان والنبات، علوم الأرض، علوم البحار والمحيطات، علوم الفلك – ودراسات العلوم التطبيقية – الطب بفروعه، والصيدلة بمجالاتها، والهندسة بمختلف تخصصاتها، الزراعة ونشاطاتها، والطب البيطرى بفروعه. إلخ، وكل ما يمكن أن يستجد من المعارف النافعة، التى تلبى حاجات الإنسان الدينية، والعلمية البحتة والتطبيقية، والسلوكية الوجدانية العاطفية .، على أن تبقى مصادرها – كما سبق أن أسلفنا – الوحى السماوى المنزل، والعلم البشرى المكتسب عن طريق النظر والتأمل والتفكر والتدبر وتحكيم العقل، وتراث الإنسانية فى هذين المجالين الخالى من التقليد الأعمى والجمود، وهى كلها تتعاون فى مد الإنسان بالمعرفة اللازمة لوجوده فى كل من عوالم الشهادة، والغيب، والوجدان، معرفة موحدة، متصلة، مترابطة تلتقى على التصور الكلى الشامل للإنسان والكون والحياة، ولمعنى العبودية لله الواحد الأحد الفرد الصمد، والجامع للدنيا والآخرة فى معادلة واحدة لا تنفصم ولا تنفصل، والمؤكد على وحدة

رسالة السماء، وعلى الأخوة بين الأنبياء، وعلى وحدة الجنس البشرى كله التى أكدها ربنا - تبارك وتعالى - بقوله العزيز: ﴿ ... **الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ** ... ﴾.

وبقول نبينا الكريم - صلوات الله وسلامه عليه -: «كلكم لآدم وآدم من تراب». والمؤكدة أيضاً على ضرورة الرفق بمخلوقات الله من الأحياء والجمادات بمختلف صورها وهيئاتها التى سخرها ربنا - جلت قدرته - للإنسان وجعله مؤتمنا عليها. وهذه المعارف لا يمكن لبشر مهما أوتى من القدرة أن يستوعبها كلها ومن هنا وجب التخصص لكل حسب ميوله، وملكاته، وقدراته، ولكن قبل التخصص لا بد للإنسان من التربية الشاملة التى تعده لذلك. وأقول: الشاملة لأنها لا بد أن تشمل كل ملكاته الجسدية والعقلية والنفسية والروحية فتنميها، وتغذيه بالمعرفة اللازمة لفهم رسالته فى الحياة فتؤكدها وتكتشف ميوله فتوجهه إلى التخصص الذى يتلاءم مع تلك الميول دون أدنى قدر من الإجحاف أو التعسف.

سادساً: أساليب التربية الإسلامية:

إذا كانت فلسفة التربية الإسلامية تتميز بالشمول والتكامل والتوحيد والتسامى فإن أساليبها تتميز كذلك بالتعدد والتنوع فى شمول، وتكامل، وتوازن، وإيجابية سوية، ومثالية واقعية وقد يتخيل البعض أن الدعوة إلى العودة بالتربية إلى منهجها الإسلامى يستلزم انغلاقاً عن أساليب التربية الحديثة، وعودة إلى الأساليب البدائية فى التربية، وإهمال منجزات الإنسان فى هذا المجال الحيوى عبر القرون الطويلة الماضية، وهذا وهم خاطئ؛ لأن الإسلام يعتبر الحكمة ضالة المؤمن، ويؤكد على أنه أنَّى وجدها فهو أولى الناس بها، ويرى أن المعرفة النافعة هى تراث الإنسانية كلها، وصورة من صور الحق الذى تجب صيانته والمحافظة عليه، فكل تقدم يتحقق فى أساليب التربية ووسائلها نحن أولى الناس بالمسارعة إليه والأخذ به بعد تحقيقه ودراسته والتأكد من موافقته لفلسفة التربية الإسلامية وأهدافها.

واللقاء العرضى فى الأسلوب بين التربية الإسلامية وغيرها من نظم التربيةهو لقاء فى جزئية من الحق، وفى بعض جوانبه، ولكن تبقى التربية الإسلامية تربية ربانية متميزة، وفى ذلك كتب قطب (١٩٧٤، ص ١٣) ما نصه: « إن البشرية لم تعرف فى تاريخها كله نظاماً بهذه السعة وهذا الشمول وهذه الإحاطة بحيث لا يند عنه شيء فى حياة الإنسان، ولا لحظة من حياته لا تقع فى محيط منهاجه الشامل الدقيق وتظل له مزية أخرى فوق ذلك: هى أن هذه السعة وهذه الإحاطة لا تخرجان به عن وحدة الهدف ووحدة الطريق فهو ليس طرائق قدداً كل منها يؤدى إلى غاية منفصلة ويجذب النفس فى اتجاه، فتتمزق بين الشد والجذب؛ وإنما هو طريق واحد وغاية واحدة تجمع كل شتات النفس وتوحدها فتستقيم على النهج، وتتجمع على الغاية فتلتقى النفس من داخلها فى سلام بعضها مع بعض، وفى سلام من خارجها مع الكون والناس والحياة ».

وفى ذلك أيضاً كتب الجمالى (١٩٦٧، ص ١٤٨) موجزاً رأيه فى التربية القرآنية، بعد تفصيل مسهب بقوله: «إنى لا أعرف كتاباً فى التربية قديماً كان أو حديثاً يحوى الثروة التربوية العظمى فى الأهداف والمحتويات والأساليب مقرونة بالتسامى والواقعية والشمول والإتزان كالقرآن الكريم ».

ومن أساليب التربية فى القرآن الكريم أسلوب التربية بالتلقين والمحاكاة، وباتباع القدوة، وبالتعليم، والممارسة والتعود، وبالعمل، وبالتكرار، وباستعمال المنطق والمحاكمة العقلية، وبالتأثير فى النفس وإثارة العواطف، وباتباع أسلوب القصة والبيان المعجز، والحوار، والمسألة، والوعظ وضرب الحكمة، واستعراض الأمثال، وتقرير الواقع، واستخلاص العبرة واستخدام الحس فى التأمل والتفكر والتدبر، والمعاونة على اكتساب شفافية الروح، والتواصى بالحق والتواصى بالصبر، والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، وأسلوب الترغيب والترهيب، والبشارة والنذير، وأسلوب المكافأة والتشجيع والتعزير والقصاص، وقبول التوبة والغفران.

تلك هى بعض أساليب التربية الإسلامية كما وردت فى القرآن الكريم، وهى تتعاون كلها فى تحقيق هدف واحد هو تربية الإنسان الصالح، ويستخدم منها ما يتلاءم مع طبيعة كل إنسان، وإمكاناته الشخصية، وظروفه النفسية، وعمره، وقدرة إدراكه، غير أن التعليم بالعمل يبقى من أهم أساليب تلك التربية الإسلامية، فتكوين الأخلاق الفاضلة لا يتم بالوعظ فقط، ولا بالحفظ وحده، ولا بالإقناع العقلى بمفرده، بل يحتاج إلى ممارسة فعلية يقوم بها الإنسان حتى يتعود هذه الأخلاق الفاضلة فتصبح جزءاً من كيانه وطبيعة فيه لا يطمئن قلبه بغيرها، ولا يرتاح ضميره إذا خرج عليها، فتعود المرء على النظام والأمانة، وضبط النفس، والتعاون مع غيره، والتسامح مع المخالفين له، والتضحية فى سبيل المجموع يتطلب مراناً وممارسة من الإنسان طوال حياته حتى تتأصل تلك الخصال فيه، وهذا هو أسلوب الإسلام فى التربية بالعبادة؛ فالنطق بالشهادتين، وإقامة الصلاة على أوقاتها، وإيتاء الزكاة كاملة فى حينها ، وصوم رمضان وحج البيت لمن استطاع إليه سبيلاً، والجهاد فى سبيل الله، فى طهارة مادية ومعنوية كاملة هى بعض أساليب تلك التربية الإسلامية، ولو اتجه المتخصصون إلى استعراض آيات القرآن الكريم وفهمها لخلصوا منها إلى صور عديدة مشرقة لأساليب هذا النهج الربانى فى التربية الذى يتميز بإتزان محكم دقيق، وكيف لا ؟ وهو من الله خالق الإنسان ومبدع الوجود!!!

فالإسلام حينما يهتم بتربية الجسد بالغذاء فهو يعطيه إياه بالقدر المضبوط الذى لا يضعفه ولا يتخمه، وهو حين يهتم بالرياضة يحددها فى الإطار الذى لا يلهيه، ولا يغويه ولا يفسده، وحين يأخذ بالتربية العسكرية يجعله يقبل عليها حماية لدينه، ودفعا لجور الجائرين، ولطغيان الطاغين ولظلم الظالمين لا استعلاء على الناس أو تجبراً فى الأرض، وهو حينما يؤكد على القيام بالعبادات يؤكد على ذلك بالقدر اللازم لصلاح أمره دون رهبانية وانقطاع عن الحياة أو انشغال بأمور الدنيا عن الآخرة، وحينما يهتم بالعمل الجاد الصالح يؤكد عليه دون مبالغة مهلكة، أو كسل مفسد، وحين يهتم بالجسد إذا مرض يوصى بالعلاج الناجح، دون مبالغة أو تفريط .

والتربية الإسلامية إذ تهتم بالجوانب الروحية فى الإنسان، وتربيها بالعبادة فإنها تربطه فى ذلك بخالقه، فلا يترك لنفسه فى الشدة حتى تقضى عليه؛ لأن له رباً يلجأ إليه، ولا يطغيه الرخاء فيتجبر فى الأرض؛ لأنه يعلم أن الخير كله من الله وأن مرده إليه، وتعوده التسليم فى القضاء بالرضا لأنه لا راد له، ولا فائدة من الانهيار أمامه، وتنشئه على حب الحياة على أنها مضمار للتسابق فى الكمال الإنسانى بالاختيار الواعى، لا دار جشع وطمع وحب فى السيطرة والتملك بغير حق، وعلى أنها دار فناء لا دار خلود وبقاء، وتنشئه كذلك على حب الناس وخفض الجناح لهم، والعمل على نفعهم - ؛ «لأن الخلق عيال الله وأحبهم إليه أنفعهم لعياله»، وفى نفس الوقت تعوده الاستعلاء على كل جبار فى الأرض لأنه لا ألوهية لغير الله، ولا سلطان فى هذا الوجود لأحد سواه هو مالك الأنفس، لا يأخذها غيره، وواهب الأرزاق لا يبسطها إلا هو!!!

ومن أساليب التربية الإسلامية للنفس البشرية تعويدها على النظام والطاعة وعلى العبادة المنتظمة، وتأديبها بتخللها بالوعظ والإرشاد، وبمحاسبة النفس ومراجعتها فى كل أمر، وباستنفار الطاقات المختلفة فيها وإثارة عواطفها بالترغيب والترهيب، وبالرجاء والخوف، وبالحب والكره، وبالواقع والخيال، وبالمحسوس المدرك والغيب المنبأ عنه، وبالمادية والمعنوية، وبالفردية والجماعية، وبالالتزام والتطوع، وبقبول التوبة والغفران وبغير ذلك من الأساليب المشروعة.

سابعاً: وسائل التربية الإسلامية:

تتعدد وسائل التربية الإسلامية بتعدد أساليبها، فهى تستخدم كل وسيلة ...نها من غرس الإيمان فى النفوس البشرية بالتزام العبادة لله - تعالى - وحده، ...عة لأوامره واجتناب نواهيه، وتكوين عاطفة قوية دافعة إلى السلوك بموجب ...مان؛ وذلك باتباع القدوة الحسنة، وباستخدام الحكمة والموعظة المساقة ...الطيبة والأسلوب الرقيق والمدعمة بالحجة المنطقية الواضحة، وبالاقناع ...ان حاجة الإنسان دوماً إلى الله وإلى رحمته ورعايته، وبالأمر بالمعروف

والنهى عن المنكر وبحسن توجيه الطاقات البشرية وملء الفراغ فى حياتها بالأعمال البناءة، وبسرد الأحداث والعبر، وبالجزاء والمثوبة، وبالتعزير والعقوبة، وبالعلم فى مختلف ميادينه خاصة بالقرآن الكريم وما به من إعجاز بيانى وعقائدى، وعبادى وأخلاقى وتشريعى وتربوى وعلمى وتاريخى وإنبائى وحفظى، ونفسى؛ مما يؤكد على أنه لا يمكن أن يكون إلا من صنع الله، وكذلك استخدام نتائج العلوم الحديثة فى تأكيد حاجة الإنسان والكون إلى خالق عظيم، مغاير فى صفاته وأحواله لهما، والتعرف على شيء من حكمته وعلمه استنتاجاً من بديع صنعه، والتأكيد على رعايته لهذا الكون بما فيه ومن فيه، وعلى حاجة الجميع إلى تلك الرعاية فى كل لحظة من لحظات الوجود.

وقبل ذلك وبعده فإن من وسائل التربية الإسلامية وصل الناس بالله، وإزالة العوائق التى يمكن أن تحول دون ذلك بالدعوة المستمرة إلى طريقه بالحكمة والموعظة الحسنة، سيراً على درب الأنبياء واقتداء بهم، وعملا على تطهير المجتمعات الإنسانية من كل ما يمكن أن يحول دون ذلك.

ومن وسائل التربية الاسلامية تدريب العقل الإنسانى على كل من طرائق الاستدلال باستخدام المنطق والمحاكمة العقلية، وعلى المنهج العلمى المبنى على الملاحظة والاستنتاج أو التجربة والملاحظة والاستنتاج، واستخدام ذلك فى التعرف على نواميس الكون وتسخيرها فى عمران الحياة على الأرض والسعى الجاد المخلص من أجل ازدهارها وإقامة عدل الله فيها.

والتربية الاسلامية فى ذلك لا تترك الانسان لحدود فكره وحسه فقط بل تعطيه قدراً من المعرفة بالغيب المحيط به من مثل حقائق وجود الله، والملائكة، والجن، والروح، وحياة البرزخ، وحساب القبر، وحتمية البعث والحساب والجزاء، والخلود فى الحياة الآخرة إما فى الجنة أبدا أو فى النار أبدا.

وهذا القدر من معرفة الغيب يعين الإنسان على فهم رسالته فى الحياة ومعرفة مصيره بعدها، وهى من القضايا التى إذا لم يعرفها الإنسان لا يمكن له القيام بواجباته فى هذه الحياة، ولا معرفة بحقوقه ومسئولياته فيها.

ثامناً : منهجية التربية الإسلامية :

إذا كانت فلسفة التربية هى مجموع الفكر المنطقى الذى يقوم عليه نظام تعليمى معين، له أهدافه، وأسسه، ومحتواه، وخططه وأساليبه ووسائله، وإذا كانت أهداف التربية تتلخص فى الغاية منها فإن منهجية التربية هى مجموع الإجراءات التى تتبع فى تربية الانسان لتحقيق الغاية المنشودة، وتجسيد الفلسفة التى تقوم عليها واقعاً حياً يتحرك بين الناس . . .

والمنهجية غير المنهاج، وإن كان أصلهما اللغوى واحداً فـ (النهج) و(المنهج) و(المنهاج) لغة هو الطريق الواضح، ولفظة (المنهج) فى التربية قد قصرت على مجموع الموضوعات التى تختار فى كل مادة من جهة النوع والكم، و(المنهاج) تفصيل لخطة الدراسة التى تهتم بتعيين المواد الدراسية المختلفة، وتوزيعها على مراحل التعليم المتتالية، وعدد الدروس اللازمة لكل مادة فى كل مرحلة من هذه المراحل، وفى كل صف من صفوفها، بينما المنهجية تشمل الطرق التى تتبع فى تربية الإنسان – أسسا، ومحتوى، وخططاً، وأساليب، ووسائل –، وهى على ذلك أشمل من المنهاج وأكمل وأعم.

وكما أن فلسفة التربية الإسلامية تتسم بالشمول، والتوحد، والدعوة إلى التسامى باستمرار . ، فكذلك منهجيتها . لها شمول – فى توازن محكم – يجمع فى الإنسان الفرد بين الروح والعقل، والنفس والجسد، وهذا الشمول ليس شمولاً قى المحتوى فقط بل هو شمول فى الزمان من المهد إلى اللحد وفى المكان، من البيت إلى المسجد، إلى المدرسة، إلى المجتمع وإلى العالم كله، وفى صنوف المعرفة – ربانية ومكتسبة وموروثة –، وفى الوسائل والأساليب الكتاب، المحاضرة، الندوة، البحث، الدراسات الميدانية والمخبرية شبكة المعلومات الدولية (العنكبوتية) والحوارات الحية عليها (حوارات الأنداد) إلخ؛ بل وفى المتربين مع تباين قدراتهم كما سيرد تفصيل ذلك.

وكما توحد فلسفة التربية الإسلامية بين أجزاء الكون توحيداً يتوجه

بالخضوع لله وحده، فكذلك منهجية التربية الإسلامية فى تطبيقها تجمع بين المادة والروح، وتؤكد على التلازم بينهما وبين الأخلاق، وبين الإيمان والعلم، وتؤكد على ربطهما بالعمل الصالح، وبين عبادة الله وبين السعى فى عمران الحياة؛ باعتبارهما صورة واحدة من صور العبادة، يلتقى فيها الفكر المتأمل الخاشع، والعمل البدنى الكادح، والوقوف فى محراب الصلاة، كما تجمع بين تطلع الإنسان إلى السماء، وبين ارتباطه بالأرض باعتبارهما من أبعاده البشرية، وبين دنيا الإنسان وبين آخرته باعتبار الدنيا رحلة إلى الآخرة، وبين الإنسان وبين غيره من بنى جنسه؛ باعتبار أنهم أخوة وأخوات ينتهى نسبهم جميعا لآدم وآدم من تراب، وبين الإنسان وبين الكون؛ باعتبار الإنسان جزءاً من الكون، وإن تفرد بالاستخلاف فيه، وبين الكون وبين مكوناته – من مادة وطاقة وزمان ومكان – والتى تتناهى إلى شيء واحد لا نعرف كنهه ولكنه يمثل الوحدة العظمى التى تجرى فى هذا الكون المذهل فى اتساعه الموحد فى لبناته، المتعدد فى هيئاته وبين خضوعه لخالقه العظيم الذى يتوحد فى عبادته كل موجود وذلك بقول ربنا – تبارك وتعالى –:

﴿تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَالأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِن لاَّ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ...﴾ [الإسراء: ٤٤].

والتسامى فى منهجية التربية الإسلامية مناطه أن الإنسان هو المخلوق الحى، العاقل، القادر، المختار، المكلف، والمكرم فوق جميع الخلق، والمزود بملكات متعددة، والمؤيد بالرسالات السماوية، والذى سخر الله له الكون لتمكينه من تحقيق الرسالة السامية المنوطة به، والقيام بتبعات الاستخلاف فى الأرض، والاجتهاد فى الكمال الإنسانى باعتباره، اجتهاداً عالماً واعياً، يدعمه فى ذلك الإيمان بالله، والإقرار بوجوده ربا واحدا أحدا فردا صمدا بغير شريك، ولا شبيه ولا منازع، ولا صاحبة، ولا ولد، وإلها منزها عن المكان والزمان والمادة والطاقة وعن جميع صفات خلقه، واليقين من اطلاع هذا الإله على أعمال الناس ما ظهر

منها وما بطن، والتسليم بأن الحياة، والموت، والبعث، والنشور، والحساب والآخرة والجنة والنار حق... لا مرية فيه ولا جدال...!!!

وتعرف منهجية التربية: بأنها مجموع السياسات والخطط التى تتخذ فى أية عملية تربوية، والسياسة التربوية هى الإطار الذى تحدد فيه كل دولة من الدول اختياراتها الرئيسية فى مجال التربية، وهى تصاغ كتابة من قبلها، أو من قبل المفوضين منها للقيام بهذه المهمة مع مشاركة أفراد الأمة فى وضع تلك السياسة أو الحصول على موافقتهم الضمنية عليها؛ فالسياسة التربوية لا بد أن تعبر عن عقيدة الأمة، وقيمها، وأهدافها الرئيسية من الحياة، وتصورها للمستقبل؛ وعلى ذلك فلا بد فى تحديد السياسة التربوية من التأكد من أن أهدافها المحددة مستخلصة من الاتجاهات العامة لسياسة البلاد، ومتمشية مع كل من أهدافها العامة والخاصة بكل قطاع من قطاعاتها، وفى ذلك كتب «فور» ومن معه (١٩٧٤، ص ٢٣٤) ما ترجمته: «إن السياسة التربوية لا تنحصر فى رسم بعض المبادىء التوجيهية العامة بل لابد من أن تشتمل على مجموعة من الأهداف الخاصة المترابطة فيما بينها ترابطاً قوياً؛ ومن بينها الأهداف ذات الطابع الروحى والفلسفى والثقافى، مما يقدم فكرة واضحة عن مفهوم الإنسان، ويعمد بعد هذا إلى تحديد الأهداف السياسية المتماشية مع الاختيارات القومية الكبرى.. ويمكن بعد ذلك تحديد الأهداف الاجتماعية والاقتصادية التى تتضافر فيما بينها لتحقيق الغاية المنشودة، طبقاً لفلسفة المجتمع فى الحياة، ولمتطلبات التنمية. وبعد هذا تحدد الخطوط العريضة للأهداف التربوية التى هى الشرط الأساسى لتحقيق الأهداف الأخرى المرسومة من أجل تنمية البلاد، وأخيراً تحدد الأهداف المحصورة فى النطاق التربوى، ويجب أن تعبر تعبيرا صادقاً عن الاتجاهات السائدة فى المؤسسات التربوية وفى التعليم على اختلاف مراحله. وبعد تحديد الأهداف، لا يكفى إدراجها فى قائمة، بل لا بد من تصنيفها بحسب الأسبقية، وتسجيلها ضمن مخطط متماسك، وعندئذ فقط يمكن أن تطلق عليها تسمية السياسة التربوية».

أما الاستراتيجية فتعرف بأنها صياغة الاختيارات فى مجموعة من الإجراءات لتحديد ما يجب عمله تبعاً للحالات التى قد تعرض فى المستقبل، وليس المقصود بالاستراتيجية هو مجرد الانتقال بالمبادىء إلى الصعيد العملى حتى تصبح واقعاً ملموساً، بل تقديم العناصر التى يمكن الاعتماد عليها فى التخطيط لانجاز الأهداف، والاستراتيجية هى الحلقة الوسطى بين السياسة من جهة ومنهج التخطيط من جهة أخرى، ولكى تقوم الاستراتيجية التربوية بدورها كاملا لا بد أن تكون شاملة لجميع أشكال التربية ومختلف مستوياتها، ومتكاملة مع الأهداف السياسية والاجتماعية والاقتصادية، وطويلة المدى بدرجة معقولة، وعلى قدر من المرونة يسمح لها بمسايرة تطور الاختيارات السياسية، كما يجب أن تكون مضبوطة ضبطاً دقيقاً حتى يمكن للتخطيط أن يقوم على أسس سليمة، وديناميكية تأخذ بعين الاعتبار عمليات التطور المبدع والتجديد بصورة مستمرة.

أما التخطيط فالهدف منه هو تيسير مهمة اتخاذ القرارات، وهو لا ينحصر فى تحديد مجموعة الأهداف والسعى لتحقيقها فقط، بل لا بد له من انتهاج طرائق معينة مدروسة، وتوفير الوسائل اللازمة للنجاح. ومن الضرورى أن يكون التخطيط عملية متطورة ومتواصلة وذلك لأن الواقع الاجتماعى فى تغير مستمر، وكذلك وسائل الإيضاح، وكم ونوع المعلومات المتجمعة فى كل وقت، ووسائط التحليل والتقييم فى تحسن وتطور دائمين.

وليس المقصود بالتخطيط هنا هو التحكم فى العملية التربوية تحكماً قِمِّياً يشل من فاعلياتها، وإنما رسم الإطار العام لضمان التوحيد، مع ترك قدر كبير من الحرية للقائمين فعلاً بالعملية التربوية، وفى ذلك كتب (فور) ومن معه (١٩٧٤، ص ٢٣٦) ما ترجمته: «على أن التخطيط سوف يزداد أهمية إذا ما توسع وخرج عن نطاق المدرسة ليشغل جميع ميادين التربية شريطة ألا يقع المسؤولون فى نظام الإدارة التوجيهية المستبدة، وأن لا يخلطوا بين التخطيط الشامل المفيد، والتخطيط الكلى الاستبدادى المضر».

من هذا العرض يتضح لنا أنه لا يمكن للتربية الإسلامية الشاملة أن تقوم فى ظل حكم غير إسلامى، وفى نفس الوقت لا يمكن لحكم إسلامى أن يقوم بغير تربية إسلامية شاملة، وعلى ذلك فلا بد من كسر هذا الطوق الدنيوى الدهرى غير الإسلامى الذى فرض على الأمة الإسلامية، وأيسر الطرق إلى ذلك هو العمل على إقامة مؤسسات التربية الإسلامية الشاملة من رياض الأطفال إلى الجامعات بجهود شعبية هدفها تربية الشباب المسلم الذى يخرج للحياة رافعاً راية القرآن فى ذاته وفى أهله وفيمن حوله حتى يقيم شرع الله فى الأرض؛ لأن الحكومات فى غالب الدول العربية والمسلمة قد استسلمت لأوامر الدول الغربية وفى مقدمتها الولايات المتحدة الأمريكية، وهذه الدول الغربية هى - فى غالبيتها الساحقة - دول دنيوية، كافرة أو مشركة فصلت كلا من التعليم والعلم عن الدين فصلا كاملا، فانحطت أخلاقها وسلوكياتها انحطاطاً شديداً وتريد فرض نظمها وقيمها الهابطة وسلوكياتها المنحطة على غيرها من دول العالم الثالث وفى زمرتها الدول العربية والمسلمة؛ ومن هنا فلا بد وأن يأتى التغيير من الشعوب لأنه لا أمل فى حكوماتنا الراهنة إلا أن يهديها الله رب العالمين.

ومن هذا العرض أيضاً يتضح أنه لا يوجد فى الوقت الحاضر سياسة تربوية إسلامية بمعنى قيام العملية التربوية بمختلف مستوياتها، وتعدد نشاطاتها عل التصور الإسلامى الصحيح للإنسان والكون والحياة، ولمعنى ألوهية الله باستثناء بعض المبادرات الخيرة التى تنشط بصورة محدودة فى أجزاء متناثرة من العالم الإسلامى، وتبعاً لذلك لا توجد استراتيجية محدودة ولا تخطيط مقنن، ولكن انطلاقاً من فلسفة التربية الإسلامية وأهدافها. وقياساً على نظمها الرائدة التى حققت من النجاح ما لم تستطع نظم التربية المعاصرة تحقيقه - بكل إمكانياتها المادية، وبكل ما تجمع لها من التجارب التربوية - انطلاقا من ذلك كله يمكن وضع خطوط عريضة لما يجب أن تكون عليه التربية الإسلامية فى وقتنا الحاضر - بكل تحدياته - فى النقاط التالية:

(أ) فى نطاق النظم التربوية :

تهتم التربية الإسلامية كنظام تربوى بالنقاط الرئيسية التالية :

١ - الاهتمام بالتربية قبل المدرسة : تتميز التربية الإسلامية بأنها فى أساسها تربية إنسانية تدرك قيمة الإنسان، وتجعله من حيث هو محور العملية التربوية وهدفها وغايتها، ولما كان الإنسان لا يخضع فى سلوكه لتكوينه الداخلى وصفاته الموروثة فقط، بل يخضع أيضاً فى ذلك إلى العوامل الخارجية فى بيئته المحيطة به، والتى تتفاعل معه، ويتفاعل معها، يؤثر فيها وتؤثر فيه فإن التربية الإسلامية لا تقصر اهتماماتها فى إطار المعهد التعليمى فحسب؛ بل توجهها إلى الإنسان من لحظة ميلاده إلى نهاية عمره، بل وتهتم به أيضا قبل مجيئه إلى هذه الدنيا، لأنها تشترط الشروط التالية :

● **العلاقة المشروعة بين الأبوين** ليخرج الطفل إلى هذه الحياة على صورة يرضاها الله والناس، وفى ذلك يقول ربنا - تبارك وتعالى -: ﴿ **وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَىٰ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا** ﴾ [الإسراء: ٣٢].

ويقول - عز من قائل: ﴿ **الزَّانِي لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَالزَّانِيَةُ لَا يَنكِحُهَا إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ وَحُرِّمَ ذَٰلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ** ﴾ [النور: ٣].

وفى التعليق على آية سورة الإسراء ذكر شهيد الإسلام الأستاذ سيد قطب - رحمه الله رحمة واسعة جزاء ما قدم لدينه ما مختصره: « إن فى الزنا قتلا من نواحى شتى. إنه قتل ابتداء لأنه إراقة لمادة الحياة فى غير موضعها يتبعه غالبا الرغبة فى التخلص من آثاره بقتل الجنين قبل أن يتخلق أو بعد أن يتخلق، قبل مولده أو بعد مولده، فإذا ترك الجنين للحياة ترك فى الغالب لحياة شريرة، أو حياة مهينة، فهى حياة مضيعة فى المجتمع على نحو من الأنحاء. وهو قتل فى صورة أخرى، قتل للجماعة التى يفشو فيها، فتضيع الأنساب وتختلط الدماء، وتذهب الثقة فى العرض والولد، وتنحلل الجماعة وتتفكك روابطها، فتنتهى إلى ما يشبه الموت بين الجماعات، وهو قتل للجماعة من جانب آخر؛ إذ إن سهولة قضاء

الشهوة عن طريقه يجعل الحياة الزوجية نافلة لا ضرورة لها، ويجعل الأسرة تبعة لا داعى لها، والأسرة هى المحضن الصالح للفراخ الناشئة لا تصح فطرتها ولا تسلم تربيتها إلا فيه. وما من أمة فشت فيها الفاحشة إلا صارت إلى انحلال منذ التاريخ القديم إلى العصر الحديث». ويضيف - رحمه الله رحمة واسعة -: «والقرآن يحذر من مجرد مقاربة الزنا، وهى مبالغة فى التحرز؛ لأن الزنا تدفع إليه شهوة عنيفة، فالتحرز من المقاربة أضمن فعند المقاربة من أسبابه لا يكون هناك ضمان، ومن ثم يأخذ الإسلام الطريق على أسبابه الدافعة، توقيا للوقوع فيه. يكره الاختلاط فى غير ضرورة، ويحرم الخلوة، وينهى عن التبرج بالزينة. ويحض على الزواج لمن استطاع، ويوصى بالصوم لمن لا يستطيع. ويكره الحواجز التى تمنع من الزواج كالمغالاة فى المهور. وينفى الخوف من العيلة والإملاق بسبب الأولاد. ويحض على مساعدة من يبتغون الزواج ليحصنوا أنفسهم. ويوقع أشد العقوبة على الجريمة حين تقع؛ وعلى رمى المحصنات الغافلات دون برهان. إلى آخر وسائل الوقاية والعلاج؛ ليحفظ الجماعة الإسلامية من التردى والانحلال». والعالم غير الإسلامى حين أغرق فى الزنا بدعوى الحرية الشخصية انتهى به الأمر إلى الغرق فى وحل الشذوذ الجنسى الذى تشرع له الحكومات وتحميه، وتسمح بزواج الأمثال كما تسمح لهذه الأوساط الفاسدة بالتبنى وتمنحهم حقوق الميراث والواطنة الكاملة مما يتهدد مؤسسة الأسرة بالزوال ولكم أن تتخيلوا نفسية الطفل الذى ينشأ فى وسط هذا الوحل.

● **حسن اختيار كل من الوالدين**، لأن للمورثات أثرًا فى تكوين الجنين الذى يحمل نصف صفاته عن الأب والنصف الآخر عن الأم، وهذه أحاديث رسول الله (عليه الصلاة والسلام) تنبهنا إلى ذلك بقوله الشريف: «تزوجوا فى الحجز الصالح، فإن العرق دساس»[١].

وقوله: «تخيروا لنطفكم وأنكحوا الأكفاء وأنكحوا إليهم» وفى زيادة: «فإن النساء يلدن أشباه إخوانهن وأخواتهن»[٢].

---

(١) سنن ابن ماجه. (٢) سنن ابن ماجه.

وقوله: «تنكح المرأة لأربع: لمالها ولحسبها، ولجمالها ولدينها، فاظفر بذات الدين تربت يداك»[1] وللتأكيد على هذه الحقيقة تروى كتب التربية الإسلامية قصة والد أبى حنيفة النعمان الذى سار يوما وهو جائع فى الطريق فإذا بتفاحة تتساقط عليه من شجرة لها فرع مدلى بالشارع فالتقطها وأكل نصفها ثم تذكر أنه لا يجوز له ذلك دون إذن من صاحبها فطرق باب البستان حتى جاءه رجل فأخبره بما حدث واستسمحه فى نصف التفاحة وقدم له النصف الآخر فقال له إنه لا يستطيع أن يسامحه لأنه لا يملك البستان ولكن يعمل فيه فسأله عن صاحب البستان فقال له: إنه على مسيرة يوم وليلة فسار إليه وعندما وصله أفشى عليه السلام وأخبره القصة فقال له: أنا لن أسامحك حتى تتزوج ابنتى فقال له: آكل نصف تفاحتك وتزوجنى ابنتك وتسامحنى، قال: نعم، فقال له: قبلت فرد عليه بقوله لا تقل قبلت قبل أن تعلم أنها بكماء عمياء كسيحة، فقال أتاجر فيها مع الله أقوم على خدمتها فأوجر فيها، ثم دخل عليها فتردد فى إفشاء السلام لعلمه أنها صماء ولكنه قال: إن لم ترد هى ردت على الملائكة، فأفشى السلام فإذا هى ترد عليه، وتقدم للسلام عليها فنهضت ومدت يدها للسلام فأضاء القنديل فإذا هو أمام شابة فائقة الجمال، فقال لها لقد كذب أبوك على فأخبرنى بأنك خرساء عمياء كسيحة فردت على الفور لا إنه لم يكذب لأنى خرساء عن الباطل، عمياء عن المحرمات، صماء عن كل فحش، كسيحة إلى أى معصية فتزوجها وسعد بها، وبارك الله لهما فى ليلتهما، فكان من ثمرتها أبو حنيفة النعمان الفقيه المحدث، الذى يروى عنه أنه صلى الفجر بوضوء العشاء أربعين سنة متتالية.

كذلك يتفق علماء النفس المعاصرين على أن الطابع الاجتماعى الذى يميز الفردتمتد جذوره إلى العلاقة التى تربط بين الأم والوليد من مختلف جهاتها المادية والحيوية والنفسية والعاطفية؛ وذلك لأن الأم ووليدها يكونان متصلين اتصالاً مادياً وحيوياً فترة من الزمن، وأن حياة أحدهما خلال تلك الفترة تعتمدعلى

(١) صحيح الإمام البخارى.

حياة االآخر، فجنين الإنسان يعيش فى أحشاء أمه فترة أقلها ستة شهور وأكثرها تسعة أشهر؛ يعتمد فيها الجنين اعتماداً تاماً على الأم فى غذائه، وتنفسه، وإخراجه، وغير ذلك من العلميات الحيوية اللازمة لوجوده.

وبعد وضعه يعتمد عليها اعتماداً تاماً تقريباً فى عاميه الأولين، ويظل ذلك الاعتماد - وإن تناقص تدريجياً فى السنوات التالية - حتى يتمكن من الاعتماد على نفسه اعتماداً كلياً.

وعلى ذلك فيمكن إرجاع الصفات النفسية والعلاقات الإنسانية للفرد إلى الطريقة التى نشأ بها وهو طفل رضيع - حيث يبدأ الوليد فى تكوين أولى علاقاته مع أمه، إما محبة وتعاطفاً وتعاوناً، أو إهمالا وتنكرا وتجافيا، ثم بعد إدراكه يكون للأم أكبر الأثر فى بدء تكوين علاقاته الإنسانية بالمجتمع من حوله، فبيدها تقوية هذه العلاقات، أو إضعافها وهى فى أولى مراحل تكوينها، وذلك يترتب على قدر العناية والرعاية التى تمنحها الأم للطفل خاصة فى المراحل التى لا يملك فيها من أمره شيئاً. فإذا حرم الطفل من الحب والحنان من أمه أو ممن يقوم مقامها إن لم تكن موجودة فإنه يشعر بالإضطراب الذى لا يتوقف على نواحيه النفسية والشعورية فقط، بل قد يمتد ليشمل نواحيه الجسدية والعقلية ومعدلات نموه، فمن الثابت أن الطفل إذا بكى لفترة طويلة ولم يستجب أحد لبكائه تسبب ذلك له فى قدر من التوتر العصبى الذى قد يتطور إلى العديد من الأمراض النَّفسية والعضوية مثل عسر الهضم أو الربو أو غيره من أمراض الحساسية، فقد ثبت أن العديد من الأمراض العضوية التى تصيب الأطفال ترجع إلى اضطرابات عصبية حدثت لهم فى السنوات الست الأولى من حياتهم، من هنا كان الاهتمام بحسن اختيار الزوجين اختياراً معياره الصلاح بمدلوله الشامل الكامل... صلاح العقيدة، التى ينبنى عليها صلاح كل من العبادة والأخلاق والمعاملات، وصلاح المنبت والتربية، وصلاح الأصل، والعقل والنفس والبدن، ومن هنا أيضا كان للمواءمة والتوافق المعيشى بين الوالدين انعكاساتهما على

تنشئة الطفل، وثبت أن الطفل الذى ينشأ فى أسرة مفككة أو منفصلة يعانى من أمراض نفسية عديدة قد يصعب علاجها.

ثم إنه من الثابت عن رسول الله ﷺ الأمر بالأذان والإقامة فى أذنى الوليد لحظة ولادته وذلك كى يكون أول ما يصل إلى سمعه كلمة التوحيد «أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً رسول الله» وقد ثبت أن الطفل يسمع لحظة ولادته، بل وهو فى بطن أمه؛ فحاسة السمع هى أولى الحواس نماء فى الجنين.

● **والتربية الإسلامية تنص كذلك على حسن اختيار اسم الوليد وفى ذلك يقول المصطفى** (ﷺ): «أحسنوا أسماءكم فإنكم ستدعون بها يوم القيامة»، وتؤكد على الأسس السامية التى يجب أن تقام عليها الأسرة لأن الأسرة كما سبق وأشرنا هى المجتمع الإنسانى الأول الذى يكوّن فيه الطفل أولى علاقاته الإنسانية، لذلك فإن ما يسود الأسرة من علاقات تربط بين أفرادها، وما يترتب على هذه العلاقات من سلوك اجتماعى، يؤثر تأثيراً كبيراً فى الأفكار التى تتكون لدى الطفل عن علاقاته الإنسانية، وفى سلوكه الاجتماعى مع من حوله من الناس، تلك الأفكار التى قد تؤثر تأثيراً كبيراً على حياته المستقبلية.

● **والتربية الإسلامية تؤكد أيضاً على حق الطفل فى حضانة أمه له حتى يكبر**، وفى ذلك أثبتت الدراسات الحديثة أن حرمان الطفل من أمه فى طفولته الأولى، تصيبه بأمراض نفسية وعضوية عديدة ناتجة عن حرمانه من عطفها وحنانها.

● **كذلك تعتنى التربية الإسلامية عناية بالغة باليتيم** وتؤكد على حقوقه تأكيداً مشدداً، والآيات القرآنية شاهدة على ذلك ومنها قوله تعالى: ﴿ **فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلا تَقْهَرْ** ﴾[الضحى: ٩] وقوله تعالى: ﴿ **وَابْتَلُوا الْيَتَامَىٰ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ فَإِنْ آنَسْتُم مِّنْهُمْ رُشْدًا فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ وَلا تَأْكُلُوهَا إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَن يَكْبَرُوا** ﴾ [النساء: ٦] وقوله تعالى: ﴿ **وَآتُوا الْيَتَامَىٰ أَمْوَالَهُمْ وَلا تَتَبَدَّلُوا الْخَبِيثَ بِالطَّيِّبِ وَلا تَأْكُلُوا أَمْوَالَهُمْ إِلَىٰ أَمْوَالِكُمْ إِنَّهُ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا** ﴾ [النساء: ٢] وأحاديث رسول الله ﷺ فى ذلك عديدة ومتنوعة نختار منها قوله ﷺ: «إن اليتيم

إذا بكى اهتز لبكائه عرش الرحمن، فيقول الله تعالى لملائكته يا ملائكتى من ذا الذى أبكى هذا اليتيم الذى غيبت أباه فى التراب، فتقول الملائكة: ربنا أنت أعلم، فيقول الله تعالى لملائكته: يا ملائكتى اشهدوا أن من أسكته وأرضاه أن أرضيه يوم القيامة»[١].

وقال - ﷺ - : «من ضم يتيما بين أبوين مسلمين إلى طعامه وشرابه حتى يستغنى عنه وجبت له الجنة البتة..» وفى رواية: « قوله (صلوات الله وسلامه عليه): «من ضم يتيماً فكان فى نفقته، وكفاه مؤونته كان له حجاباً من النار يوم القيامة، ومن مسح برأس يتيم كان له بكل شعرة حسنة»[٢].

● **وتهتم التربية الإسلامية بتأسيس البيت على قواعد إسلامية شاملة،** فى تخطيطه وبنائه فيشترط فيه تحقيق الخصوصية والستر، وأن يكون متسعا لاحتياجات ساكنيه، محافظا على حقوق جيرانه، وأن يكون مبنيًا فى اتجاه القبلة كلما أمكن، وألا تكون دورات الماء فيه فى هذا الاتجاه أبدا، وأن تخصص فيه غرفة للصلاة ومكان لمكتبة إسلامية تتوافق مساحتها مع إمكانات وتخصصات أهل البيت.

كما يشترط فى البيت المسلم أن يكون مسلما فى أصوله وتقاليده، وفى عقيدته وعباداته وأخلاقه ومعاملاته، وفى نظامه وترتيبه، وفى حقوق كل فرد فيه؛ فهنا يتربى الطفل – منذ بدء إدراكه – بالمحاكاة والتقليد، ويتطبع بطباع أهله وعاداتهم، ويتأدب بالتلقين والموعظة والزجر والعقاب – إذا لزم – ، ويقتدى بالقدوة الحسنة، ومن هنا لزم وجود الولّى الذى يحسن التربية ويتقن التوجيه فهذا رسولنا الكريم يؤكد على مسئولية الآباء تجاه الأبناء بقوله: «يولد المولود على الفطرة فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه»[٣]، وقوله «مروا أولادكم بالصلاة وهم أبناء سبع سنين، واضربوهم عليها وهم أبناء عشر، وفرقوا بينهم فى

(١ – ٣) مسند الإمام أحمد بن حنبل.

المضاجع »[١] . وقوله (ﷺ) : « كفى بالمرء إثما أن يضيع من يقوت »[٢] .

● **كما توصى التربية الإسلامية بحقوق البنوة وحسن القيام بواجباتها** فلا يجوز للآباء أن يرفضوا أطفالهم فيضيعوهم، أو يبالغوا فى حمايتهم وتدليلهم فيفسدوهم، أو أن يفضلوا أحداً على أحد، أو أن يبالغوا فى تشددهم عليهم، أو يسرفوا فى تساهلهم معهم، وذلك حتى تتربى نفوس الأطفال تربية سوية هادئة، لا تعكرها المشاكل والعقد من الصغر فتفسد فطرتها الربانية السليمة. كما يجب أن يعود الطفل منذ الصغر، – وبطريقة تدريجية – أن الحياة أخذ وعطاء، وتعاون وتكامل، فإذا أراد أن تجاب مطالبه فلابد وأن يحرص على إجابة رغبات أبويه وتلبية أوامرهم، وأنه إذا أراد أن يكون محبوباً فعليه أن يحب من حوله ويتعاون معهم، حتى يتعلم أن حياته جزء من حياة الآخرين، وحريته جزء من حريتهم، ويتمكن من بناء علاقاته الإنسانية مع الآخرين على أسس سليمة. وفى ذلك يقول المصطفى ﷺ : « كفى بالمرء إثما أن يضيع من يقوت »[٣] . وقال – صلوات الله وسلامه عليه –: « إن لنفسك عليك حقا، ولربك عليك حقا، ولضيفك عليك حقا، وإن لأهلك عليك حقا، فاعط كل ذى حق حقه »[٤] .

ويروى أن رجلا قال لرسول الله ﷺ : « إن لى عشرة من الأبناء لم أقبّل أحداً منهم قط » فأجاب رسول الله ﷺ بقوله : « من لا يرحم لا يرحم »[٥] وقال ﷺ : « ليس منا من لم يرحم صغيرنا ويعرف شرف كبيرنا »[٦] .

(٢) وجوب المبادرة إلى التربية فى سن مبكرة والمسارعة إلى العناية بإيصال الخير إلى قلوب النشء، وتحبيب الفضيلة إلى نفوسهم حتى يتمسكوا بها، وذلك بتعليمهم قواعد الدين وعقائده، وأحكام الشريعة وتعاليمها،

---

(١) سنن أبى داود .
(٢) سنن أبى داود ومسند الإمام أحمد .
(٣) سنن أبى داود ومسند الإمام أحمد .
(٤) سنن الترمذى .
(٥) صحيح البخارى .
(٦) سنن الترمذى .

بأسلوب مبسط يصل إلى مداركهم، وتوضيح أصول مكارم الأخلاق، وتربيتهم بها حتى تتشربها عقولهم وقلوبهم ويروضوا على الالتزام بها.

هذه العناية المبكرة تجعل المربين يسبقون بالخير إلى قلوب وعقول الناشئة قبل أن تتسرب المفاسد إلى تلك القلوب والنفوس الغضة، ولا يتركون لها سبيلاً؛ وذلك لأن تلك القلوب الغضة يمكنها أن تذكو بقدر ما تعى من الفضائل، وما تتعود عليه من مكارم الأخلاق، وفى ذلك يقول عبدالله بن أبى زيد القيروانى فى رسالة له: «واعلم أن خير القلوب أوعاها للخير، وأرجى القلوب ما لم يسبق الشر إليه».

وفى ذلك أيضًا كتب أبو على الحسن بن عبدالله بن سينا (المتوفى سنة ٤٣٨ هـ الموافق ١٠٣٧م) ما نصه:

«ابدأ بتأديبه – أى الصبى – ورياضة أخلاقه قبل أن تهجم عليه الأخلاق اللئيمه، وتفاجئه الشيم الذميمة فإن الصبى تتبادر إليه مساوىء الأخلاق، وتنهال عليه الضرائب الخبيثة فما تمكن منه من ذلك غلب عليه فلم يستطع له مفارقة، ولا عنه نزوعاً، فينبغى لغنم الصبى أن يجنب مقابح الأخلاق».

ونصح الإمام أبو حامد الغزالى الآباء بأن تربية الطفل ليست مقصورة على تعليمه ولذلك فمن الواجب على ولى الأمر أن يراقب الطفل من أول أمره فلا يستعمل فى حضانته وإرضاعه إلا امرأة صالحة متدينة تأكل الحلال، وينبغى عليه أن يحسن مراقبته فتياً وأن يقوى فيه خلق الحياء عند ظهوره، وأن يعلمه الطريق المستقيم فى تناول الطعام والمشاركة فيه إلى غير ذلك من ضروب السلوك البشرى. وقديماً قدر المربون المسلمون أن السن المناسبة لبدء التعليم هى السادسة من العمر، وإن تميز بعض النابهين من الأطفال بقدرة على التعلم قبل ذلك، وفى ذلك كتب ابن سينا فى كتابه «القانون»: «وإذا بلغ ست سنوات فيجب أن يقدم إلى المؤدب والمعلم ويدرج فى ذلك فلا يحمل على ملازمة الكتاب كرة واحدة».

(٣) الاهتمام بمراكز تحفيظ القرآن الكريم والعمل على نشرها فى مختلف المجتمعات الإسلامية مهما صغرت، ويمكن إلحاقها بالمسجد وربطها به بشكل من الأشكال، كما يمكن إعادة التخطيط لها لتجمع بين ما يعرف اليوم بمرحلتى رياض الأطفال والمدرسة الأبتدائية.

ومراكز تحفيظ القرآن الكريم على اختلاف مسمياتها - الكتاب، المكتب، المدرسة، إلخ - وقلة كلفتها استطاعت تخريج أجيال رائدة من المسلمين فى مختلف أرجاء العالم الإسلامى، جمعوا إلى حفظ القرآن الكريم ثقافة العصر وعلومه، فجمعوا بين ما يضيفه القرآن الكريم على حافظه من فقه فى الدين، وتمكن من اللغة، وسعة فى الإدراك، وما تضيفه الثقافة الحديثة من قدرة على معايشة العصر وعدم التخلف عنه .

وليس تدنى مستوى الخريجين فى عالم اليوم - بصفة عامة - وفى العالم الإسلامى - بصفة خاصة - إلا نتيجة مباشرة لحرمانهم من الثقافة القرآنية فى الصغر وتقليص مراكز تحفيظ القرآن فى الأحياء والقرى والنجوع والمدن واستبدال ذلك بآيات متناثرة على مدى مراحل التعليم قبل الجامعى تحفظ لتنسى، دون نطق سليم أو فهم رشيد . . .!

وإذا أريد لأجيال المسلمين القادمة أن تحفظ من الانصهار فى بوتقة الحضارة المادية المعاصرة تحت وطأة التحديات الحالية المتعددة فعلينا أن نعيد لمراكز تحفيظ القرآن الكريم مجدها القديم وانتشارها فى كافة التجمعات السكانية وإن استلزم ذلك بالقطع شيئاً من التطوير لتلائم أسلوب العصر، وطبيعة الجيل ومقتضيات الحال.

(٤) الاهتمام بتعويد الطلاب على التفكير الإبداعى بدلا من الحفظ المجرد من التفكير.

(٥) تعويد الطلاب على الأخذ بأفضل أساليب الأمن فى داخل المدرسة وخارجها وتدريبهم عليه بطريقة مستمرة حتى يصبح ذلك جزءاً من تكوينهم الشخصى.

(٦) الاهتمام بالممارسات الرياضية والتربية البدنية، والترفيه البرئ والاهتمام باللياقة الصحية وبالوقاية من مسببات الأمراض، وبالعمل الخيرى وبالاهتمام بالمجتمع وبالبيئة.

(٧) الاهتمام بالتأصيل الإسلامى للمعرفة، وبإبراز دور المسلمين فى تحصيلها وتوضيح الحكمة فى كل قضية من قضاياها وإثبات سبق كل من القرآن الكريم والحديث النبوى الشريف بالإشارة إلى العديد من حقائق الكون التى لم تكن معروفة فى زمن الوحى ولا لقرون متطاولة من بعده ولم يكن ممكنا لأحد من الخلق إدراك ذلك قبل القرنين الماضيين، أو حتى قبل العقود المتأخرة من القرن الماضى.

(٨) الاهتمام برجال التربية والدعوة إلى احترام أهل العلم:

تشترط التربية الإسلامية فيمن يقوم بدور المربى شروطاً خاصة أهمها الصلاح والعلم والكفاءة – أى الفهم لأساليب التربية وطرائقها وواجباتها، ولنفسية المتعلمين واستعداداتهم وملكاتهم ولغير ذلك من مؤهلات المربى الصالح –.

فالصلاح وحده لا يصنع معلماً، والعلم وحده لا يصنع مربياً، ولكن لابد من هذه الشروط الثلاثة مجتمعة لتكوين المربى الصالح، ولا يمكن التنازل عن أى منها؛ وذلك لأن المربى هو الذى يعد أجيال المستقبل، وأى صلاح أو نقص ظاهر فيه أو فى سلوكه لابد وأن ينعكس على تلك الأجيال صلاحا مضاعفاً أو فساداً متفاقماً.

ومن هنا كان من الواجب التدقيق فى اختيار المعلمين وحسن إعدادهم؛ خاصة أولئك الذين يقومون بمهمة التربية فى مراحلها الأولى حيث تشكل شخصيات الصغار بالكامل.

فلا يكفى أن يكون المربى متمكناً من مادته، ملماً بأحدث النظريات التربوية، محباً للعمل، بل يجب أن يكون قبل كل شىء إنساناً مؤمناً ورعاً، صالحاً، مدركاً لحقيقة رسالته ولجسامة مسئوليته أمام الله وأمام الناس، متميزاً

بحسن رعايته لطلابه وقدرته على اكتساب محبتهم وتقديرهم، وبالتالى سهولة الوصول إلى قلوبهم وعقولهم وحينئذ فقط يتمكن من حسن تربيتهم.

فالجهد التربوى فى الإسلام هو فى أساسه جهد فى مجال الدعوة الإسلامية، والإعداد لإقامة المجتمع الإسلامى الأمثل والمحافظة عليه وتطويره، فإذا لم يكن المربى مؤمناً بذلك، ملماً بتفاصيله، ملتزماً بتعاليمه، فأنى له أن يربى جيلاً مؤمناً عالماً ملتزماً!!!

وبما أن عملية إعداد المعلم تعتبر جزءاً لا يتجزأ من العملية التربوية فيجب أن تكون فلسفتها وأهدافها وأسسها ومحتواها وأساليبها ووسائلها ومنهجيتها هى هى تلك التى تميز التربية الإسلامية المستمدة من القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة والتجارب الإنسانية الصالحة فى هذا المجال الحيوى.

ويحضرنى فى ذلك أن معاهد المعلمين والمعلمات كانت إلى الماضى القريب تشترط حفظ القرآن الكريم، وتهتم بكل من الثقافة الإسلامية واللغة العربية، وبدراسات كل من الأخلاق وعلوم النفس والاجتماع بهدف إعداد القدوة الحسنة، وتهتم بالصلاح الإنسانى والنصح الفكرى قبل اهتمامها بالنظريات التربوية وتاريخها وتطورها، ولذا خرجت أجيالاً من المربين الذين استطاعوا القيام بدورهم خير قيام.

ويوم أن فتحت معاهد المعلمين وكليات التربية أبوابها للطلاب دون شروط حفظ القرآن الكريم، ويوم أن أهملت التركيز على الثقافة الإسلامية، وأهدرت الاهتمام باللغة العربية فقدت القدرة على تخريج المربين الذين يصلحون للقيام بمهام العملية التربوية والاضطلاع بمسئولياتها، وأصبح خريجوها مجرد وسائل لتوصيل المعلومات بعضها ردىء وبعضها جيد، وفقد هؤلاء المعلمون دور القدوة الحسنة، وحماس المربى لرسالته، وشعوره بالمسئولية تجاه طلابه، وأصبح التعليم وظيفة كأية وظيفة فى الدولة، ومجرد وسيلة من وسائل الاسترزاق ففقد رسالته بالكامل أو كاد.

ولقد زاد الطين بلة تدنى رواتب المدرسين فى أغلب دول العالم الثالث مما اضطرهم إلى النزول عن كبريائهم ودورهم القيادى الكبير إلى استجداء الدروس الخصوصية من طلابهم أو فرضها عليهم مما دفعهم إلى إهمال دورهم الأساسى فى المدرسة وأفقدهم احترام طلابهم وتقدير أولياء أمور هؤلاء الطلاب.

كذلك أدى تدنى رواتب المعلمين إلى عزوف الطلاب النابهين الحاصلين على الدرجات العليا فى شهادة الثانوية العامة عن الالتحاق بكليات التربية، وترك هذه الكليات - المفروض فيها أنها من كليات القمة - ساحة لأصحاب الدرجات المتدنية بصفة عامة.

ولما كانت التربية فى الإسلام تشترط فى المربين: سلامة العقيدة والتزام العبادة ومكارم الأخلاق، والقدرة على التعامل مع الناس - بصفة عامة - ومع الفتية والشباب المتربين - بصفة خاصة -، مع الكفاءة والإحاطة بمادته فى فهم واستيعاب كاملين، والقدرة على توصيل هذه المعلومات لطلابه فى جو من الود والتعاطف والتفاهم، فإنها تفرض للمربين من التكريم والتبجيل والتعظيم - بمعانيه المادية والمعنوية - ما يعينهم على القيام برسالتهم على الوجه الأكمل والأمثل. وتكفى فى ذلك الإشارة إلى أن التربية هى رسالة الأنبياء والمرسلين، وأن خاتمهم أجمعين - صلوات الله وسلامه عليه وعليهم - يصف نفسه بقوله «إنما بعثت معلماً»[1]، ويصفه القرآن الكريم بقول ربنا - تبارك وتعالى -: ﴿ **هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الأُمِّيِّينَ رَسُولاً مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلالٍ مُّبِينٍ** ﴾ [الجمعة: ٢]. وإلى أن تعى مجتمعاتنا المعاصرة قيمة المعلم، فتهتم بإعداده، وتحرص على تكريمه، ستظل مجتمعات متدنية منهارة إلى أن تتداركها رحمة الله.

(٩) الاهتمام بمعاهد التربية الإسلامية والعمل على نشرها: فالتربية الإسلامية تولى المدرسة والمعهد التعليمى عناية بالغة، عناية بالمعلم والامكانات والبناء والإدارة، فهى تشترط حسن اختيار المعلم ديناً وخلقاً وعلماً لأنه هو المثل

(١) سنن ابن ماجه.

الأعلى للطالب، خاصة فى المراحل الأولى من التعليم؛ فإذا صلح المعلم صلحت العملية التربوية، وإذا فسد فسدت كلها، والمعلم الضعيف فى مادته، أو الرث فى هيئته، أو المتنازل عن كرامته بإعطاء الدروس الخاصة لا يصلح أن يكون قدوة لطلابه وتشترط التربية الإسلامية الإدارة الحكيمة المدركة، وتوفير الإمكانيات اللازمة، والمبنى المناسب، بغير إسراف ولا تقتير، ولا بذخ ولا تقصير؛ لأن كل قرش يزيد عن الحاجة الضرورية يمكن الاستفادة به فى إنشاء مدرسة أخرى أو معهد آخر، من أجل تعليم أفراد آخرين، وفى هذا الصدد تجدر الإشارة إلى أن التعليم فى الإسلام بدأ فى المسجد وارتبط به، وهكذا يجب أن يكون أى نظام تربوى نؤسسه، بمعنى أن يكون المسجد هو المركز الذى يدور عليه بناء أية مدرسة إسلامية أو معهد تربوى إسلامى ليكون هو مكان الصلاة، وقاعة الاجتماعات والمحاضرات والندوات، ومنطلق الأنشطة المختلفة والمكتبة مرتبطة به، والمبنى كله يدور حواليه. ونحن فى ذلك محتاجون إلى مهندسين مسلمين يبرعون فى إعادة تخطيط مراكزنا التربوية بما يوفى كل احتياجات العصر، على هذا النهج الإسلامى الصحيح.

كذلك تجدر الإشارة إلى أن المبالغة فى البنيان وفخامته سواء فى المسجد أو المعهد التربوى هو أمر مخالف لتعاليم الإسلام وأصوله، فيجب أن يكون المبنى جميلا، رحبا بسيطاً، نظيفاً، وافياً بالاحتياجات الضرورية فى غير إسراف أو مبالغة وذلك لأن التربية حق من حقوق كل مولود، وطلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة، وعليه فمن الواجب أن تتاح فرص التعليم والتربية لكل فرد فى المجتمع، لا فى فترة محددة من عمره فحسب، بل طوال حياته، وبالتالى فلابد من زيادة عدد المؤسسات التربوية، وتسهيل عملية الانخراط فيها، وتمكين كل فرد من اختيار ما يلائمه منها، وهنا لا يجوز الاسراف ولا المبالغة فى تشييد مراكز التعليم والانفاق بالملايين عليها من أجل نخبة قادرة فى المجتمع من أبناء وبنات الأثرياء، وحرمان الغالبية من بنات وأبناء ذلك المجتمع والتى قد تحوى من هم الأذكى والأنبه من أبناء الأثرياء، بل لابد من تخفيض تكاليف إنشاء وإدارة كل

المؤسسات التعليمية والتربوية الإسلامية حتى يمكن مضاعفتها أضعافاً كثيرة تستوعب كل أبناء وبنات الأمة، خاصة فى المراحل التربوية الأولى. ويتم توفير التعليم الابتدائى لجميع الأطفال فى السن المناسب ما أمكن عن طريق المدارس الابتدائية، وبطرائق أخرى متعددة إذا لزم الأمر، وبذلك يمكن تقليص أسباب الهدر التعليمى والعمل على إعادة تأهيل الفاشلين دراسياً كلما تيسر ذلك.

وترجع أهمية المدرسة - بصفة عامة - إلى أن الطفل يتعامل فيها مع أفراد لا ينتمون لأسرته، فمنهم رفقاؤه ومعلموه، الذين يؤثرون فيه وفى سلوكه وأفكاره تلك التى كونها فى داخل مجتمع أسرته قبل مجيئه إلى المدرسة، وبذلك يصبح من أخص مهام المدرسة العمل على تكوين العلاقات والمفاهيم الإنسانية السليمة بين المربين والمتربين، وبين قرناء المتربين فى الفصل الواحد وفى المدرسة الواحدة، ولابدّ أن يأتى ذلك فى المقام الأول قبل تعليم القراءة والكتابة والحساب فإن التعليم عن طريق القدوة والمثل الذى يحتذى أسرع وأجدى من التعليم النظرى المسموع أو المقروء، فالطفل يتعلم فى المدرسة أول ما يتعلم كيف يتعامل مع الآخرين، وهو يقلد فى ذلك أساتذته ورفقاءه وكل من يلقاه فى دائرة المدرسة، وعلى ذلك فإن للمدرسة أهمية كبرى فى تكوين العلاقات الإنسانية للصغار، وهذا التكوين ينمو مع الصغير ويترسخ فى أعماق ذاته، ويشكل شخصيته المستقبلية تشكيلاً قد لا يستطيع الخروج عليه مستقبلاً حتى لو اقتنع بخطئه.

وإذا كانت التربية الإسلامية تهتم بتوفير المؤسسة التعليمية الصالحة معلماً، ومبنى، وإدارة، وإمكانيات، فهى تهتم أيضاً بطهارة المجتمع المدرسى وتأسيسه على الأخلاق القرآنية الكريمة، وتهتم بالمجتمع الكبير خارج حدود المدرسة أو المعهد التربوى، وبقيمه التى تنطبع فى ذهن الصغير من البداية حتى تكاد تصبح جزءاً من نفسه خاصة فى ظل ثورة الإعلام والمعلومات الحالية التى تدخل إلى الأفراد فى مخادعهم. ومن هنا فنظام التربية الإسلامية يقوم على الربط الوثيق بين البيت والمسجد والمدرسة والمجتمع بإعلامه وسلوكياته لقبول الصالح وتقويم المعوج منها،

ربطاً لا ينفصل ولا يتجزأ، ويدعو باستمرار إلى تصحيح سلوك المجتمعات؛ لأن المجتمع هو المؤسسة التربوية الكبرى، وكل فصل بين المدرسة والحياة، وبين الطلاب ومجتمعهم، يضر بالعملية التربوية ويشوهها ومن هنا يتضح دور وسائل الإعلام من تليفزيون وإذاعة وسينما وصحافة وشبكات معلومات وغيرها.

(١٠) بناء النظم التربوية على أساس من الشمول والاستمرارية:

ويقصد بالشمول هنا كل ما يهتم بتنشئة الإنسان الصالح وذلك بإنماء جسده على أسس عملية صحيحة حتى ينشأ قوياً سليماً معافاً، وتزكيه نفسسه تزكية قرآنية نورانية حتى ترتبط بالله، وتأديب نفسه على الالتزام بمكارم الأخلاق حتى يصبح ذلك جزءاً لا يتجزأ من كيانها، وتنمية عقله وذلك بتزويده بما يتناسب وقدراته من المعارف النافعة وبتدريبه على حسن التفكير ودقة الاستنتاج، وعمق النقد الهادف البناء، حتى يتسم بالحكمة فى كل ما يصدر عنه من قول أو عمل، والتعرف على مختلف ملكاته ومهاراته وحسن توجيهها وعلى نواحي القصور فيه وعلاجها حتى تتم تنميتها إلى أقصى طاقات مما يعينه على القيام برسالته فى هذه الحياة وعمرانها على الوجه الذى يرضاه رب العالمين - سبحانه وتعالى - وبذلك يتم التنسيق بين كافة عناصر العملية التربوية - المعرفة، الفهم، الاتجاهات العقلية، الحوافز، الاستعدادات العلمية والنفسية وغيرها - وتتحقق زيادة الاهتمام بالفرد وتربيته حسب قدراته.

ويقصد بالاستمرارية هنا إتاحة الفرصة لكل فرد من أفراد المجتمع فى التزود من المعرفة باستمرار، وبغير قيود مسبقة، وتكامل المؤسسات التربوية مع مؤسسات المجتمع الأخرى، وتجديد التزامات قطاعات العمل والإنتاج تجاه تدريب العمال والفنيين والموظفين وتثقيفهم باستمرار، وتوثيق الروابط بين المجتمع ومؤسسات التعليم، وبين الصناعات والجامعات ومراكز البحوث فكلها من العناصر الأساسية فى نظام التربية الشاملة المستمرة التى يدعو إليها الإسلام العظيم والتى لخصها رسولنا الكريم بقوله الشريف: «فضل المؤمن العالم على المؤمن العابد سبعون درجة»[١].

---

(١) ذكره ابن عبد البر فى «جامع بيان العلم وفضله».

وفى ذلك لابد من تشجيع الطلاب – حتى فى المراحل التعليمية الأولى – على الاشتراك بأعمال والديهم فى الحقول والمصانع والمتاجر كما كان الحال فى غالبية البلاد الإسلامية حتى عهد قريب، ولا بد من السماح للطلاب فى المراحل التعليمية المتقدمة بالخروج للحياة العملية متى شاءوا على أن تفتح لهم أبواب المعاهد إذا عادوا لمتابعة الدراسة بعد فترة تطول أو تقصر، فى الليل أو فى النهار، وإذا لم يتيسر لهم ذلك فلتذلل لهم وسائل الاستزادة من المعرفة وكسب المهارات حيث هم بوسائل التدريب والتثقيف الدورية المختلفة. وهكذا كان حال المعاهد الدراسية فى عهد الدولة الإسلامية. وكثير من دول العالم اليوم – مثل الصين – تلجأ إلى نظام مماثل وذلك بعدم السماح لمن يتمون الدراسة الثانوية بدخول الجامعة قبل مرور عامين من ممارستهم للحياة العملية، وقبل الحصول على شهادة من المسئولين الذين خالطوهم فى حياتهم العملية بأنهم مواطنون يستحقون مواصلة الدراسة العليا، وبذلك تكسر القيود وترفع الحواجز، وترتبط العملية التعليمية بالحياة العملية ارتباطاً مباشراً، وفى بعض الدول الأخرى – مثل ألمانيا الغربية، فرنسا، انجلترا، السويد، الولايات المتحدة – يشجع طلاب الجامعات على الخروج إلى الحياة العملية لفترات متفاوتة قبل تخرجهم، كما تشترط الجامعات الروسية على المتقدمين لشهادات الكانديدات – الدكتوراه – أن تكون لهم خدمة اجتماعية سابقة ودراسات منشورة فى هذا المجال.

هذا كله مستمد أصلاً من التجارب الناجحة للمسلمين السابقين، ومن كتاباتهم المفصلة بينما المتعلمون فى العالم الإسلامى اليوم يكادون أن يكونوا معزولين عن الحياة العملية عزلاً كاملا بعد أن انتقلت إليهم عدوى المجتمعات الثرية فى الدول الغربية إبان العصور الوسطى حيث كان ينظر إلى العمل اليدوى بشىء من الازدراء والاحتقار، بينما يعلمنا رسولنا الكريم - ﷺ - أن العمل اليدوى مكرم فى الإسلام وفى ذلك يقول: «ما أكل أحد طعاماً قط خيراً من أن يأكل من عمل يده، وأن نبى الله داود – عليه السلام – كان يأكل من عمل يده»[1]. ومن

---

(١) صحيح البخارى.

وسائل ربط الحياة التعليمية بالحياة العملية مشاركة الآباء والأمهات فى إدارة المدرسة أو المعهد التعليمى وتوجيه نشاطاته، كذلك لابد من إسهام رجال الأعمال فى مختلف مجالات الصناعة والتجارة والزراعة إسهاماً فعلياً فى إدارة العملية التربوية، وإخراج المدارس والمعاهد والجامعات من عزلتها، وإشراكها فى عمليات التنمية الاجتماعية بمختلف مجالاتها، والعمل على المواءمة بين المؤسسات التعليمة وحاجات المجتمع الذى تقوم فيه بحيث لا يتخرج متعلمون لا يستطيعون المساهمة فى نهضة مجتمعاتهم فيصبحون عالة على تلك المجتمعات بدلاً من أن يكونوا قادرين على الأخذ بأيديها مع العلم بأن ذلك لا يجوز أن يتم على حساب الملكات الشخصية، والميول الذاتية، وهى من أهم ما يجب أن تحرص العملية التربوية على تنميته واستثماره إلى أقصى درجة ممكنة لأن الله - تعالى - قد وهب كل فرد من خلقه قدرات خاصة وملكات محددة لو أحسن استثمارها خلال العملية التربوية لآتت ثمارها طيبة رضية.

(١١) عدم الفصل بين المعارف : وبالتالى عدم تقسيم العلوم إلى دينية ودنيوية، فهذا الفصل انتقلت عدواه إلى بلاد المسلمين من النظم التربوية الغربية التى نشأت فى عصر النهضة بعد معركة مع الكنيسة انتهت بهزيمة الكهنوت وانحساره، وبانطلاق المعارف المكتسبة كلها من منطلقات مادية بحتة، منكرة أو متجاهلة كل ما وراء المادة من غيبيات، وكل المعتقدات والأخلاق والقيم الروحية والمعنوية والدينية. وأدى ذلك إلى تقدم علمى وتقنى مذهل صاحبه انحسار دينى وأخلاقى وروحى مفزع يتهدد البشرية كلها بالدمار. وكان هذا الانفصال بسبب هيمنة الكنيسة على مقدرات الحياة لقرون عديدة ومحاولتها فرض عدد من المفاهيم الخاطئة فى سفر التكوين على مناهج التعليم وتفكير العلماء، وحين تعلم هؤلاء المنهج العلمى من الحضارة الإسلامية وبدأوا فى تطبيقه ثبت لهم خطأ الكنيسة فطلقوها طلاقا بائنا ومن هنا جاءت المفاضلة بين التعليم المدنى والتعليم الدينى.

فالإسلام – على الرغم من اهتمامه بالتخصص فى الدراسات الإسلامية – إلا أنه لا يعرف كهنوتاً كما هو موجود فى «الديانات» الأخرى، ولا يهمل أى جانب من جوانب المعرفة الإنسانية، وهو يهتم بتنمية كل المعارف المكتسبة، وجميع المهارات اليدوية والمهنية، فهؤلاء هم أنبياء الله ورسله كانوا كلهم من أصحاب الحرف، وكل منهم كان يأكل من عمل يده، وهكذا كانت الحضارة الإسلامية التى استمرت لأكثر من عشرة قرون كاملة وهى تجمع الدنيا والآخرة فى معادلة واحدة، وتجمع المعارف المكتسبة من مختلف الحضارات بعد غربلتها بمعايير الإسلام مع وحى السماء يدا بيد.

والفصل بين المعارف إلى دينية ودنيوية قد عزل العلوم الدينية عن ركب الحياة، ومشاكلها، وتطورها؛ مما دفع بالناس إلى الزهد فيها، ودعاهم إلى هجرها، كما عزل العلوم الدنيوية عن الحكمة، وجعلها تدور فى الأطر المادية للأشياء فقط، مما أدى إلى رفض المتدينين لها، وفقدان حماسهم للاهتمام بها، والحل لا يمكن أن يكون فى رفض هذه المعارف المكتسبة فهى تراث الإنسانية، ووسيلتها إلى عمران الحياة على الأرض، ولا يمكن فرضها على المسلمين فى صياغاتها الغربية المنكرة للدين دون إعادة صياغتها من المنظور الإسلامى الصحيح، لأن ذلك يعنى «علمنة» التربية بدلاً من أسلمتها، وهذا هو الأمر السائد فى غالبية دول العالم الإسلامى اليوم، فإذا كان أعداء الإسلام قد خططوا للقضاء على مراكز التربية الإسلامية العريقة التى عملت على حفظ الإسلام ولغة القرآن قروناً طويلة، فليعمل المسلمون لأسلمة المعارف الإنسانية كلها، وبالتالى لتوحيد الفكر التربوى فى جميع مؤسساته فى العالم الإسلامى إن لم يكن فى العالم بأسره إن استطاعوا.

فإن تقسيم المعارف الإنسانية إلى معارف دينية ومدنية منفصلة عن بعضها البعض انفصالا بَيِّنا، وتقسيم المعارف المدنية إلى معارف عملية – تقنية ليس لها ارتباط بالنواحى الإنسانية، ومعارف إنسانية ليس لها صلة بالتقدم العلمى والتقنى

الراهن قد أضر بالعملية التربوية ضرراً بليغاً. وعلى ذلك فلا بد للمثقف فى هذا العصر من الإلمام بالقضايا الرئيسية للمعرفة ولو إلماماً عاماً بالإضافة إلى تخصصه الدقيق، فالمعارف فى هذا العصر تتجدد بمعدلات سريعة مذهلة؛ وعليه فلابد للإنسان من مجاراة تيار التقدم العلمى والتقنى، وإلا وجد نفسه متخلفاً عن الركب. والمعارف الإنسانية يمكن ترتيبها فى شكل هرمى قاعدته المعارف البحتة والتطبيقية ليس استهانة بها ولا تقليلا من شأنها ولكن لكونها وسيلة إعمار الأرض والقيام بواجبات الاستخلاف فيها. ويأتى فوق العلوم البحتة والتطبيقية فلسفة العلوم؛ بمعنى استخلاص الحكمة من كل معرفة كونية، ويأتى فوق ذلك الدراسات الإنسانية لتعلقها بالإنسان والإنسان مخلوق مكرم، وكل ما يتعلق بهذا المخلوق المكرم لابد وأن يكون مكرما، ومن هنا كان وضع الدراسات الإنسانية فوق دراسات العلوم البحتة والتطبيقية وفلسفاتها. ويأتى فوق الدراسات الإنسانية دراسات الفلسفة على اطلاقها بمعنى حب الحكمة أو توظيف كل معرفة إنسانية أو مهارة مكتسبة فى معرفة الحق، ويأتى فى قمة الهرم وحى السماء الذى هو بيان من الله – تعالى – للإنسان فى القضايا التى يعلم ربنا – تبارك وتعالى – بعلمه المحيط عجز الإنسان عن وضع أية ضوابط صحيحة لنفسه فيها من مثل قضايا العقيدة والعبادة والأخلاق والمعاملات وهى ركائز الدين. والتاريخ يؤكد على عجز الإنسان عن وضع أية ضوابط صحيحة لنفسه بنفسه فيها، وكل مثقف عليه أن يتخصص فى شريحة من هذه الشرائح على ألا يعزل نفسه عزلا كاملا عن بقيتها.

كذلك فإنه لا يجوز تفضيل مهنة عن مهنة، ولا حرفة عن حرفة، فالإنسانية فى حاجة إلى كل مهنة، وكل حرفة قل دورها أو كبر مادام الفرد يؤدى دوره فيها بأمانة وإخلاص واحترام لمهنته، والتزام بآدابها.

ومن آفات مجتمعاتنا الحاضرة أنها لازالت تفضل التعليم النظرى على التعليم التقنى، وتميل إلى الوظائف العامة والمهن الكتابية عنها إلى الحرف اليدوية وعن

التعليم المهنى المدرب للأيدى الماهرة وذلك على الرغم من كثرة الآلات والأجهزة التى أغرقت مجتمعات العصر بإغراء من المدنية المعاصرة.

(١٢) جعل المحور الحقيقى للعملية التربوية هو الإنسان بوصفه مستخلفا فى الأرض، والكائن الحى العاقل المختار المكلف، صاحب الملكات والمواهب، كرمه الله تعالى وفضله على كثير ممن خلق تفضيلا، وسخر له الكون كله. والإنسان هنا مقصود بطرفيه فى العملية التربوية: المربى والمتربى، وبنوعيه الذكر والأنثى دون أدنى تمييز بين عرق وعرق، أو لون ولون، أو لغة ولغة، لأن الإنسان هو أساس كل مشروع تنموى.

فكما يشترط فى المربين كمال الدين واستقامة الخلق وغزارة العلم وحسن التدريب على القيام برسالتهم التى هى فى صميمها استمرار لرسالة الأنبياء، فيجب الاهتمام بهم اهتماماً يعكس الشعور بخطورة رسالتهم وذلك بحسن إعدادهم أولاً. ثم بمنحهم ما يستحقون من التقدير المعنوى - الاحترام والثقة -، والمادى - المرتبات والتسهيلات فى الحياة - حتى يتفرغوا لمهماتهم التربوية تفرغاً كاملاً، ويشعروا بثقة المجتمعات فيهم؛ لأن الثقة تولد الرغبة فى الكمال، فيرقوا بأنفسهم إلى مستوى المسئولية الملقاة على عاتقهم ارتقاء اختياراً واعياً. كذلك لابد من إعطائهم الحرية الكاملة لتربية أبنائهم الطلاب بالطريقة التى يجيدونها، والتى قد تتباين بتباين الأساتذة، وبتباين الطلاب أنفسهم قدرة ومهارة وملكات وميولا، وأخذ عامل التباين الفردى هذا فى الحسبان لأن كل فرد من بنى آدم كيان قائم بذاته، فالطلاب يختلفون فى طبائعهم، وقدراتهم، وإمكاناتهم للتعليم، ورغبتهم فيه، وتهيؤهم النفسى له، ومستوى ادراك كل واحد منهم، وحتى فى الطالب الواحد يتباين ذلك كله بتباين مراحل النمو، وزيادة النضج واكتساب الخبرة ومن هنا كانت ضرورة المواءمة بين مرحلة النمو والقدرة على التعلم. وهنا يجدر التنبيه إلى أهمية التعليم باللغة الأم مع عدم إهمال تعليم لغات أخرى، خاصة اللغة العربية إذا لم تكن هى اللغة الأم للمسلم والمسلمة،

كما يجدر التنبيه على ضرورة العمل على إكساب الطالب المعرفة – أيا كان مجالاتها – على هيئة خبرة شخصية تكتسب بالممارسة، وليست تلقينا لفظياً مجرداً...، فالتلقين اللفظى لا يجوز إلا فى حفظ كتاب الله وذلك أملا فى الاستفادة من الذاكرة الصافية التى يتمتع بها الإنسان فى مراحل حياته الأولى، وحتى فى ذلك لا يجوز الحفظ دون فهم، فلقد كان صحابة رسول الله (ﷺ) لا يتجاوزون عشر آيات من القرآن الكريم حتى يكونوا قد فهموا ما فيها من أوامر وعملوا بها، وما فيها من نواهٍ فاجتنبوها. وكان يقولون: وهكذا تعلمنا العلم والعمل معا.

فتدبر معانى الآيات مقدم على مجرد التلاوة وإن كانت تلاوة القرآن الكريم عبادة من أجل العبادات؛ فمن الثابت عن رسول الله – ﷺ – قوله الشريف: «إقرأوا القرآن فإن لكم بكل حرف حسنة، والحسنة بعشرة أمثالها»(١) ثم يضيف – صلوات الله وسلامه عليه – قوله الشريف: «لا أقول (ا ل م) حرف، ولكن ألف حرف ولام حرف وميم حرف» وفى حديث آخر يقول – عليه أفضل الصلاة وأزكى التسليم –: «من قرأ القرآن ولم يعربه أوكل الله تعالى – به ملكا يكتب له بكل حرف حسنة والحسنة كما أنزل بعشرة أمثالها، ومن قرأ القرآن وأعرب بعضه أوكل الله – تعالى – به ملكين يكتبان له بكل حرف عشرين حسنة، ومن قرأ القرآن وأعربه أوكل الله به أربعة أملاك يكتبون له بكل حرف سبعين حسنة»(٢). والمقصود بالإعراب هنا هو حسن الفهم؛ ومن هنا كان من الواجب اختيار الآيات التى يحفظها الطفل بما يتلاءم مع عمره وقدرات فهمه، وإن كان ذلك مجال خلاف أيضاً بين المربين، فمن قائل أن الطفل يكفيه الحفظ فى المراحل الأولى من حياته، ثم يتدرج فى الفهم كلما زاد نضجاً، ومنهم من يرى حظر الإثقال على الذهن بالحفظ حتى لا يكد خاصة فى مراحل الطفولة الأولى، وإن كنت أميل إلى الرأى الأول.

---

(١)، (٢) القرطبى عن ابن عمر.

والمساواة فى التربية ضرورة من ضرورات قيامها برسالتها على الوجه الأمثل، وهى صورة من صور العدل الاجتماعى، وبالتالى فلابد من نزع الأطر الإدارية المتزمته الجامدة عن المؤسسات التربوية، وإلغاء الشروط التعسفية الجائرة فى قبولها للطلاب، وجعل المقياس فى ذلك هو القابليات والمؤهلات الشخصية دون ترجيح مطلق للتقدير فى امتحان ما؛ وذلك لأن الامتحان بصورته الراهنة لا يمكن أن يكون مقياساً عادلاً لقدرات الطلاب، أو تعبيراً صادقاً عن استعدادتهم الشخصية، وأن الخبرة المكتسبة عن طريق التحصيل الشخصى أو فى نطاق الممارسة الفعلية فى مهنة ما قد ترجح كثيراً ما يلقن فى المدرسة أو المعهد التعليمي. فالنظام التربوى الناجح يركز نشاطه كله على المتربى، ويمنحه مزيداً من الحركة كلما ازداد نضجاً لكى يقرر بنفسه ما يريد أن يتعلمه، وكيف وأين يمكن أن يتعلمه؟ حسب ميوله الشخصية، وقابلياته ودوافعه بل لابد أن يتم ذلك فى اطار من المشاركة الفعالة؛ حيث يسهم المتعلمون أنفسهم فى النهوض ببعض المسئوليات التربوية. فالتربية الناجحة تجعل من أهدافها الأولى إيجاد الإنسان القادر على التفكير الحر الناضج، فكل تربية تعتمد على الحفظ دون الفهم، وعلى التلقى والقبول دون التأمل والتقصى والإبداع، ولا تغرس الرغبة المستمرة فى التعلم والسمو بالتفكير إنما هى تربية ناقصة وضارة، ولا يمكن للعملية التربوية ان تنجح إلا إذا جعلت هدفها الرئيسى ومحورها الحقيقى الإنسان بكل أبعاده.

والمساواة فى التربية تشمل المجتمع بجنسيه – الذكور والإناث – مع الأخذ فى الاعتبار الصفات الفطرية لكل جنس وما يلائمه من دراسة، وما يتناسب مع فطرته من وسائل تربوية دون تفضيل لأى من الجنسين على الآخر؛ هذه العناية بالإنسان مربياً ومتربياً تحتم الاهتمام بمعاهد التربية ومراكز إعداد المعلمين اهتماماً يعكس خطورة الرسالة التى يضطلع بها المربون، وهنا تبدو الحاجة ملحة إلى إنشاء معاهد إسلامية للتربية تعد المربين الإعداد الصالح اللائق بدورهم فى الحياة، ثم

متابعة ذلك بالدورات التدريبية والندوات الفكرية اللازمة لهم من أجل تطوير قدراتهم باستمرار.

(١٣) العمل على تبسيط العملية التربوية وتيسير إجراءاتها: فمن المميزات التى تجمعت للتربية الإسلامية عبر القرون الاثنى عشر الأولى من تاريخها المجيد هى البساطة، والتيسير، والخلو من التعقيدات التى تعانى منها نظم التعليم المعاصر، فلم تكن التربية الإسلامية تشترط أكثر من أستاذ مؤمن، عالم، عامل، ذى خلق، وطلاب لديهم الإمكانية والرغبة فى التعلم، تحكمهم علاقة من التفاهم، والود، والثقة، وخشية الله، والشعور بقدسية العملية التربوية، واحتسابها فى عداد الأعمال التعبدية، وكان ذلك أكبر عون على تذليل أية صعاب واجهتها، وعلى تحقيق الغاية المرجوة منها بأقل جهد وأيسر تكلفة!!!

فلم تكن هناك أسوار بين العلم والمجتمع، بل كانت فرص التزود منه تتاح لكل راغب فيه، دون أية شروط كالسن، أو الحصول على مؤهلات سابقة، أو الظروف الاجتماعية والاقتصادية، إلخ، مادام الأستاذ قد وافق على قبوله لتحصيل العلم على يديه؛ ولكى نعيد للعملية التربوية روحها الإسلامية فلابد من مضاعفة أعداد مؤسساتها، وتسهيل إجراءات الإنخراط فيها، وتمكين الفرد من اختيار ما يلائمه منها وبحرية كاملة حسب قدراته وإمكانياته وميوله، وأن يتم ذلك بوسائل متعددة فى مرونة ويسر تمكن كل راغب فى المعرفة أن ينهل منها، وأن يترك ذلك كلية للأستاذ والطالب دون تدخل أية سلطة أخرى؛ اللهم إلا إذا كانت أعمالاً إدارية تنظيمية تتم بإرشاد الأستاذ وتوجيهه.

(١٤) إزالة الحواجز التقليدية بين مراحل التربية المختلفة: فلم تكن هناك أية حواجز فى النظام الإسلامى بين مراحل التربية المختلفة، فالمتعلم كان له أن ينتقل رأسياً من مستوى إلى غيره، وأفقياً من تخصص إلى آخر حسب رغبته واستعداداته، وبتوجيه من أستاذه الذى يختاره بمحض إرادته، وهذه المرونة كانت تزيد من مجالات الاختيار أمام الطلاب، ولا تضطر أيا منهم إلى الانخراط فى تخصص

لا يتناسب وميوله، أو الدراسة على يد أستاذ لا يستسيغ طريقته، أو تضطره إلى الفشل وترك التعليم كلية.

وعلى ذلك فلابد من إزالة الحواجز المصطنعة التى تفصل بين مختلف أنواع التعليم ومراحله ومستوياته، وبين التعليم النظامى وغير النظامى، وتيسير عمليات التربية المرحلية والتعليم عن بعد حتى يستفيد منها كل من تضطره ظروفه إلى العمل مبكراً ولاتزال لديه رغبة فى مواصلة تعليمه أو من تضطرها ظروفها إلى عدم مواصلة التعليم.

كذلك لابد من توسيع مفهوم التعليم العام بحيث يتيح للطفل فرص التربية الفكرية النظرية، والتقنية التطبيقية واليدوية الفنية، والتوفيق بين تكوينه العقلى والتطبيقى واليدوى، حتى يمكن اكتشاف مواهبه وتنميتها، ونواحى القصور عنده وعلاجها وتوجيهها التوجيه الصحيح، ولابد من تنويع التعليم الخاص وتعديد مجالاته ومؤسساته ليتمكن من تلبية احتياجات الأفراد والمجتمعات على تباين قدراتهم وميولهم ورغباتهم.

وهذا الانفتاح على مختلف مجالات المعرفة فى التربية الإسلامية كان من وسائل تيسيره فى الماضى أن العلم كان يقصد لذاته حباً فى المعرفة وتعبداً لله وتقرباً إليه، لا لمجرد طلب الوظيفة أو المهنة، ولا للكسب المادى المجرد عن القيم والأخلاق، ولا للافتخار والتباهى به، ولا للتسابق على مراكز الصدارة فى المجتمع، فالرسول صلوات الله وسلامه عليه يقول:

«لا تعلموا العلم لتباهوا به العلماء، ولا لتماروا به السفهاء، ولا لتخيروا به المجالس فمن فعل ذلك فالنار النار»[1]. وعلى ذلك كان العلم يقصد رغبة فى المعرفة والحكمة، وحباً فى الاستزادة منهما، وأملاً فى القدرة على تعليمهما للناس، وعلى استعمالهما فى عمران الحياة على الأرض، وإقامة شرع الله فيها،

---

(١) سنن ابن ماجه.

وفوق ذلك كله كان العلم وسيلة للتعرف على الله، ولم يكن يحول دون ذلك أن يكون الإنسان صاحب مهنة، فأنبياء الله - صلوات الله وسلامه عليهم جميعا - كانوا من أصحاب المهن، وكان كل منهم يأكل من عمل يده، وكذلك كان صحابة رسول الله - صلى الله عليه وسلم ورضى الله عنهم أجمعين - فهذا عمر بن الخطاب رضوان الله تعالى عليه يقول «إنى لأرى الرجل فيعجبنى، فأسأل هل له مهنة؟ فإذا قيل لا سقط من عينى».

هذا، ولقد كان العديد من المسلمين البالغين يفضلون الترحال فى طلب العلم، والبعد عن الوطن والأهل، تأكيداً لتفرغهم فى تحصيله، وتقليلاً لما يمكن أن يصرفهم عنه.

(١٥) العمل على جعل التعليم عملية ذاتية حرة غير مقيدة بمناهج جامدة محددة: ولقد كان ذلك من أبرز سمات التربية الإسلامية التى رفضت تكبيل الإنسان - مربياً كان أو متربياً - بأية قيود جامدة من مثل ما يعرف اليوم باسم المناهج المحددة فلقد كانت تكتفى بتحديد فلسفتها المستمدة من عقيدتها، وأهدافها العامة التى تتلخص فى تربية الإنسان الصالح، وأطر ذلك من سلوك وأخلاق ومعاملات وحقوق وواجبات، وتترك العملية التربوية بعد ذلكعلاقة مقدسة بين المربى والمتربى تحكمها خشية الله وتقواه، والإحساس بحجم المسئولية الملقاة على كاهل كل منهم والإيمان العميق بأنها رسالة تؤدى، وصورة من صور القربى إلى الله، ويكفى أنها نبعت من المسجد وارتبطت دوماً به!!!

وعلى ذلك فقد ظلت العملية التربوية طوال القرون الاثنى عشر الأولى من تاريخ الحضارة الإسلامية تربية فردية حرة بكل ما فى الكلمة من معنى لم تتبع المناهج المحددة، خاصة فى المراحل المتقدمة منها، بل كان لكل مرب فى النظام الإسلامى منهجيته الخاصة، وطرائقه فى تنفيذها، وأسلوبه ووسائله التى تتباين بتباين كل طالب وقدراته وملكاته وميوله، وكامل ظروفه، وبتباين مراحل نموه؛ مما يؤكد إنسانية كل فرد ويعمل على صيانتها مهما كانت قدرات الطالب. بينما

نجد مناهج التربية اليوم تتباين فى أسسها بين تركيز على الطفل وما يتنازعه من عوامل داخلية من مثل عوامل الوراثة، أو خارجية من مثل مؤثرات البيئة، أو من كليهما معا، أو تركيز على المعلومات وحدها – بين شاملة واختيارية – أو على المجتمع بذاته – بين تحليل واقعى ورؤية مثالية –، أو على العمل وحده كقيمة اجتماعية، وكلها مفاهيم جزئية، لا تتناسب مع تكامل الطبيعة الإنسانية وشمولها، فضلاً عن تباين الأفراد، واختلاف قدراتهم وملكاتهم مربين ومتربين.

ومن الغريب أن التربويين فى العالمين الرأسمالى، والاشتراكى قد بدأوا بعد – على تباين معتقداتهم – دراسات مستفيضة يفيقون إلى أهمية هذه المبادىء فى التربية: **الإنسانية والحرية** فى نظام وطاعة لا يتسمان بالتعقيد ولا بالخنوع، وفى بساطة منضبطة لا تكبلها أثقال القيود المفروضة والمعممة على كل الأفراد رغمًا عن تباينهم، وفى عدل اجتماعى يتيح لكل فرد – مهما كانت ظروفه، وعلى مدى حياته – فرص التعلم والترقى فيه إذا كانت له رغبة صادقة فى ذلك، فالصرخة اليوم تتعالى فى العالم كله طلباً لنظام تربوى متكامل، يتيح فرص التربية المستديمة على كافة المستويات بدءاً برياض الأطفال – التى يجب التوسع فيها لتستوعب كل وليد – إلى المرحلة الثانوية –التى يجب أن يعاد تنظيمها لتتسم بقدر من المرونة يتلاءم مع كل الطاقات، وبالتنوع الذى يمكن أن يجعل منها تأهيلاً للجامعة وللمهنة وللحياة، وذلك بجعل التعليم فيها تعليمًا – شاملا – وإلى التعليم العالى –الذى يجب أن تتعدد آفاقه ومؤسساته من المعاهد التقنية والفنية العامة والمتخصصة، إلى الجامعات ومراكز البحوث ومعاهده –، وأن يفتح أبوابه على مصاريعها لكل راغب فيه وقادر عليه، إلى التعليم عن بعد أو التعليم غير النظامى الذى يهتم بإعداد البرامج الخاصة للشباب وتوجيههم عبر وسائل النشاط الاجتماعى والإعلامى المختلفة ويوفر البرامج التعليمية والتدريبية والتربوية المتعددة فى شتى مجالات المعرفة لكل من الموظفين والمهنيين أثناء

قيامهم بالعمل، أو حتى إقرار نظم من أجل تفريغهم بعض أو كل الوقت للدراسة بالتناوب مع احتفاظهم بوظائفهم وبمرتباتهم كاملة. وبذلك يمكن تحقيق التربية الشاملة المستمرة لكل فرد فى المجتمع، وامتصاص القوى البشرية العاطلة عن العمل، وتعليم أفرادها مهارات أو مهن جديدة يطلبها المجتمع؛ مما يساعد الخريجين على إيجاد فرص عمل مناسبة، وربما كانت هذه المبررات من الحوافز على إنشاء الجامعات المفتوحة التى تستخدم وسائل الإعلام الحديثة فى التعليم والتربية من مثل التلفاز والإذاعة، والحاسوب، وشبكات المعلومات الدولية - العنكبوتية - والبرامج المطبوعة المصاحبة لذلك والتى تقبل كل من يثبت الرغبة والقدرة على مواصلة السير فى الدراسة دون تقيد بالسن أو التواجد فى مكان الدراسة، وتمنحه كل الدرجات الجامعية التى يمكن أن يتقدم لها، وليست الجامعة المفتوحة إلا صورة عصرية لحلقات العلم التى كانت تعقد فى المساجد منذ بعثة المصطفى ﷺ . فى المسجد النبوى منذ السنة الأولى من الهجرة، وبالحرم المكى منذ عام الفتح ٨ هـ، وبمسجدى الكوفة والبصرة منذ ١٤هـ، وبالمسجد الأموى بدمشق منذ ٤١ هـ، وبجامعة الزيتونة فى تونس منذ ٧٩ هـ، وبجامع المنصور فى بغداد منذ ١٥٧ هـ، وبجامع القرويين فى المغرب منذ ٢٤٥هـ، وبالجامع الأزهر بالقاهرة منذ ٣٦١هـ ويؤمها من يشاء من الناس دون أية شروط مسبقة إلا الالتزام بآداب الحلقة وإذن أستاذها وشيخها، وما أشبه الجلسة أمام التلفاز أو شاشة الحاسوب اليوم لتلقى العلم بالجلسة أمام الشيخ لتلقى عنه، مع فارق الوجود الفعلى للمربى، وتأثيره الروحى والنفسى على طلابه ومريديه، وما أكبره من فارق!!

وانطلاقًا من ذلك كله فقد قمت فى ندوة عقدت بجامعة الكويت فى ٣/٥/١٩٧٥م «لتطوير تدريس العلوم بالمرحلة الجامعية الأولى» بالتحذير من خطر المناهج المحدودة» المبنية على العديد من المقررات المتنوعة المسترجعة، وغير المنسجمة، التى يقوم الطالب بحفظها من أجل الاختبار فقط، وقد أصبح الاختبار بالنسبة

لطلاب اليوم شيئاً يأتى فى المقام الأول قبل التعلم، مما جعل دور التعليم الجامعى يتحول من التربية الحقيقية والتكوين العقلى للطلاب وتدريبهم على التفكير المنهجى السليم، إلى مجرد ملء ذاكرتهم بأكداس من المعلومات التى قد لا يفهمونها، بل يستظهرونها دون استيعاب حقيقى من أجل مجرد الاختبار فيها وقد أصبح الوسيلة الرئيسية لتقويمهم، وبذلك انحطت عملية التقويم ذاتها إلى مجرد قياس قدرة الطلاب على أداء الاختبار، وقدرة ذاكرتهم على الحفظ.

وللتغلب على ذلك قمت بتقديم اقتراح بالعودة بالعملية التربوية إلى أساسها الإسلامى الإنسانى البسيط ؛ وذلك بتقسيم الطلاب المتقدمين لأى قسم علمى – مثل قسم علوم الأرض على سبيل المثال – إلى مجموعات صغيرة بعدد أعضاء هيئة التدريس الموجودين بالقسم، وحسب اختيار كل طالب ورغبته، وفى كل من هذه المجموعات يعمل الطالب من أربعة إلى سبعة أسابيع على الأقل تحت إشراف الأستاذ الذى اختاره، وبالطريقة التى يراها الأستاذ مناسبة، له مستخدماً فى ذلك كل البدائل المتاحة – المحاضرات، الندوات، القراءات الموجهة، الدراسات المختارة، العمل فى المختبرات، أو فى الحقل، أو فى الصناعة. إلخ –، وفى خلال ذلك تتم عملية تقويم الطالب بصورة مستمرة كجزء من العملية التربوية ذاتها، وعلى أساس من ذلك التقويم المستمر قد يسمح للطالب فى الاستمرار مع نفس الأستاذ إلى دورة أو دورات أخرى، أو التحول إلى أستاذ آخر حسب رغبته وتجربته السابقة.

وبهذه الطريقة يعمل الطالب لمدة تتراوح بين التسعين والمائة والعشرين أسبوعاً فى المتوسط تحت إشراف أستاذ واحد أو عدد من الأساتذة، وفى تخصص واحد أو أكثر من تخصص حسب اختياره، علماً بأن شرط المدة هذا غير جازم، ومتروك كلية لتقدير الأستاذ، وعلى الطالب بعد ذلك تقديم رسالة مطبوعة فى إحدى مجالات التخصص الذى اختاره، وأن يجلس لاختبار شفهى شامل قبل منحه الدرجة الجامعية.

هذا النظام يتيح للطالب التخصص العميق إذا أراده، والدراسة العامة على تباين درجات اتساعها حسب ميوله، كما يمكنه من اكتشاف مواهبه ومهاراته ويعينه على تنميتها وتطويرها، وعلى توجيهها إلى تقنية معينة بذاتها، أو إلى اتقان منهجية خاصة، وهذا فى حقيقته هو الهدف الرئيسى من التربية الجامعية. والنظام المقترح يعطى الحرية لكل من الأستاذ والطالب، ويعين على تقدير الفروق الفردية بين الناس وأخذها فى الحسبان، وعلى التعمق فى الدراسة أو تعميمها حسب استعداد كل فرد وميوله وقدراته، كما يشجع على المبادرة، والإبداع، ويساعد على اكتشاف المواهب الدفينة، ويغنى عن نظام الاختبار بصورته الراهنة المضيعة للوقت والجهد والمحطمة للأعصاب، وغير المنصفة فى كثير من الأحيان. وهذا الأسلوب يلغى كل ذلك كما يشجع على تقدم البحث العلمى، ويصون الأخلاقيات الأساسية للتربية، ويحافظ عن طبيعتها الإنسانية النبيلة، ويعمل على تحقيق رسالتها السامية .، ويعيد إلى الذهن صورة التقاليد الإسلامية الجميلة التى قامت منذ أمد بعيد، وأثبتت فاعليتها على مدى من الزمن طويل.، ثم أقصيت عن معاهدنا رغماً عنا تحت توجيهات المستعمرين وأذنابهم، وأضحينا بها فى محاولات لاهثة لتبنى نظم مستوردة غريبة عنا ثبت فشلها بتخلفنا الحالى فى كل منحى من مناحى الحياة.

وهذا النظام ليس بدعة مستحدثة إنما هو مستقى من نظام الأزهر الشريف، والذى كان إلى عهد قريب يتبع نظما إسلامية كاملة، فلقد كان الطالب فيه هو الذى يختار بنفسه الأستاذ الذى يتلقى العلم على يديه، وكان له أن يتنقل من أستاذ إلى آخر حسب رغبته، وأن يتقدم للاختبار بمحض اختياره وإرادته، متى رأى نفسه مؤهلاً لذلك، ولم يكن الاختبار هو الوسيلة الوحيدة لتقييم الطالب، بل كان رأى أستاذه -الناتج عن معرفة حقة به، واحتكاك وثيق معه - هو الفيصل فى ذلك، وكانت الإجازة التى يمنحها تحمل اسم الأستاذ أو الأساتذة الذين تلقى عليهم العلم، ومما لا شك فيه أن نظاماً هذا شأنه هو أمثل النظم التربوية وأكثرها

إنسانية، بدليل أن تجارب العالم التربوية قد وصلت بعد بحوث عديدة طويلة إلى التوصية به والعودة إليه، وإن لم يسموه بتسميته الحقيقية، ولم يصفوه بأنه النظام الإسلامى فى التربية (انظر فور ومن معه، ١٩٧٤ ص ٣٠٥ - ص ٣٠٦).

أضف إلى ذلك أن طالب العلم آنذاك كان يطلبه حثيثاً لذاته، ويقطع المسافات الشاسعة من أجله، ولا يبالى بالاغتراب والحرمان من متع الحياة فى سبيله، ولم يكن يلهه عنه أى شاغل من شواغل الدنيا، وكان يعتبره نوعاً من عبادة الله والجهاد فى سبيله، وهذا لا يمكن أن يكون فى غير الإطار الإسلامى.

وليس معنى ذلك أننا نريد العودة بالعملية التربوية إلى ما كانت عليه فى الماضى تماماً - فذلك مخالف لطبيعة العصر، وسنن الأيام، ولكننا نريد التأكيد على عدد من المعانى والقيم التى لازمت العملية التربوية الإسلامية فى ماضينا المجيد، وأثبتت نجاحها وتفوقها، ونحن فى دعوتنا هذه لا يفوتنا التأكيد على الاستفادة بالتجارب الإنسانية فى ميدان التربية خلال القرن الماضى بصفة خاصة، «الكلمة الحكمة ضالة المؤمن، حيثما وجدها فهو أحق بها»[1]، كما علمنا رسولنا - ﷺ - والمعرفة تراث البشرية كلها، ساهمت كل الأمم والشعوب فى إثرائها وتنميتها على مدار السنين، وتتابع الحضارات، ونحن نعلم أن العملية التربوية أصبحت خاضعة فى كثير من جوانبها للمنهج التجريبى، ولا نجد سبباً واحداً يمكن أن يحول دون الاستفادة بكل ما تجمع لدى الإنسان من نتائج فى هذا المجال، ما دام لا يتعارض مع الإسلام ونصوصه ولا مع فلسفة التربية الإسلامية وأهدافها، فسواء اشترط فى معلم المرحلة الابتدائية أن يكون مدرس فصل أو مدرس مادة؛ بمعنى أن يعد إعداداً عاماً يجعله قادراً على تدريس كل المواد المناسبة لمرحلة الطفولة المبكرة، بحيث يختص كل فصل بمدرس واحد يقوم بتدريسه جميع المواد، أم يعد إعداداً متخصصاً فى مادة أساسية أو فى مجموعة من المواد المتجانسة التى يقوم بتدريسها لعدد من الفصول - ، أو نظم التدريس

---

(١) سنن الإمام ابن ماجة.

فى تلك المرحلة بمزج هذين الاتجاهين – حيث يعد المعلم للصفوف الأولى إعداداً عاماً، وللصفوف المتأخرة إعداداً متخصصاً – أو بتجميع المدرسين فى فرق متعاونة تعمل على التخطيط للعملية التربوية وتنفيذها سواء كانوا متساويين فى المسئوليات، أو متدرجين فيها، أو متناوبين عليها.، كل هذه تفاصيل مرهونة بنتائج تجريبها، فإذا كانت ناجحة... فنحن أولى الناس بها. ولكننا نحذر من خطورة تعريض الصغار للعديد من التجارب التربوية كما حدث مع وزير تعليم مصرى هو فى الأصل طبيب أطفال لا توجد لديه أية خبرات تربوية أو تعليمية قام بتغيير نظام التعليم العام فى مصر مرتين فى خلال توليه الوزارة، وكان كل الذى حققه أن ألف ثلاثة كتب باعها للوزارة المسكينة بثلاثة أرباع المليون من الجنيهات المصرية ثم قال أنه تبرع بها للمدرسة التى تعلم فيها حسب ما جاء بإحدى الجرائد الرسمية المصرية والضرر الذى نجم عن ذلك كان بالفعل أكبر من إمكانية تلافيه.

(١٦) العمل على الفصل بين الجنسين فى مراحل التربية المختلفة:

وذلك لأن الإسلام العظيم انطلاقا من احترامه لخصوصية الإناث أمرهن بالحجاب؛ كما حال بينهن وبين الاختلاط بالأجانب صونا لطبيعتهن الأنثوية الرقيقة ولتكوينهن العاطفى بالفطرة، وعلى ذلك فإن حضارة الإسلام – فى إنسانيتها ونبلها وسموها – قامت على الفصل بين الجنسين اكراماً للمرأة وصوناً لها، واعترافاً بحقوقها التى تقتضيها طبيعتها، وإن كان الاختلاط قد فرض علينا وعلى نظمنا التربوية المعاصرة بواسطة الاستعمار وأعوانه من أبناء أمتنا الدائرين فى فلكه، المفتونين بحضارته، فإن من واجب التربية الإسلامية التنبيه إلى خطر ذلك والعمل على درئه بإقامة مؤسسات تربوية لكل من الجنسين منفصلة تمام الانفصال، والدعوة إلى ذلك ما استطاعت إليه سبيلاً، وفى ذلك كتب الأستاذ الدكتور محمد محمد حسين (١٩٦٧) فى كتابه « **حصوننا مهددة من داخلها** فى أوكار الهدامين، ص ٢٥٨ » ما نصه: « .... **فإذا هذا الاختلاط يصبح حقيقة** واقعة بطريق ملتو خفى لم يكد يتنبه إليه أحد، وبعد أن طالت المدرسة الابتدائية

إلى ست سنوات يتجاور فيها الذكور والإناث. ومن المعروف أن الاناث فى بلدنا يدخلن سن المراهقة فى وقت مبكر لا يتجاوز السنة الحادية عشرة فى كثير من الأحيان، بل لقد أصبحنا أمام بعض المدارس المختلطة فى مرحلة التعليم الإعدادى، بعد أن تكشف تجربة الاختلاط فى جامعاتنا عن مآسى لا يستطيع تجاهلها إلا مكابر أو مدلس وأصبح هذا النظام ضرباً من ضروب الإلزام لا يستطيع والد أن يفر منه أو يتفاداه، لأن عليه أن يختار بين أن يبعث بابنه وبابنته إلى هذا الوسط وبين أن يحرمهم من التعليم ويحجبهم فى ظلمات الجهل، بل إنه لا يستطيع اختيار الطريق الثانى - على ظلمه وظلامه ؛ لأن قوانين الدولة تجبره على أن يعلم أولاده حتى نهاية هذه المرحلة الأولى على الأقل». ومع الاختلاط فى الجامعات المصرية انتشرت بدعة الزواج العرفى وما يصاحبه من مآسى إنسانية تدمى لها القلوب، وانتشرت بدع المصاحبة والمخادنة والزنى المستتر والمعلن، وغير ذلك من المفاسد السلوكية والأخلاقية المنافية لأصول الإسلام العظيم، بل انتشرت عمليات التنصير بين الشبان والشابات المسلمين والمسلمات بدعوى العشق والغرام الذى ينتهى عادة بمآسى يندى لها الجبين وتتمزق القلوب والأكباد ولكن بعد فوات الأوان.

(١٧) العمل على إقامة مؤسسات تربوية إسلامية شاملة: من المراحل الابتدائية حتى الجامعة بجهود شعبية، حيث إن الأمل فى استجابة الحكومات لذلك النداء الخّير ضعيف جدا خاصة فى ظل الضغوط الأمريكية الراهنة، والتعقيدات المحيطة بحكوماتنا الحالية ونظمها الحاكمة، وانبطاحها أمام الغطرسة الأمريكية والإسرائيلية قد لا تمكنها من الخروج مما تورطت فيه من اتفاقات. وأول ما يجب الاهتمام به من بين تلك المؤسسات التربوية هو معاهد المعلمين والمعلمات، فهذه إذا ما أقيمت على أسس إسلامية صحيحة خرّجت المعلم المسلم والمعلمة المسلمة وبهما يمكن إحداث الكثير من التغيير، وإحياء موات هذه الأمة التى أريد لها أن تقبر وهى حية بأيدى أعدائها وأيدى نفر من أبنائها الذين جهلوا دينها وتراثها بما فيه من عقائد وعبادات وأخلاق ومعاملات. فضلوا

طريقهم فى تلك الحياة ووقفوا من دينهم موقف العداء والمحاربة بدعوى التحديث والمعاصرة، وأعانوا الأعداء فى حربهم على الإسلام العظيم.

(١٨) العمل على وقف جميع أنشطة المدارس والهيئات التنصيرية فى العالم الإسلامى: وذلك لأن كثيراً من المصائب التى جرت فى العالم الإسلامى سببها المدارس التنصيرية، فبينما أتباع محمد ﷺ يؤمنون ببعثة السيد المسيح عليه السلام، وبما أنزل إليه من وحى كما يؤمنون بجميع أنبياء الله ورسله وملائكته وكتبه، فإن ما يسمون أنفسهم بالمسيحيين لا يعترفون ببعثة سيدنا محمد ﷺ، بل قد انحرفوا عن تعاليم السيد المسيح نفسه، وبينما المسلمون يدعون الناس كلهم إلى الله فإن مهمة المسيحيين فى العالم الإسلامى هى صرف الناس عن طريق الله، لأنهم يطعمون فى كسبهم إلى داخل أديرتهم وكنائسهم، ويكفى فى ذلك الإشارة إلى ما يحدث فى أندونيسيا والفلبين، والباكستان، وأفغانستان، وإيران، والعراق، وسوريا، والأردن، ولبنان، ودول الخليج، وفى اليمن، ومصر وباقى دول شمال إفريقيا، وفى كل من السودان، والصومال، والحبشة.

وتكفى أيضاً الاشارة إلى أن بالأردن أكثر من مائة وأربعين مدرسة تنصيرية الغالبية العظمى من طلابها (أكثر من ٨٥٪) من أبناء المسلمين.

وواجب المسلمين الغيورين على دينهم، والحريصين على تنشئة أبنائهم على أسسه وفى هداه ألا يكتفوا فقط بإقامة البديل – وهو نظام تربوى إسلامى شامل – بل لابد من وقف جميع المدارس التنصيرية والنشاط التنصيرى فى العالم الإسلامى. خاصة وأن عملية التنصير فى العالم الإسلامى اليوم بدأت تأخذ أبعادا خطيرة يفترس فيها المنصرون صغار الشبان والشابات من أبناء وبنات المسلمين بما تفيض عليهم به الكنائس والحكومات الغربية من أموال ودعم مادى ومعنوى وتسهيلات خيالية تحت مظلة حماية الأقليات، وفى ظل ضغوط دولية عديدة لإخلاء كل من مراحل التعليم ووسائل الإعلام من أية توعية أو تربية إسلامية حقيقية، وانبطاح الحكام أمام هذه الضغوط وتسابقهم فى إرضاء السادة من

حكام الغرب والشرق ومغالاتهم فى محاربة حملة لواء الدعوة الإسلامية وملء السجون والمعتقلات بقياداتهم وأتباعهم فى الوقت الذى تعترف فيه كل أجهزة الاستخبارات الدولية بأن الإسلام هو أكثر الأديان انتشاراً فى عالم اليوم، وأن الذين يقبلون على أعتناقه طواعية واختياراً هم كبار رجال ونساء الفكر والرأى عندهم، وشتان بين دين يشترى له أتباع من صغار السن وقليلى التجربة باغراء الأموال والمراكز والشهوات، وباستغلال احتياجات الناس ومساومتهم على دينهم بلقمة الطعام أو قطرة الدواء أو خيمة الإيواء، أو باستغلال الأزمات النفسية التى يمر بها بعض الناس، أو باستخدام السحر الأسود والشعوذة والإدعاء بمعالجة حالات مرافقة الجن أو الصرع أو الإصابة ببعض الأمراض المستعصية، وبين دين يقبل عليه كبار رجال ونساء العلم والفكر والرأى طواعية واختيارا بمجرد اطلاعهم على شىء من أصوله.

وأصل من أصول الإسلام العظيم يقول لنا فيه ربنا – تبارك وتعالى –: ﴿لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ...﴾ [البقرة: ٢٥٦].

وأصل من أصول الإسلام العظيم يسجله القرآن الكريم على لسان خاتم الأنبياء والمرسلين – ﷺ – بقوله للكافرين: ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾ [الكافرين: ٦].

ولولا هذه السماحة فى الإسلام العظيم ما بقى بين ظهرانى المسلمين نصرانى ولا يهودى واحد. ولكن المصطفى – صلوات الله وسلامه عليه – يوصينا بأهل الكتاب خيرا فيقول: «من آذى ذمِّيًا فقد آذانى»[1].

وفى مقابل هذه السماحة تطاول اليهود والنصارى على الإسلام العظيم وعلى القرآن الكريم تطاولاً غير مسبوق، فاليهود احتلوا أرض فلسطين بمؤامرة دولية حقيرة قادتها الدول الصليبية وفى مقدمتها بريطانيا ثم تبنتها الولايات المتحدة الأمريكية.

والنصارى أشعلوها حربا على الإسلام والمسلمين فى جميع وسائل الإعلام ويأتى شيطان من شياطين الإنس اسمه «زكريا بطرس» باع نفسه ودينه وعرضه

---

(١) ابن ماجه.

لشياطين الجن والإنس وأنشأ قناة فضائية للموت وسماها خطأ باسم الحياة يتطاول فيها على القرآن الكريم - وهو لا يؤمن به - ويتطاول كذلك على خاتم الأنبياء والمرسلين وأشرف الخلق أجمعين - وهو لا يؤمن ببعثته - وأعجب من تعرض هذا الشيطان وتعرض العديد من صبيانه من أمثال مكارى يونان فى الكنيسة المرقسية - بكلوت بك - القاهرة، وصموئيل أبو جابر بإحدى كنائس عمان - الأردن للإسلام بسوء كبير وهم لا يؤمنون به. بينما نحن المسلمين نؤمن بجميع أنبياء الله ورسله وكتبه ولا نتعرض بسوء لديانة من تلك الديانات على الرغم من يقيننا بأن أتباعها قد انحرفوا بها عن جادة الطريق، وقد حرفوا كلام الله وبدلوه وغيروه آلاف المرات ولا يزالون حتى أصبحوا أهل شرك وضلال بين.

ومن هنا كان لا يمكن أن يؤتمن على تربية أبناء المسلمين غير أساتذة وإداريين مؤمنين بالله ربا واحدا أحدا، فردا صمدا، بغير شريك ولا شبيه ولا منازع ولا صاحبة ولا ولد، وينزهونه - تعالى - عن جميع صفات خلقه وعن كل وصف لا يليق بجلاله، ويؤمنون بملائكة الله وكتبه ورسله دون أدنى تفريق، كما يؤمنون بالآخرة وما فيها من بعث وحساب وجزاء وجنة ونار وإنها لجنة أبدا أو نار أبدا.

(١٩) العمل على تحرير عملية التربية والتعليم من سيطرة الأساتذة والإداريين من غير المسلمين، والعمل على أن يكون التعليم بمختلف مراحله فى الدول العربية بلغة القرآن الكريم، على أن يسبق ذلك بحركة ترجمة واسعة لأمهات الكتب فى مختلف مجالات المعرفة، وأن يصاحب الترجمة تعليق هامشى مبسط من المترجم على كل فكر يرى فيه انحرافاً عن النهج الإسلامى الصحيح فى الاعتقاد أو العبادات أو الأخلاق أو المعاملات، أما فى الدول الإسلامية غير العربية فلا بأس من أن تكون الدراسة باللغة الأم، لأن الدارس لا يمكن له أن يبدع بغير لغته الأم، على أن يبقى الاهتمام بدراسة اللغة العربية فى مختلف مراحل التربية أمرا واجبا، ففى عصر النهضة الإسلامية انفتحت الأمة على جميع الثقافات الأخرى دون أن تفقد شخصيتها الأصيلة، كما اهتم العرب بتعلم اللغات الأجنبية، ولكنهم أصروا على ألا يكون التعليم والبحث والكتابة بغير لغة القرآن الكريم، إعتزازاً بإسلامهم وحرصاً على أن تكون المعرفة ملكاً لكل فرد من أفراد الأمة لا وقفاً

على حفنة ممن يعرفون اللغات الأجنبية، بل إن غالبية العلماء المسلمين من غير العرب حرصوا على الكتابة بالعربية فهذا هو البيرونى العالم المسلم الذى تتنافس عشرات من دول العالم فى محاولة نسبته عرقيا إلى أى منها، والذى يجمع على أنه كان أبرز عقلية علمية فى زمانه، وقد كان يجيد أكثر من لغة غير اللغة العربية ولكنه أصر ألا يكتب بغيرها وحينما سئل عن ذلك أجاب بأنه أحلى على سمعه أن يسب باللغة العربية من أن يُطْرى بغيرها من اللغات.!!! وبالفعل كانت اللغة العربية أوثق رباط بين المسلمين من الأعراق المختلفة بعد الإسلام، ويوم أن ضيعناها ضاع هذا الرباط.

(٢٠) **الاستفادة من مختلف التجارب البشرية فى مجال التربية**، ومن أحدث وسائل التقنية أفضل (الحاسبات) ومراكز المعلومات، التصوير، التسجيل الإذاعى والتلفازى والسينمائى، شبكات المعلومات المحلية والدولية - خاصة فى مجالات الاستنساخ والإعلام، وأنسب وسائل الإيضاح - خاصة بالأقراص المدمجة الأفلام والشرائح المصورة والنماذج المجسمة، والدراسات الميدانية والحقلية المختلفة)، دون مبالغة أو إسراف.

(٢١) **العمل على الاهتمام بالتدريب العسكرى فى تربية الذكور**، وبالتمريض والتدبير المنزلى والعمارة الداخلية والدراسات النفسية والفنية فى تربية الإناث من بداية تمكنهم من ذلك.

(٢٢) **العمل على تغيير أسماء الشهادات فى العالم الإسلامى** - وكلها أسماء أجنبية فقدت حقيقة دلالاتها مع الزمن - إلى أسماء إسلامية. فما هى الدلالة الحقيقة لشهادات مثل بكالوريوس (وهو فى الأصل لقب للأعزب)، أو الليسانس (الرخصة)، أو الماجستير (وهى فى الأصل لقب للسيد)، أو الدكتوراه (وهى فى الأصل لقب للفقيه)؟

أليست **الإجازة العامة، وإجازة التخصص، إجازة التدريس (إجازة الفقيه)** وهى مراتب استخدمت من قبل فى المعاهد الإسلامية، واستمر استخدامها إلى عهد قريب بأدق دلالة وأجمل معنى؟ وإن كانت قد أهدرت قيمتها فى الأزمنة الأخيرة واستخدمت فى غير دلالاتها الحقيقية !!!

(٢٣) التربية على أساس من الإيمان بأن الوقت هو الحياة، وبالتالى الإحساس العميق بقيمة الوقت الذى لا يجوز أن يهدر أبدا، فيستفاد به فى عبادة الله، وفى كسب المعارف والمهارات، وفى الرياضيات البدنية، وفى السعى من أجل الكسب الحلال والتنمية الذاتية والاجتماعية والإنسانية بكل أبعادها المادية والعضوية والروحية. والتربية فى الإسلام تهدف إلى المحافظة على البيئة بأبعادها المادية والمعنوية، فيسعى المسلم للمحافظة على البيئة من الملوثات المادية كما يحفظها من الملوثات السلوكية والعقدية.

(٢٤) العمل على التأصيل الإسلامى لمختلف المعاوف المكتسبة: لأنه فى ظل الحضارة المادية المعاصرة أصبحت هذه المعارف تكتب فى غالبيتها من منطلق مادى بحت، منكر للدين ومعاد لقضية الإيمان، وسبب ذلك هو تخلف المسلمين عن ركب الحضارة الإنسانية بعد أن حملوا لواءها لقرون عديدة، وانتقال ذلك اللواء إلى أمم ذات مذاهب دهرية مختلفة تمتد من الرأسمالية إلى الشيوعية تركت آثارها على المعارف الإنسانية بصفة عامة وفى كتابات العلوم الكونية -البحتة منها والتطبيقية - بصفة خاصة، فى عصر تميز بأنه عصر العلوم والتقنية. وقد زاد الأمر تعقيداً أنه فى غمرة المحاولات للحاق بالركب تم نقل هذه الكتابات بخيرها وشرها، وبما تحمله فى طياتها من خلفية إلحادية منكرة لا تؤمن بغير المادة - مما أدى إلى إثارة الكثير من البلبلات الفكرية فى العالم الإسلامى فى وقت فتن الناس فيه بمنجزات العلوم والتقنية فتنة كبيرة، وحوصرت معاهد التربية الإسلامية حتى تم خنقها، أو كادت أن تكون قد خنقت، وفرضت على الأمة الإسلامية نظم تعليمية مادية فى جوهرها وفلسفتها ومحتواها ومناهجها... وإن نطقت الأمة بالشهادتين وأدت من العبادات ما استطاعت أن تؤديه، وهذا التناقض أدى إلى شىء من التمزق الفكرى والنفسى بين الشباب إلا من رحم ربى.

وبقيت المعارف - فى غالبيتها - تكتب وتدرس عندنا من نفس المنطلق، وفى كثير من الأحيان بنفس اللغات الأجنبية، وحتى ما ينشر منها باللغة العربية أو باللغات المحلية فى بقية الدول الإسلامية لا يكاد يخرج فى معظمه عن كونه

ترجمة مباشرة للأفكار الوافدة بما فيها من تعارض واضح أحياناً مع نصوص الدين، مما يمثل أحد الأسباب الرئيسية لأزمة التعليم فى العالم الإسلامى المعاصر ، وواجهة من واجهات التحدى الحضارى أمام المسلمين، وهذا يستلزم إعادة كتابة المعارف الإنسانية، كتابة تضعها فى إطارها الصحيح على أنها محاولات بشرية محدودة بحدود قدرات الإنسان العقلية والحسية، وحدود مكانه من الكون وزمانه أى عمره، كما تعيد كتابتها على ضوء من وحى السماء الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، فى غير تكلف أو تعسف أو افتعال...، فكلها من مصادر. المعرفة التى على الإنسان أن ينهل منها ويستوضح طريقه على هديها.

ويمكن أن يتم ذلك بتطهير الكتابات فى العلوم المكتسبة جميعها مما خالطها من التعبيرات الخاطئة، والاستنتاجات المغلوطة، إحقاقاً للحق، وانتصاراً للعلم والإيمان معاً، ودفعاً للخلط بين المعارف المكتسبة بالقدرات البشرية المحدودة من جهة وبين علم الله المحيط وقدرته التى لا حدود لها من جهة أخرى، دون أدنى مساس بالمنهج العلمى أو حجر على العقل البشرى. وإذا استطاع المسلمون أن يقوموا بهذه المهمة فإن بإمكانهم أن يقدموا للإنسانية الحائرة اليوم هدايتها، ولنظم التعليم المريضة علاجها.

(٢٥) الحرص على إبراز دور العلماء المسلمين من القدامى والمعاصرين فى تقدم عجلة المعرفة الإنسانية، وعلى إبراز قضية الإعجاز فى كتاب الله وسُنَّة رسوله وذلك فى كل تخصص من التخصصات دون أدنى تكلف أو افتعال. وكذلك الحرص على استخلاص العبرة من كل حقيقة علمية ودلالاتها على وجود الخالق – سبحانه وتعالى – وعلى حقيقة الخلق، وعلى شئ من صفات هذا الخالق الحكيم العليم، أو الاستدلال على حتمية الآخرة ووجوبها، أو على إمكانية البعث وضرورة تحققه حتى لا ندور بالمعارف المكتسبة فى أطرها المادية وحدها وبذلك يتم التأصيل الإسلامى للمعارف الإنسانية، وهو من المطالب الملحة

لإصلاح التعليم خاصة فى زمن الفتن الذى يعيشه إنسان العصر الحاضر.

ب - التربية الإسلامية فى نطاق المجتمع:

لم تكن التربية الإسلامية فى يوم من الأيام وقفاً على النخبة المتميزة بالجاه والسلطان والمال فى أى مجتمع، ولم تكن جماعية قسرية، تلغى الوجود الفردى أو تهمله.، كما لم تكن فردية تلغى وجود المجتمع وحقه على كل فرد فيه فالإسلام نزل للناس كافة، وطالب الجميع بالإيمان الصادق المبنى على العلم والالتزام والمبرهن عليه بالعمل الصالح على الدوام، وهذا لا يمكن أن يتأتى بدون تربية إسلامية صحيحة، ومن هنا كانت التربية الإسلامية حقاً مشروعاً لكل مولود، وفريضة على كل مسلم ومسلمة، ومسئولية فى عنق كل صاحب علم أن يعمل بما علم، وأن يؤدى زكاة علمه لكل محتاج إليه، ومن هنا تصبح العملية التربوية مسئولية الأمة بأكملها، لا مسئولية وزارة بعينها، ولا أفراد بذواتهم، إنما هى مسئولية كل فرد بالغ عاقل متعلم فى الأمة، وكل جماعة وكل مؤسسة يتحقق لها ذلك، ومفهوم الأمة فى الإسلام أقوى مفهوم عرفته البشرية من حيث قوة الترابط والشعور بالمسئولية، وعلى ذلك يصبح القضاء على الأمية فى المجتمع الإسلامى - بل فى المجتمع الإنسانى الكبير - أمراً واجباً فى الشريعة الإسلامية.

والأمية صنفان: أولهما جهل بالقراءة والكتابة، وهذه تبلغ نسبتها بين البالغين (أكثر من ١٥ سنة) فى دول العالم الإسلامى اليوم حوالى ٥٨٪ فى المتوسط.

وثانيهما جهل برسالة الإنسان فى هذه الحياة، وبمصيره من بعدها، وهذه أخطر من أمية القراءة والكتابة.، أخطر قدراً لأن الذى يقع فيها يفقد الجزء الأعظم من إنسانيته، وأخطر نسبة لأن الغالبية العظمى من الناس اليوم واقعون فى براثنها، ومن واجب التربية الإسلامية محاربة الأميتين معا بأسلوب علمى منهجى صحيح. تتضافر جهود المسلمين فى التخطيط له وفى تنفيذه على المستويين الرسمى والشعبى، الجماعى والفردى، وباستراتيجية مبدئية مقترحة

على النحو التالى :-

(١) تكوين هيئات متخصصة لمكافحة الأمية بنوعيها : أمية القراءة والكتابة، وأمية العقيدة وذلك بأسلوب عصرى منهجى سليم، ودعم تلك الهيئات بالقوى البشرية اللازمة لذلك، وبكل احتياجاتها المادية والمعنوية، وبالوسائل التى تمكنها من تحقيق غاياتها، ودعوة القادرين من أبناء المسلمين على التطوع لذلك، وإفهامهم أنه واجب إسلامى عليهم، **فمما يروى عن رسول الله ﷺ أنه خطب ذات يوم فأثنى على طوائف من المسلمين خيراً، ثم قال : «ما بال أقوام لا يفقهون جيرانهم، ولا يعلمونهم ولا يعظونهم، ولا يأمرونهم ولا ينهونهم. ! ! وما بال أقوام لا يتعلمون من جيرانهم، ولا يتفقهون، ولا يتعظون. ! ! !، والله ليعلمن قوم جيرانهم، ويفقهونهم، ويعظونهم، ويأمرونهم، وينهونهم، وليتعلمن قوم من جيرانهم، ويتفقهون، ويتعظون، أو لأعاجلنهم العقوبة.»**، ثم نزل رسول الله ﷺ فقال قوم من ترونه (صلوات الله وسلامه عليه) عنى بهؤلاء؟ فقيل : الأشعريين، هم قوم فقهاء، ولهم جيران جفاة من أهل المياه الأعراب؛ فبلغ ذلك الأشعريين، فأتوا رسول الله ﷺ، فقالوا: «يا رسول الله، ذكرت قوماً بخير وذكرتنا بشر، فما بالنا؟». فقال (صلوات الله وسلامه عليه) : «ليعلمن قوم جيرانهم، وليعظنهم، وليأمرنهم، ولينهونهم، وليتعلمن قوم من جيرانهم، ويتعظون، ويتفقهون، أو لأعاجلنهم العقوبة فى الدنيا) . فقالوا: «يا رسول الله أنفطن غيرنا؟» فأعاد قوله عليهم، فأعادوا قولهم: «أنفطن غيرنا؟» فقال ذلك أيضاً ثم قرأ رسول الله ﷺ الآية الكريمة: **﴿لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُودَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا وَّكَانُوا يَعْتَدُونَ * كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾** [المائدة: آية ٧٨، ٧٩]. فقال القوم لرسول الله - ﷺ - أمهلنا سنة، فأمهلهم سنة يفقهونهم، ويعلمونهم، ويعظونهم[١].

ومن هذا الحديث الشريف يتضح أن رسول الله ﷺ استنكر بقاء الجهلة على جهلهم، وامتناع المتعلمين عن تعليمهم، واعتبر ذلك عصياناً لأوامر الله

---

(١) الحديث رواه الطبرانى فى الكبير .

تعالى ولشريعته، ومنكرا يوجب الحرب فى الدنيا واللعنة والعذاب فى الآخرة، وأنذر رسول الله ﷺ الفريقين: العالم والجاهل بالحرب حتى يبادروا بالتعليم والتعلم وأعطاهم لذلك مهلة عام واحد، وبذلك يكون رسول الله - صلوات الله وسلامه عليه - قد أسس حق الجاهل فى التعلم، وواجب المتعلم تجاه الأميين وغير المتعلمين، ودور الحاكم فى فرض ذلك، وهذا أول إعلان من نوعه لمحو الأمية بنوعيها، أطلقه رسول الله ﷺ قبل أن تعقله المدنية الحديثة بخمسة عشر قرناً.

وفى تقديرى أنه لو كان المسلمون قد وعوا مضمون هذا الحديث حق الوعى لما بقى فى العالم الإسلامى اليوم جاهل واحد.

ولو أن فى كل حى من أحياء المدينة، وكل قرية من قرى الريف، وكل نجع من نجوعه مسلم متعلم واحد يعى مسئوليته التى لخصها رسول الله ﷺ حق الوعى لشمر عن ساعد الجد، وبدأ فى محو أمية الناس من حوله، بدءاً بمن يليه. أهلاً، وإخوانا وأبناءً ورفاقاً، ومأجورين. ، دون انتظار لدعم حكومى، أو قرار وزارى، أو مكافأة مادية، أو مبنى مخصص، فالمساجد مفتوحة، والزكاة مفروضة، وأبواب الصدقات متعددة، وأهل الخير لا ينقطعون . وأحاديث المصطفى ﷺ فى ذلك أكثر من أن تحصى ومنها قوله - ﷺ -:

● «علماء هذه الأمة رجلان: فرجل أعطاه الله علماً فبذله للناس ولم يأخذ عليه صُفْراً، ولم يشتر به ثمناً، أولئك يصلى عليهم طير السماء وحيتان البحر، ودواب الأرض والكرام الكاتبون، ورجل آتاه الله علماً فضربه عن عباده وأخذ به صفراً، واشترى به ثمناً، فذلك يأتى يوم القيامة ملجماً بلجام من نار»(١).

● «إن الله وملائكته وأهل السماوات والأرضين - حتى النملة فى جحرها، وحتى الحوت فى البحر - ليُصَلُّون على معلم الناس الخير»(٢).

● « فوالله لأن يهدى الله بك رجلاً واحداً خير لك من أن يكون لك حُمر النعم »(٣).

(١ : ٢) سنن الإمام الترمذى.
(٣) صحيح الإمام البخارى.

● « مثل الذى يتعلم العلم ولا يحدث به الناس كمثل الذى رزقه الله مالاً لا ينفق منه » .

● « من الصدقة أن يتعلم الرجل العلم فيعمل به ثم يعلمه » .

● « . . . الله أجود الأجواد، وأنا أجود ولد آدم، وأجودهم من بعدى رجل علم علماً فنشر علمه، يبعث يوم القيامة أمة وحده، ورجل جاد بنفسه فى سبيل الله حتى قتل » .

● « من علم علماً فله أجر ذلك ما عمل به عامل لا ينقص من أجر العامل شىء »[1] .

(٢) دعوة الأميين للتعلم، وإيجاد الحوافز الفردية والجماعية اللازمة لذلك، خاصة وأن الأمية منافية للإسلام، ولكرامة الإنسان، فلا يجوز لمسلم أن يجهل أصول دينه، كما لا يجوز له أن يبقى أمياً لأن ذلك يحول بينه وبين نعم كثيرة أولها القدرة على تلاوة كتاب الله الكريم وسنة رسوله المطهرة، وآخرها الاطلاع على تراث الإنسانية الهائل فى مختلف جوانب المعرفة مما يمكنه من القيام بدوره الحقيقى كمخلوق عاقل، مكرم، حر، ذى إرادة، مستخلف فى الأرض، ومطالب بعبادة الله – تعالى – فيها بما أمر، وبحسن القيام بواجبات الاستخلاف فى الأرض بعمارتها وإقامة عدل الله فيها . ومن ذلك قيامه بمسئولياته تجاه نفسه ومن يعول، وتجاه مجتمعه وأمته، بل وتجاه الإنسانية كلها، والإنسان لا يمكنه القيام بهذه الواجبات كلها دون علم . كذلك من الواجب دعوة الإنسانية كلها إلى الإسلام بوصفه آخر الرسالات السماوية وأكملها وأتمها، خاصة وأن الناس اليوم على **اختلاف ألوانهم** يتطلعون إلى هذا النور الحق بعد أن تاهوا عنه بتحريف أديانهم وعبثهم بها والدعوة للإسلام يجب أن تكون بأسلوب عصرى سمح، وحجة منطقية واضحة فالغالبية العظمى من أهل الأرض اليوم لا تعرف شيئا عن

---

(١) ابن عبد البر فى « جامع بيان العلم وفضله » .

الإسلام، وربما لم تسمع به على الاطلاق أو سمعت عنه كلاماً محرفاً، ومن واجب المسلمين نقل صورة واضحة عن هذا الدين القيم إلى أهل الأرض جميعا اعذاراً إلى الله، وتأكيداً على معنى الأخوة الإنسانية، وأملاً فى أن تتوقف تلك الحروب الظاهرة والمستترة والتى تتبناها حكومات ومنظمات عديدة ضد الإسلام.

(٣) دعوة المتعلمين على مختلف مستوياتهم إلى التطوع لمحو الأمية بنوعيها، أمية العقيدة وأمية القراءة والكتابة، وليبدأ كل منهم بأقرب الناس إليه .أهلا له، أو خدماً فى بيته، أو عمالاً يعملون تحت إشرافه، ويمكن الاستفادة فى ذلك بأئمة المساجد ووعاظها، وبموظفى الدولة فى أوقات فراغهم، وبالمحالين إلى التقاعد ممن تعينهم ظروفهم الصحية على ذلك، وبالطلاب خلال العطلات المدرسية، وبوسائل الإعلام المتطورة من مثل التليفزيون والحواسيب ومراكز المعلومات وشبكاتها المختلفة وبمبانى المدارس والمعاهد التعليمية المختلفة فى غير أوقات الدراسة، ويمكن أيضاً الاستفادة فى ذلك بالأعداد الهائلة من المسلمين الذين يتواجدون فى بلاد غير إسلامية بالأعداد الكبيرة من غير المسلمين المتواجدين فى ديار الإسلام فى داخل هذا البرنامج، كما يجب التأكيد على أن هذه المهمة من أنبل المهمات التى يمكن أن يقوم بها المسلم ومن أجمل ما يمكن أن يتقرب به المرء إلى الله. !!!

(٤) إعانة الراشدين الذين لم تتح لهم فرصة إتمام تعليمهم لأسباب مختلفة، وذلك بتصميم برامج تدريب مختلفة لهم أثناء عملهم، أو بعد فراغهم من العمل، أو بمنحهم إجازات تفرغ دورية لمدد قصيرة أو طويلة. وهذا يمكن أن يفيد العملية التربوية ذاتها حيث إن كثيراً من عناصرها يوجد فى خارج إطار المدرسة، فى المجتمع الخارجى، فى زحمة الجهاد من أجل اكتساب لقمة العيش وما يحتاجه ذلك من أساليب فى معاشرة الناس، وكثيراً ما يكسب المرء فى تجربته الاجتماعية ما لا يمكن تحصيله داخل أسوار المعهد التعليمى، فإذا عاد للدراسة مرة أخرى كان له من النضج الاجتماعى والرؤية الكافية ما لا يمكن أن يتوفر للدارس الذى لم يخرج للحياة ولم تكن له تجربة فيها، وأمثال هؤلاء الذين

يجمعون بين الرؤية النظرية والتطبيق العملى هم الذين أثروا التراث الإنسانى وأضافوا إلى الفكر البشرى، وساعدوا على تطور المجتمعات تطوراً ملحوظاً. وفى إطار ذلك يمكن التأكيد باستمرار على قيمة العمل اليدوى والفنى واحترامه وتقديره وتشجيع الناس عليه، وهو منطلق إسلامى سليم تفتقر إليه المجتمعات فى العالم الإسلامى اليوم.

(٥) **العمل على إحياء رسالة المسجد** من جديد ليعود كما كان فى عهد رسول الله - ﷺ - وحتى الماضى القريب: مكانا للعبادة، ومدرسة لتعليم الصغار القراءة والكتابة وتحفيظهم كتاب الله ، وجامعة شعبية مفتوحة تعقد فيها حلقات العلم التى يحضرها الناس بدون أية شروط، وتدار فيها المحاضرات والمناقشات العلمية على مختلف المستويات، ومجلساً للشورى، ومنتدى إسلامياً، وداراً للقضاء، ومراكز تنطلق منه قوافل الجهاد، وداراً لضيافة الوفود ومركزاً اعلامياً للإسلام، وملجأ لمن لا ملجأ له. والمسجد بهذه الصورة يربط أفراد المجتمع الواحد برباط وثيق، ويؤكد على معنى الأخوة بين الناس، وعلى ضرورة التعاون والتكامل بينهم، ولو أن كل مسجد فى الأرض قام بمسئولياته تلك لأنقشعت غيوم الأمية بشقيها: أمية العقيدة، وأمية القراءة والكتابة عن العالم الإسلامى المعاصر فى زمن قصير جداً.

وفى هذا الصدد تجدر الإشارة إلى ضرورة إعادة النظر فى تخطيط بناء مثل هذا المسجد الجامع تخطيطاً هندسياً بسيطا فى غير اسراف، ولكنه واف يُمكنّه من القيام برسالته الشاملة، فيحتوى قاعة للصلاة ومركزاً لتحفيظ القرآن الكريم، ومكتبة عامرة بأمهات الكتب الإسلامية وقاعة للمحاضرات العلمية والفكرية والاحتفالات الدينية والاجتماعية، وكذلك يحتوى على مركز للإسعاف ومستوصف وصيدلية، وسكنا لطلاب العلم، ودار ضيافة لعابرى السبيل وكل ما يمكن أن يعين على تحقيق رسالة المسجد الكلية فى صورة مبسطة ومتكاملة وجميلة، تأسيا بسيدنا رسول الله ﷺ وما اتبعه فى بناء مسجده من البساطة والبعد عن البذخ والترف والإسراف، وغير ذلك من الأمور التى تلاحظ فى كثير

من المساجد التى أنشئت ولا تزال تنشأ فى العالم الإسلامى اليوم من المبالغات التى يرفضها الإسلام.؛ فلو أن الملايين التى تنفق على زخرفة المساجد والمبالغة فى فخامة مبانيها – وهى من الأمور المنهى عنها – وجهت إلى استكمال رسالة المسجد على النحو الذى أسلفناه لكانت كافية لإنشاء عشرات من المساجد فى مناطق تفتقر إلى مسجد واحد، ولما بقيت أمية فى العالم الإسلامى، فنظام «الكتاتيب» الذى لعب دوراً رئيسياً فى القضاء على الأمية ونشر العلم فى مختلف ربوع العالم الإسلامى قد بدأ أساساً من المسجد، ثم انتقل إلى غرفة مجاورة له توقيراً لمكان العبادة وحتى لا يكون فى عملية التعليم والتعلم إزعاجًا للمصلين، وتطور الأمر بعد ذلك ليشمل بناء المسجد العديد من المنشئات فى مراحل متتالية حتى أن مسجد سليمان القانونى فى تركيا كان يضم إلى ساحته عشر مؤسسات منها كليات أربع، ومدارس، ومستشفى، ووحدات سكنية لطلاب العلم، وكان المسجد يتحول فى فترات ما بين الصلاة إلى قاعة حقيقية للدرس والمحاضرات، وكذلك كان مسجد محمد الفاتح الذى ضم على جانبيه كليات للدراسات الإسلامية، وعددا من المكتبات العامرة ، ومضافة، ومستشفى، ومركزاً لتوزيع الطعام، وبالمثل كانت ولاتزال مدينة البعوث الإسلامية إلى جانب الجامع الأزهر، ولو أنها حورت أخيراً لتصبح مجرد سكن للطلاب المبتعثين للدراسة فى الأزهر الشريف.

(٦) الدعوة إلى تخصيص جزء من زكاة الأموال للإنفاق على مراكز التربية الإسلامية (من مدارس ومعاهد وجامعات) فهذا هو أحد فقهاء المسلمين المرموقين فى زماننا (القرضاوى ١٣٨٩هـ/ ١٩٦٩م ص ٦٦٨) يكتب فى تفصيل المصرف السادس من مصارف الزكاة، والمعبر عنه بالنص القرآنى (وفى سبيل الله) ما يدعم ذلك ويؤيده ونقتطف من ذلك قوله: « ... لهذا نرى أن توجيه هذا المصرف إلى الجهاد الثقافى والتربوى والإعلامى أولى فى عصرنا بشرط أن يكون جهداً إسلامياً خالصاً، وإسلامياً صحيحاً، فلا يكون مشوباً بلوثات القومية والوطنية، ولا يكون إسلاماً مطعماً بعناصر غربية أو شرقية يقصد بها

خدمة مذهب أو نظام أو بلد أو طبقة أو شخص.، فلابد إذن أن يكون الإسلام هو الأساس والمصدر، وهو الغاية والوجهة، وهو القائد والموجه، حتى تستحق تلك المؤسسات شرف الانتساب إلى الله، ويعد العمل فيها ولها جهاداً فى سبيل الله».

(٧) العمل على إحياء سنة الوقف الإسلامى من جديد، والوقف على التربية الإسلامية ومعاهدها بصفة خاصة، ومطالبة الحكومات التى حلت هذا النظام واستولت على أمواله بالتعويض عنها، ومطالبة كل قادر بدعمه، ثم التخطيط لحسن إدارة هذه الأموال، واستخدامها لتحقيق الأغراض التى وقفت من أجلها. واعتبر الفقهاء عدم تنمية الوقف من تضييع المال الذى أمر الله - تعالى - بحفظه.

(٨) العمل على إقامة المجتمع الإسلامى بكل سماته، لأنه مجتمع بطبيعته يحارب الأمية بنوعيها، ويعمل على نشر العلم، وعلى الترقى بالإنسانية فى مدارج الكمال البشرى فإن مجتمعاً يحكمه القرآن الكريم لا يمكن أن تبقى فيه أمية، فضلاً عن جهالة.، فمن واجبات المسلم قراءة القرآن وتفهم آياته، والتعرف على أحكامه وتشريعاته، وهذا لا يمكن أن يتحقق إلا بقدر من المعرفة يمكنه من ذلك، وعليه لم يكن مستغرباً -كما سبق أن أشرنا- أن تنتشر مراكز التعليم الابتدائي -الكتاتيب - المتوسط والعالى - المدارس ودور العلم والجامعات- فى مختلف أرجاء العالم الإسلامى على هيئة نظام تعليمى حر يعتمد على تكافل أفراد المجتمع الواحد، وعلى التطوع وعلى الأوقاف، وعلى العون المادى من ذوى الثراء، ولم يكن من المستغرب أن يقوم العديد من ميسورى المسلمين باقتطاع أجزاء من ممتلكاتهم ووقفها على التعليم والتربية - بصفة خاصة - وعلى الدعوة الإسلامية - بصفة عامة - وفى إقامة المجتمع الإسلامى للنموذج الذى يحتاج الناس إلى رؤيته واقعاً حياً بينهم. يمكن أن يقتدوا به، ويقتفوا أثره.

❊ ❊ ❊

خاتمة

يرى عدد من التربويين أن أزمة التعليم المعاصر تتلخص فى تزايد عدد الأميين البالغين باستمرار خاصة في دول العالم الثالث التى لا تستطيع ميرانياتها مواجهة التزايد المستمر فى تعداد السكان وإقامة المؤسسات التعليمية اللازمة لمواجهة هذا التزايد المطرد، ولكن الحقيقة هى أن الأزمة تتجسد فى تزايد الأمية بنوعيها: أمية الجهل بالقراءة والكتابة، وأمية الجهل برسالة الإنسان فى هذه الحياة، وكل من الأميتين آخذ فى الازدياد بين الناس وسط عصر تميز بانفجار حقيقى فى المعرفة...، **فالأولى** يتزايد فيها مجموع عدد الأميين البالغين - أكثر من ١٥ سنة- فى العالم بصفة عامة وفى العالمين العربى والإسلامى بصفة خاصة، وذلك نظراً للانفجار السكانى وللأزمات الاقتصادية التى تحول دون مسايرة التوسع فى التعليم للزيادة السكانية - خاصة فى الدول النامية -، **والثانية** تكاد تجرف العالم كله نظراً لتصفية نظم التعليم الدينى، وإحلالها بنظم تعليمية دنيوية تدور بالعملية التربوية وبالمعارف الإنسانية كلها فى إطار مادى صرف، وبذلك تأتى جزئية، قاصرة، منقوصة، لا يمكنها أن تقوم بدورها التربوى أو التعليمى على الوجه الأكمل. وقد زاد هذه النظم فساداً عملية الفصل المتعمدة بين تعليم دينى لا علاقة له بالتطور العلمى والتقنى المعاصر، وتعليم مدنى لا علاقة له بالدين وذلك فى الدول التى بقى لها شيء من التعليم الدينى مثل دول العالم الإسلامى، وبذلك تم التضييق على المعاهد الإسلامية حتى تم حصر نشاطها فى دور تقليدى يتلخص فى المحافظة على التراث، ونقله من جيل إلى جيل، وذلك درءاً لتيار الفكر الإلحادى الوافد من الشرق ومن الغرب، والذى تغلغل فى مختلف مجالات المعرفة الإنسانية المكتسبة، وأدى إلى صياغتها صياغة مادية بحتة، تنكر أو تتجاهل الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، حتى فى المجتمعات التى يؤمن أفرادها بذلك.، ثم وقوف المسلمين، وفى مقدمتهم رجال

التربية، موقف المستسلم لتلك النظم التعليمية المادية السائدة، وباختصار شديد فإن أزمة التعليم المعاصر تتجسد فى غياب المنهج الإسلامى للتربية، وفى غيابه من الدول الإسلامية بصفة خاصة، والتى كان فى إمكانها أن تقدم للعالم النموذج التطبيقى فى كيف تكون التربية للإنسان الصالح.

وتتلخص العيوب الرئيسية لنظم التربية المعاصرة فيما يلى:

أولاً: أنها تعتمد على فلسفات وضعية انحرفت بالإنسان عن حقيقة رسالته فى هذه الحياة: عبدا لله، يعبده – سبحانه وتعالى – بما أمر، ويحسن القيام بواجبات الاستخلاف فى الأرض بعمارتها وإقامة عدل الله فيها.

ثانياً: أنها تقوم على أساس من نظم تقليدية، وقوالب جامدة، تفرض على الطلاب فرضاً فى أطر زمانية ومكانية محددة، تحرم العملية التربوية من الاستمرارية والشمول.

ثالثاً: اقتصار هذه النظم – بحكم طبيعة الفلسفات الوضعية التى تقوم عليها – على الجوانب المادية فقط فى الإنسان والكون والحياة، مما ساعد على نمو هذه الجوانب المادية نموا مذهلا على حساب الجوانب الروحية والدينية والأخلاقية مما أدى إلى ضمورها إلى حد الاختفاء أو فسادها إلى حد تهديد البشرية كلها بالفناء. وكان من نتائج ذلك خروج الإنسان عن إطار إنسانيته المتسمة بتوازن محكم بين مادة وروح، وفقدانه لحقيقة رسالته فى الحياة.

رابعاً: كذلك فإن سيطرة المنهج المادى على الفكر التربوى المعاصر جعل المعرفة معزولة عن الحكمة وأدى إلى ضياع الجانب الأخلاقى والدينى، وبضياعه انحسر دور التربية فى التعليم فقط بمعنى نقل قدر من المعلومات أو التدريب على قدر من المهارات، وقد أفرز ذلك النوع من التعليم إنساناً ماهراً غير ملتزم بالدين ولا بالأخلاق وكان هذا النوع من البشر واحدا من أبرز أسباب الأزمات العالمية الراهنة كلها وبخاصة الأزمات السياسية والاقتصادية والاجتماعية والعسكرية.

خامساً: افتقار المعلمين أنفسهم للنظرة السوية إلى الإنسان والكون والحياة ولمعنى ألوهية الله، مما أدى إلى فقدهم لدورهم كقدوة حسنة يقتدى بها الطلاب ويتمثلون سلوكها، وبذلك افتقرت العملية التربوية إلى أحد عناصرها الأساسية وهى القدوة الحسنة.

سادساً: فقدان الرغبة الحقيقية فى التعلم نظراً لضياع الحافز الدينى والأخلاقى، وإلى غيبة القدوة الحسنة مما حدد هدف الطلاب فى الحصول على المؤهل من أجل استخدامه كوسيلة فى الوصول إلى وضع اجتماعى ومالى أفضل، بينما الأصل فى التعليم أنه ضرورة من ضرورات الوجود الإنسانى وليس وسيلة للتوظف أو للاستعلاء الاجتماعى.

سابعاً: افتقار نظم التعليم المعاصر إلى الجوانب الإنسانية كالعلاقة النبيلة بين الطالب والأستاذ وبينه وبين زملائه مما أدى إلى تدهور الحياة التعليمية تدهوراً ملحوظاً، ومن مظاهر ذلك التدهور: انصراف الطلاب عن التعليم، وانشغالهم بالعديد من حركات الرفض السلبية التى أخذت تجتاح المجتمعات المعاصرة كلها. ومن مظاهره أيضاً تدهور النظام التربوى ذاته، فالقبول مبنى على التمييز بين الطلاب، ومناهج التعليم محددة جامدة تقتل روح البحث والاستقصاء والإبداع، وتشل من حرية كل من الطالب والاستاذ، ونظام الامتحانات نظام موروث من القرون الوسطى وقد أثبت قصوره فى قياس قدرات الطلاب وتقييم مستوياتهم، وأدى إلى فشل الكثيرين منهم.

ثامناً: هذه النظم التربوية قامت على الفصل بين المعارف وتضييق الاختصاصات إلى درجة مبالغ فيها إلى الحد الذى أعجزها عن الرؤية الكلية الشاملة لأية قضية من القضايا الاجتماعية أو السياسية الهامة من مثل قضايا الحرب الباردة والساخنة والتى تشنها الدول الكبيرة بغير حق على الدول الصغيرة، وقضايا الظلم السائدة فى عالم اليوم، وقضايا التجسس والاستخبارات والغزو والاستعمار والاضطهاد العنصرى، ومشاكل الجهل والجوع والحرمان،

والقلق، والآلام، وأخطار التلوث البيئى التى تهدر جميع سكان الأرض، وقضايا التصحر، وتناقص المواد الغذائية والموارد الطبيعية، واستعباد الآلة للإنسان، والتحلل الأخلاقى والبعد عن الدين، وقضايا الشذوذ الجنسى، وزواج الأمثال والسماح لهؤلاء الشواذ بالتبنى والتوارث تحت حماية من دساتير الدول الكبرى لهم وهذه قضايا لا يمكن للمجتمع أن يعيش دون أن يهتم بها ويصل إلى وسائل حلها، وإقصاء التربية المعاصرة عن مثل هذه القضايا الكلية - مهما كانت الأعذار - سيجعلها دائماً فى معزل عن مشاكل المجتمع وقضاياه وهذا فى حد ذاته إهدار لقيمة العلم ولدور المتعلمين، كما أنه يهدد وحدة الجنس البشرى ومستقبله.

تاسعاً: إن هذه المناهج التربوية الوضعية القاصرة - سواء كانت مستوردة من العالم الليبرالى أو الشيوعى - قد سيطرت على الفكر التربوى فى العالم، وقد انتقلت عدوى ذلك إلى البلاد الإسلامية، وغيرها من دول العالم الثالث مما أفسد مناهج التربية فيها لأنها نظم تتنافى مع عقائدها وفكرها وتراثها، وتتناقض مع احتياجاتها وإمكانياتها المادية، مما يؤدى غالباً إلى انفصام فى شخصية متعلميها، وإلى ضعف لمردودها الذى تصحبه بطالة بين المتعلمين وما لذلك من عواقب نفسية واجتماعية واقتصادية وخيمة وهى من الأمور التى تهدد المجتمعات الإنسانية اليوم بالانهيار.

هذه بعض نقائص النظم التربوية المعاصرة التى تقف من وراء أزمة التعليم المعاصر، وهذه لن تحلها الاصلاحات الجزئية من قبيل الدعوة مثلاً إلى جعلها تربية مستمرة، حرة، مفتوحة للجميع، ونزع الطابع الجامد عنها، أو القضاء على التمييز بين مراحلها - الابتدائى، المتوسط، الثانوى والعالى-، وعقد الصلات بين التعليم والمجتمع، أو الاهتمام بالتربية قبل المدرسة، أو جعل التعليم شاملاً لا يفصل بين تعليم عام وتقنى، أو ربطه بالعمل ، أو استخدام التقنيات الحديثة بين وسائله... فهذه كلها أمور جزئية لا تستطيع حل مشاكل التربية التى تعتبر من أعقد العمليات الإنسانية وأخطرها،ولذلك **فالعلاج لابد أن يكون حلا عاجلاً كلياً**

شاملاً، وهذا العلاج الكلى الشامل لا يمكن أن يكون من وضع بشر؛ لأن البشر محكومون بحدود قدراتهم، وبقصور إمكانياتهم، ومن ثم فالعلاج لا يمكن أن يكون موجوداً إلا فى رسالة من السماء.، والرسالة السماوية الوحيدة المحفوظة بين أيدى الناس، منذ أكثر من ألف وأربعمائة سنة وحتى اليوم هى رسالة خاتم الأنبياء والمرسلين – صلى الله وسلم وبارك عليه وعليهم أجمعين – المحفوظة بعهد الله الذى قطعه عاى ذاته العلية – ولم يقطعه لرسالة سابقة أبدا – المحفوظة بنفس اللغة التى نزلت بها – اللغة العربية – دون تحريف أو تغيير أو تبديل فى القرآن الكريم وفى السنة الصحيحة المتوارثة عن خاتم الأنبياء والمرسلين – ﷺ – والتربية القرآنية هى قمة النظم التربوية قاطبة لأنها تربية الله الذى خلق، والذى هو أدرى بطبيعة خلائقه وبأفضل الوسائل لتربيتهم. وخاتم الأنبياء والمرسلين – صلوات الله وسلامه عليه – هو النموذج الحى للكمال البشرى فى أعلى صوره، والاقتداء به هداية إلى ذلك الكمال.

وتتلخص فلسفة التربية الإسلامية فى الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، وبالقدر خيره وشره، والالتزام بالعمل الصالح، والتعاون عليه، والتعرف على الحق والتواصى به، وبناء الإنسان بناء متكاملاً يقوم على تأديب النفس، وتصفية الروح، وتثقيف العقل، وتقوية الجسد، حتى يصل الى الكمال الإنسانى المتسامى باستمرار، وصولاً اختيارياً واعياً، فى اطار من القيم الربانية، والأخلاق القرآنية التى ينشأ من الصغر عليها، ويعود على التعامل بها حتى تصبح جزءاً لا يتجزأ من كيانه وبذلك يتحقق له فهم رسالته فى هذه الحياة: عبدا لله تعالى يعبده بما أمر، ومستخلفا فى الأرض يعمرها قدر استطاعته ويجاهد من أجل إقامة عدل الله فيها وبهذا الفهم يتمكن المتربى من النجاح فى الدنيا والآخرة، وهو الهدف من وجوده فى هذه الحياة.

والتربية الإسلامية تعتبر العلم النافع مكملا لإنسانية الإنسان، ومعيناً له على القيام بواجبات الاستخلاف فى الأرض، ومن ثم **تجعل لكل مولود حقاً**

طبيعياً **فى التربية والتعليم، وتعتبر طلب العلم فريضة على كل مسلم**، وتأخذ التربية بشمولها للجوانب العقلية والنفسية والروحية والجسدية فى الإنسان، وتعمل على تعهد كل جانب من هذه الجوانب والنمو به فى عدل وتوازن، وهى تعتبر الخير **أصيلاً فى الإنسان**، ومن ثم فمن واجبها المحافظة على فطرته السوية وتنميتها على ذلك الخير حتى تتطبع به، وقمة الخير فى الإنسان هى الخضوع بالعبودية لله - تعالى - وحده بلا شريك ولا شبيه ولا منازع ولا صاحبة ولا ولد.، لأنها تجسيد لمعنى التكريم الذى كرمه به الله. فقال - عز من قائل: ﴿ **وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً** ﴾ [الإسراء: ٧٠].

والتربية الإسلامية تعتبر حب الخير وحب الحق وحب الجمال من **القيم الأصيلة فى النفس البشرية**،، وأن من واجب التربية **المحافظة على تلك القيم وتنميتها فى عقل وقلب المتربى حتى يصبح جزءا من تكوينه**، وهى تعتبر التربية **عملية مستمرة** مواكبة لرحلة الحياة من المهد إلى اللحد.، بل تمتد بها إلى ما قبل المهد وذلك بالتقنين لحسن اختيار الوالدين فى إطار من الشرعية التى وضعها الله، إعداداً لمقدم الجنين الصالح، ثم للعلاقة العائلية المستقرة، وحقوق الفرد فيها: طفلاً، وشاباً، ورجلاً، وكهلاً، وواجباته تجاه أهله ومجتمعه وقومه، بل تجاه الإنسانية كلها انطلاقا من الإيمان بوحدة الجنس البشرى وبالأخوة الإنسانية على الرغم من فوارق اللون واللسان والمعتقد، وهذه من القضايا التى تهتم بها التربية الإسلامية لأنها فى أساسها **تربية إنسانية**، غير محدودة بحدود إقليمية أو عرقية ضيقة، ولذلك فهى تربية تتحقق فيها المساواة بين الناس على اختلاف ألوانهم وألسنتهم ومعتقداتهم، وبين الذكر والأنثى، وهى **تأخذ فى الحسبان تباين الأفراد** فى قدراتهم وملكاتهم ومواهبهم واستعداداتهم، فتقوم على أساس من **التربية الفردية الحرة** غير المقيدة بأغلال النظم المادية الضيقة، ينهل منها الطالب بغير قيود مسبقة، ويتحرك فيها حركة أفقية ورأسية حسب

ميوله وقدراته وبمشورة أستاذه، وحسب ظروف حياته وعمله، بل تيسر له مجالا خارج نطاق المعاهد التربوية بصور شتى – المسجد، الندوات، المحاضرات، الاعلام، بمختلف أشكاله وصوره، شبكات المعلومات، البرامج التدريبية والتعليمية المختلفة، إلخ–، كما تدعو التربية الإسلامية إلى المشاركة الفعلية من جانب الطالب، لتعوده على التعلم الذاتى، وتجعله لا يعتمد على التلقين الحرفى المباشر وغير المباشر.

والتربية الإسلامية إذ تحسن اختيار المربين وتشترط فيهم شروطاً عالية، فإنها تهتم بهم اهتماماً بالغاً وتعمل على أن توفيهم حقهم وقدرهم، فهم القدوة التى يقتدى طلابهم بهم بها، والنموذج الذى يحتذوه فى الاجتهاد الواعى للعمل الصالح فى هذه الحياة، وذلك انطلاقاً من الرؤية الصائبة للتربية الإسلامية أن العلم بدون عمل صالح علم ناقص.

ومن سمات الشمول فى التربية الإسلامية شمول مصادر المعرفة، فهى لا تقصر ذلك على العلوم المكتسبة وتراث الإنسانية المتراكم فيها، بكل ما فى ذلك من حسنات وسيئات، ولكنها تجعل بجانبه معياراً ربانياً هو الوحى السماوى المنزل الذى اكتمل وحفظ بنفس لغة الوحى على مدى الأربعة عشر قرنا الماضية وإلى قيام الساعة وذلك بعهد من الله – تعالى – وعهد الله لا يخلف وقد تعهد ربنا بحفظ رسالته السماوية الخاتمة فى القرآن الكريم وفى السنة النبوية المطهرة، بينما تعرضت كل صور الوحى السابقة للضياع، وما بقى من بعضها من ذكريات نقلت شفاها لعدة قرون ثم دونت بأقلام مجهولين ليسوا بأنبياء ولا بمرسلين، وكتبت بأقلام مختلفة، فى أماكن متفرقة، وأزمنة متباعدة وفى لغات غير لغة الوحى، ولم تجمع إلا بعد عشرات القرون من وفاة أو رفع المرسلين الذين تلقوها، ولذلك تعرضت هذه الذكريات – ولا تزال تتعرض للتحريف والتزييف والحذف والإضافة مما أخرجها عن إطارها الربانى وجعلها عاجزة كل العجز عن هداية أتباعها.

وعلى الرغم من إيماننا بذلك إلا أن أصلا من أصول الإسلام يربينا به الله –

تعالى – بقوله: ﴿ لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ... ﴾ [البقرة: ٢٥٦]. وبأمره إلى خاتم أنبيائه ورسله (ﷺ): ﴿ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ ﴾ [الكافرون: ٦]. أما فى بقية الأمور من غير وحى السماء فالإنسان مأمور باستخدام حواسه وعقله فى عملية من الكشف المستمرة وتحكيم الاستدلال بالبرهان المنطقى، ورفض التقليد الأعمى، والجمود على المفاهيم الخاطئة.

والمعارف المكتسبة فى التربية الإسلامية ليست معزولة عن الحكمة، ولا مجردة من الإيمان، فإذا كان العلم التجريبى وتطبيقاته فى مجال التقنية علماً بالمادة وصفاتها وقوانيها، ومحاولة لتسخيرها، وعلماً بالكون وسننه، فإن الإيمان معرفة بالله خالق المادة، ومؤسس قوانيها، ومبدع الكون، وواضع نواميسه، وخالق الإنسان، ومستخلفه فى الأرض، وواهبه تلك القوى التى تعينه على تسخير الكون وسننه من أجل القيام بواجبات الخلافة، وكلاهما علم لاغنى للإنسان عنه، وإذا كانت العلوم المكتسبة صحيحة فهى حتما تؤكد على قضية الإيمان بالله وتوحيده، ومن هنا تنطلق التربية الإسلامية من التصور الإسلامى الصحيح للإنسان والكون والحياة ولمعنى ألوهية الله، ومن ثم فهى تعمل على تنشئة الإنسان الصالح الذى يدرك حقيقة دوره فى هذه الحياة فيعمرها بنجاح وفلاح وصلاح.

من ذلك يتضح أن علاج أزمة التعليم اليوم – بأبعادها المادية والمعنوية – هو فى قيام التربية الإسلامية الشاملة واقعاً حياً بين الناس، ونموذجاً يقتدى به، ويهتدى بهديه، ولما كان ذلك غير محقق اليوم، باستثناء بعض البادرات الطيبة التى بدأت تنشط بصورة محدودة فى أماكن متناثرة من العالم الإسلامى، فقد خلص البحث إلى اقتراح خطوط عريضة لما يجب أن تكون عليه التربية الإسلامية اليوم، وذلك فى صورة عدد من التوصيات التى أسأل الله العلى القدير أن ينفع بها، وأن يهيء لها أذناً صاغية تستمع إليها، والتى أوجزها فيما يلى:

أولا - إنشاء مركز إسلامى عالمى للدراسات التربوية يكون من بين مهماته :

(١) إستقطاب الطاقات الإسلامية المتخصصة والتى تتميز بالقدرة على العطاء فى مختلف مجالات التربية .

(٢) العمل على بلورة النظرية الإسلامية للتربية، ووضع التفاصيل الدقيقة لنظام تربوى إسلامى يفى باحتياجات العصر، ووضع الأطر العامة لمناهج المراحل التعليمية المختلفة .

(٣) تشجيع التأليف والترجمة والنشر فى موضوعات هذه المناهج، وذلك ضمن خطة مرسومة تتضمن بالإضافة إلى المحتوى العلمى الرصين ثلاث قضايا أساسية تشمل :

(أ) التأصيل الإسلامى للمعارف المكتسبة .

(ب) إبراز دور علماء المسلمين القدامى والمعاصرين فى هذه المعارف .

(جـ) إبراز جانب الإعجاز العلمى للقرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة فى هذه المعارف - إن وجد - أو ما فيها من إشارات إلى طلاقة القدرة الإلهية فى إبداع الخلق .

(٤) القيام بدراسة دقيقة للآثار المكتوبة عن التربية ومؤسساتها ونظمها ومناهجها وأعلامها فى الدولة الإسلامية، وأهم إضافات المسلمين فى ذلك المجال .

(٥) وضع خطة زمنية للقضاء على الأمية فى العالم الإسلامى وإلزام الحكومات الإسلامية بها .

(٦) العمل على تطوير أساليب التربية المعاصرة فى إطار من التصور الإسلامى الشامل، والاستفادة بالمعارف والوسائل التقنية الحديثة، دون الإخلال بالدور الإنسانى فى العملية التربوية .

(٧) عمل مسح شامل للتربية فى العالم الإسلامى ودراسة مشاكلها الرئيسة، خاصة ما يتعلق بتعليم الأقليات المسلمة فى الدول غير المسلمة، ووضع الحلول المناسبة لذلك .

(٨) العمل بكل الوسائل الممكنة على تعريب التعليم فى مختلف مراحله – من رياض الأطفال إلى المرحلة الجامعية – وهذا لا يتعارض مع تدريس لغة أجنبية أو أكثر.

(٩) وضع نظام خاص لتعليم البنات يقوم على استقلاليته فى مختلف مراحله، ويراعى فيه ما يناسب طبيعة المرأة، وما يحفظ عليها فطرتها، ويعمل على نشر التعليم بين الإناث اللاتى يعانين من أعلى نسب الأمية فى العالمين العربى والإسلامى وطلب العلم فريضة على المسلمين كافة رجالاً ونساء.

(١٠) العمل على وقف المدارس التنصيرية المعلنة والخفية، وتجريم أنشطتها المختلفة، ودعوة المسلمين إلى عدم إرسال أبنائهم إليها مهما كانت المغريات لذلك.

(١١) تطوير تدريس الثقافة الإسلامية لتوضيح فضل الإسلام العظيم على غيره من الأديان، وفضل القرآن الكريم على غيره من الكتب فى دراسة منهجية لمقارنة الأديان، وإبراز سير عظماء الإسلام، ودور الحضارة الإسلامية فى ازدهار المعارف الإنسانية المختلفة وبعض جوانب الإعجاز لكتاب الله – تعالى –، وسنة رسوله – ﷺ –، ووضع مؤلفات فى هذه المجالات بلغة العصر وأسلوبه.

(١٢) تيسير تدريس اللغة العربية للمسلمين من غير العرب وتطوير وسائل ذلك.

(١٣) العمل على إصدار عدد من الدوريات الإسلامية للتربية.

(١٤) العمل على إصدار دائرة معارف إسلامية حديثة.

(١٥) العمل على إقامة نماذج للمعاهد التربوية على مختلف مستوياتها تجسد فلسفة التربية الإسلامية واقعاً حياً بين الناس وعمل مسابقات هندسية دولية لتصميم تلك المعاهد التربوية تصميما إسلاميا.

ثانيا – تكوين إتحاد عالمى للتربويين الإسلاميين له مقر دائم، وفروع فى مختلف عواصم العالم، ويكون من مهماته:

(١) ربط المسلمين المهتمين بقضايا التربية فى مختلف أنحاء العالم، وعمل حصر شامل لهم.

(٢) تكوين لجان متخصصة فى مختلف مجالات التربية تنبثق عن الاتحاد.

(٣) تبنى النظرية الإسلامية فى التربية والدعوة لها، والعمل على تنفيذ استراتيجياتها، وفى مقدمة ذلك تنظيم حملات محو الأمية، والعمل على إحياء رسالة المسجد، والعمل على وقف جميع صور المدارس التنصيرية ونشاطات المنصرين، ووقف تعيين غير المسلمين والذين يجاهرون بعدم التزامهم بالإسلام من أبناء المسلمين فى معاهد التعليم المختلفة بالبلاد الإسلامية، والدعوة إلى إقامة مؤسسات تربوية إسلامية شاملة، وإلى الفصل بين الجنسين فى مراحل التعليم المختلفة، والدعوة إلى وقف إرسال الطلاب المسلمين للدراسة فى بلاد غير إسلامية فى سن مبكرة، وإلى إحياء نظام الوقف الإسلامى على التعليم...

(٤) إصدار دورية شهرية أو ربع سنوية.

(٥) يعقد الاتحاد مؤتمره بطريقة دورية ولتكن مرة كل سنتين.

(٦) يخصص الاتحاد جوائز عينية ومعنوية لأفضل البحوث والمؤلفات التى تنشر فى مجالا التربية الإسلامية.

(٧) تكوين هيئة إسلامية عالمية للتربية والثقافية والعلوم على غرار هيئة اليونسكو، وقد تكونت بفضل من الله كل من «الإسيسكو» أو المنظمة الإسلامية للتربية والثقافة والعلوم ومقرها المغرب. «والأليسكو» وهى المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم ومقرها فى تونس. يكون من مهامها التنسيق بين دول العالم الإسلامى لتسيير تنفيذ استراتيجية التربية الإسلامية، وذلك من خلال الخبرات، والإمكانيات، والأشخاص، والتعاون الفكرى والمادى، وليكن لهذه الهيئة مؤسسة بناء غير هادفة للربح، تقوم على تصميم وتنفيذ مبانى المؤسسات التعليمية فى دول العالم الإسلامى لتغنيه فى ذلك عن تسلط بعض المؤسسات التنصيرية التى

تقوم بدور خطير فى العالم الإسلامى (خاصة فى القارة الإفريقية) تحت ستار بناء المدارس بتكلفتها ومن أمثلتها مؤسسة «كير» الأمريكية.

هذا وبالله التوفيق، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين وصلى الله وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه ومن تبع هداه ودعا بدعوته إلى يوم الدين.

* * *

بَعضُ المَرَاجع

أولا : المَرَاجِع العربيَّة

– الابراشى، محمد عطية

– ابن عاشور، محمد الطاهر (١٩٦٥) : أليس الصبح بقريب : الشركة التونسية للتوزيع (تونس) .

– أمين، مصطفى (١٩٢٥) : تاريخ التربية . مطبعة المعارف (القاهرة) .

– الأهوانى، أحمد فؤاد (١٩٦٨) : التربية فى الإسلام، دار المعارف بمصر (القاهرة) .

– البوطى، محمد سعيد رمضان (١٩٦١م) : تجربة التربية الإسلامية فى ميزان البحث : المكتبة الأموية (دمشق) .

– التميمى : التبشير فى الخليج العربى .

– الجمالى، محمد فاضل (١٩٦٧) : تربية الإنسان الجديد (محاضرات فى مبادىء التربية ألقيت بالجامعة التونسية) . الشركة التونسية للتوزيع (تونس) .

– الحجى، عبدالرحمن .

– دراز، محمد عبدالله (١٩٤٨)، (١٩٧٤) دستور الأخلاق فى القرآن ترجمة عبدالصبور شاهين، مراجعة السيد بدوى، مؤسسة الرسالة (بدون) ودار البحوث العلمية (الكويت) .

– ديوى، جون (١٩٦٦) . المبادىء الأخلاقية فى التربية، ترجمة عبد الفتاح السيد هلال، مراجعة أحمد فؤاد الأهوانى، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر (القاهرة)، (يناير ١٩٦٦) .

– شديد، محمد (١٩٦٩) منهج القرآن فى التربية، مؤسسة الرسالة (بيروت) .

– شلبى، أحـمـد (١٩٥٤) : تاريخ التـربيـة الإسـلامـيـة . دار الكشـاف (بيروت) .

– عبدالوهاب، حسن حسنى (ناشر) : (١٣٤٨هـ الموافق ١٩٢٨م)، آداب المعلمين (مما دون محمد بن سحنون عن أبيه) : (تونس) .

– الغزالى، الإمام أبو حامد محمد بن محمد (٤٩٥هـ الموافق ١١٠١م؟) : احياء علوم الدين : الجزء الأول والثالث : دار المعرفة للطباعة والنشر (بدون) .

– الغـزالى، الإمـام أبو حـامـد مـحـمـد بن مـحـمـد (٥٠١هـ الموافق ١١٠٨م؟) : أيهـا الولد : ترجـمـة توفـيق الصبـاغ، تقـديم جـورج شـرر (الطبـعـة الثالثة) اللجنة اللبنانية لترجمة الروائع (بيروت)، (١٩٦٩) .

– فرانكل، تشارلس (محرر) : (١٩٦٣م) نظرات فى التعليم الجامعى، : ترجمه وقدم له محمد توفيق رمزى، صدر له حسن جلال العروسى دار المعرفة (القاهرة)، الكتاب نشر فى ١٩٥٩م .

– عمر فروخ والخالدى . التبشير والأستعمار فى الدول العربية .

– فـهـمى، أسـمـاء (١٩٤٧م) : مـبادىء التربيـة الإسـلامـيـة، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر (القاهرة) .

– فـور، ايدجـار ومن مـعـه (١٣٩٤هـ، ١٩٧٤م) تعلم لتكون، ترجـمـة حنفى بن عيسى، اليونسكو / الشركة الوطنية للنشر والتوزيع (الجزائر) .

– القـاضى، على (١٣٩٦هـ، ١٩٧٦م) : ديناميكية التربيـة الإسـلامـيـة : التضامن الإسلامى : السنة الثلاثون، الجزء الثانى عشر (جمادى الآخرة ١٣٩٦هـ يونيو ١٩٧٦م) ص ٣٥ – ص ٤٣ (مكة المكرمة) .

– القرضاوى، يوسف فقه الزكاة : من جزءين ـ مكتبة وهبة ـ القاهرة .

– القـرضـاوى، يوسف (١٣٩٤هـ، ١٩٧٤) : الحل الإسـلامى فـريضـة وضرورة، مكتبة وهبة ـ القاهرة .

– القرطبى، أبو عمر يوسف بن عبدالبر النمرى: جامع بيان العلم وفضله وما ينبغى فى روايته وحمله: دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، دار الطباعة المنيرية (١٣٩٨هـ – ١٩٧٨م).

– قطب، محمد (١٣٩٤هـ، ١٩٧٤م): منهج التربية الإسلامية، دار الشرق (بيروت).

– الكنانى، بدر الدين أبو إسحاق إبراهيم سعد الله بن جماعة (المتوفى ٧٣٣هـ): «اقرأ باسم ربك الذى خلق» تذكرة السامع والمتكلم فى أدب العالم والمتعلم: طبع تحت إدارة جمعية دائرة المعارف العثمانية – حيدر آباد – الدكن – (١٣٥٣هـ).

– المصرى، محمد أمين (١٩٦٧) لمحات فى وسائل التربية الإسلامية وغاياتها: دار الفكر (بيروت).

– المودودى، أبو الأعلى (١٩٥٢): منهج جديد للتربية والتعليم. لاهور.

– النجار، زغلول راغب محمد (١٣٩٦هـ – ١٩٧٦م) عن ضرورة اعادة كتابة العلوم من وجهة النظر الإسلامية: مؤتمر التضامن الإسلامى الأول فى مجالات العلوم والتكنولوجيا (الرياض).

– الندوى، أبو الحسن على الحسنى (١٣٨٨هـ – ١٩٦٩م): نحو التربية الإسلامية الحرة فى الحكومات والبلاد الإسلامية، دار الإرشاد (بيروت).

– الوجاج، الحسين (١٣٩٥هـ – ١٩٧٥م): معاهد العلوم وتطويرها فى الإسلام، المجلة الإسلامية – العدد الثانى، ص ٨٥ – ص ٩١ (الرباط).

– يالجن، مقداد (١٣٩٦هـ – ١٩٧٦م): منهج التربية الإيمانية: المسلم المعاصر: العدد الخامس(محرم – ربيع أول ١٣٩٦هـ الموافق يناير – مارس١٩٧٦ .

- يالجن، مقداد (١٣٩٦هـ - ١٩٧٦م) : خصائص التربية الإسلامية ومميزاتها الأساسية، المسلم المعاصر، العدد السادس (ربيع ثانى - جمادى الثانية ١٣٩٦هـ، ابريل - يونيو ١٩٧٦م) ص ٨٧ - ص ٩٦ .

- يالجن، مقداد (١٣٩٣هـ - ١٩٧٣م)، توجيه المتعلم إلى أفضل طرق التعليم فى ضوء التفكير التربوى والإسلامى، دار البحوث العلمية (الكويت) .

* * *

المَرَاجع الأجْنبيَّة

Ahmed, Khurshid (1968): Principles of Islamic Education 4th. Edition, pp. I - 26 Islamic Pubications Ltd., Lahore - Decca - Karachi.

Ahmad, Khurshid, (Editor) (1975): Islam, its meaning and message, Islamic Coucil of Europe (London) 279pp.

Bell. BI. (1949): Crisis in Education, a challenge to American Complacency: Mc Graw- Hill Book Co., Inc., New York.

Bowden, Lord B.V. (1971) The Crisis of World universities: 700 Years. of Anarchy: Philos, J. Bol. 3, no. 2. pp. 71 - 92.

Bowden, Lord B.V. (1974): Opening Address, Conference on Crisis in Engineering and Science Education, UMIST (Manchester, England).

Coombs, P.H. (1968) The World Educational Crisis pp. 1- X + 1 - 141; Oxford, University Press (New York; London; Toronto).

Coucil On Eduction In the Geological Sciences (C.E.G.S.) Publication No. B (1971).

Di Veste, F.J & Thompson G.G. (1970): Educational Psychology; Instruction and behavioral change; (Appleron - Century - Crofts Educational Division). Meredith Corporation (New York); 718 pp.

El- Naggar, Z.R. (1975): On a proposed system for teaching Geology at the university level: Seminar on metods of undergraduale teaching (Science): Kuwait University, (May 3, 1975).

Fletcher, C.S. (Editor), (1962):Eduction the Challenge Ahead.

Gheith, M.A. (1974) Towards and effective, humane Earth Sciences Education: Second Arab Mineral Wealth Conferenc (Jeddah, November 2 - 8,- 1974) Conference Documents, Background Papers pp. 122 - 139.

Jaradat, Izzat, (1975): Islam and education for development: Proc. 4th

Annual Convention of the Association of Muslim Social Scientists Vol. I, pp. 59 - 70.

Khawaja, I. (1976): Fundamental Problems of Education In Muslim Countries: Proc. Islamic Solid. Conf. Sci & Techn. (Riyadh/ Saudi Arabia), pp. 134 - 144.

Mather, Sir Willam (1974): An Industrialists View: Conference on Crisis in Engineering and Science Education in the West, UMIST, July, 1974.

Mc Donald, F - J. (1969): Educational Psychology; Second Education al Conference 6th printing; Wadsworth Publishing Co., Inc., (Belmont, California), 710 pp.

Nadawi, S.Abul Hasan Ali (1976): Significance of the System of Education in Muslim Countries and its far - reaching effect on their leadership and intellectual trends; Al - Ittihad (Indianapolis/ Indiana) vol. 13, no. 1 (April 1976); pp. 26 - 30.

Niblett, E.R. (Editor 1963): Moral Education in a Changing Society; Faber Ltd., (London).

Niblett, W.R. (Editor) (1969): Higher Education: Demand And Responsibility; pp. 1 - 261 + i - x. Tavistock Publications (London - Sydney - Toronto - Wellington).

Phenix P.H. (1966): Education and the Worship of God; the Westminister Press (Philadelphia).

Rosenhead, J. & Norden, T. (1963): Threats to University Independence; New Scientist p. 604 (March, 1963).

Tibawi, A.L. (1967): Arabic And Islamic Themes (Historical, Educational and Literary Studies): 409., Luzac & Co., Ltd. (London).

Wingo, G.M. (1974): Philosophies of Education: An Introduction; pp. 1 - 367, D.C Heath and Co, (Lexington/ Massachussetts; Toronto; London).

Waddy, Charis (1975): The Muslim Mind pp. i - xvii + 1 - 204 Longman (London; New York).

Cramer, Islam and modem Egypt.

محتويات الكتاب

الموضـــوع	الصفحة

الموضـــوع	الصفحة

رقم الإيداع : ٤٤٢٥ / ٢٠٠٦ م
الترقيم الدولى I . S . B . N.
977 – 225 – 217 – 1

المؤلف في سطور

ا.د. زغلول راغب النجار

● من مواليد جمهورية مصر العربية عام ١٩٣٣

● حاصل علي دكتوراة الفلسفة في علوم الأرض (الجيولوجيا) من جامعة ويلز- بريطانيا ١٩٦٣م .

● أستاذ الجيولوجيا بعدد من الجامعات العربية والغربية .

● عضو الجمعية الجيولوجية بلندن، والجمعية الأمريكية لجيولوجي البترول بالولايات المتحدة الأمريكية .

● له أكثر من مائة وخمسين بحثا ومقالا منشورا إلى جانب أربعين كتابا نشرت في بريطانيا والولايات المتحدة الأمريكية، والكويت، وقطر، وبيروت، والقاهرة، وقد ترجم بعضها إلى عدد من اللغات الأجنبية .

● يرى أن الإسلام دين العقل والعلم وأن الحضارة الإسلامية قامت على أسس علمية وتقنية صحيحة وأنه لا سبيل إلى النهوض إلا بتطور علمي وتقني يصاحبه التزام خلقي .

● زميل الأكاديمية الإسلامية للعلوم وعضو مجلس إدارتها .

● عضو مؤسس في الهيئة الخيرية الإسلامية العالمية وعضو مجلس إدارتها .

● حصل على الجائزة التقديرية من رئيس جمهورية السودان لسنة ١٤٢٩ هـ / ٢٠٠٥ م.